النحاة والقياس

صلاح الدين الزعبلاوي

كان على أئمة اللغة أن يعوا اللغة المحكية عن العرب ممن يحتج بهم من الفصحاء ويوثق بهم من الرواة فيستوعبوها في لوح محفوظ ليؤدوها كما وعوها ، لايفوتهم منها ذكر ، أو يضيق عن ضبطها حفظ.

في من يحتج لكل منهم :

وقد اجتمعت كلمتهم على الاحتجاج بأشعار الجاهليين ، وتلاقت آراؤهم وتضافرت على الاستشهاد بأشعار المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام ، وقد أسموا الجاهليين أصحاب الطبقة الأولى ، والمخضرمين أصحاب الطبقة الثانية ٠

أما الاسلاميون المتقدمون كجرير والفرزدق فالأكثرون على صحة الاستدلال بأشعارهم أيضاً ، وقد أسموهم أصحاب الطبقة الثالثة ٠ ولو أن من الأئمة من لحَّن الفرزدق وخطَّأ الكُميت وذا الرمة كأبي عمرو بن العلاء وابن أبي اسحاق الحضرمي والحسن البصري ٠

وأما المولدون والمحدثون كبشَّار وأبي نواس ، وهم أصحاب الطبقة الرابعة فقد أخذ الأكثرون بعدم الاعتداد بأشعارهم ٠ قالوا انما استشهد سيبويه والأخفش بشعر بشَّار اتقاء لهجوه ٠ واتسع جار الله الزمخشري فرأى الاستشهاد بكلام من يوثق بعربيته كأبي تمام ، قال « وهذا وان كان محدثاً لايُستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه » ٠ وترخَّص الرضي فحذا حذوه واستن بسنته ، على ما فصَّله البغدادي في خزانته (١/٦ـ٧) ٠ ونهج نهجهما أحمد شهاب الدين الخفاجي في شرح درّة الغوّاص اذ قال : « اجعل مايقوله المتنبي بمنزلة ما يرويه » ٠ ويمم هذا السمت ابن السيد البطليوسي في الاقتضاب اذ أورد في الاستشهاد على صحة اضافة (آل) الى الضمير قول المتنبي :

والله يُسعد كلَّ يوم جدَّه ويزيد من أعدائه في آله

وقال : « وأبو الطيب وان كان ممن لايحتج به في اللغة ، فان في بيته هذا حجَّة من جهة أخرى ، وذلك أن الناس عُنوا بانتقادشعره ، وكان في عصره جماعة من اللغويين كابن خالويه وابن جني وغيرهما ، وما رأيت منهم أحداً أنكر عليه اضافة آل الى المضمر . وكذلك جميع من تكلم في شعره من الكتّاب والشعراء . كالواحدي وابن عبّادوالحاتمي وابن وكيع ، ولا أعلم لأحدٍ منهم اعتراضاً على هذا البيت » .

وليس غرضنا ها هنا أن نبسط الرأي في من يحتج بأقوالهم ، وانما وطأنا بهذا لنقول انه كان على أئمة اللغة أن يجمعوا اللغة المحكية عن العرب من هؤلاء الفصحاء حرصاً على الاحاطة بها ، وخوفاً على سلامتها من أن تعبث بها الأهواء ويتسرب اليها الفساد فتبعد عن نقاوتها وتنأى عن صفائها .

استحكام بنيان اللغة :

وأئمة اللغة لم يعوا اللغة المحكية حتى كان قد استحكم بنيانها واستوت كأكمل ما تكون اللغة ، وأدق ما يكون نسجها في ملابسة اللفظ للمعنى . وقد أصبح الثلاثي وحدة الكلمة وجرت عليه صنوف من الاشتقاق والتصريف والتقليب دارت حول جامع معنوي ، فاغتنت المادة اللغوية ثم اكتمل نماؤها بتولد الرباعي من الثلاثي وهكذا . وأضحت العربية ذات فقه خاص واضح واشتقاق ثابت مطّرد . وقد سادت لغة قريش ما أسموه باللهجات الشمالية فكانت اللسان المبين الذي نزل به القرآن . بل كان القرآن حين اعتمد لغة قريش سبباً الى الأخذ بالوضع اللغوي الأرقى فمهّد السبيل للانتهاء باللغة الى مستقرها الكامل . وقد أعتدّ القرآن آية البيان العربي فكان النبراس الذي يُستضاء به والامام الذي يُنحى نحوه ويُتلى تلوه ، فجروا على منهاجه واستنوا بسنته وطبعوا على غراره .

تدوين اللغة المحكية :

ولا يظن ظان أن أئمة اللغة قد عمدوا الى وعي اللغة المحكية وحفظها ساذجة وقمشها محطوبة ، على حد تعبير ابن جني في الخصائص (٢/١٢٥) فهم قد تأتوا لهذه اللغة وتلطفوا في جمعها وضمها وملاءمة ذات بينها ، كما هو خاص اللغة وسرها . فكان ثمة منهج الخليل في معجم العين ، وقد أخذ اخذه ابن سيده في المحكم وابن دريد في الجمهرة . وكان منهج ابن فارس في كتابه مقاييس اللغة ، وكان أسبق الأئمة اليه غير مدافع . وقد بدت اللغة بمنهجه هذا في أكمل صورة من التهذيب والتلاؤم والتصنيف ، وقد أئتم بهديه الصاحب ابن عباد في المحيط فكان تلميذ ابن فارس ، وجرى في محاكاته الزمخشري في أساسه . وثمة منهج الجوهري في صحاحه وقد تجلى فيه حذقه اللغوي وبراعته الصرفية ، وحذا حذوه الصغاني في العباب وابن منظور في اللسان والفيروزابادي في القاموس ..

استقراء اللغة والكشف عن نظمها :

ثم أتى النحاة فاطلعوا على ما انتهى اليهم من كلام العرب · وقد كان عليهم أن يأخذوا بتأمله وتدبُّره ، ويعمدوا الى تقسيمه وتصنيفه ، ويمضوا في تتبعه واستقرائه ذلك ليستشفوا النظم التي صيغت بها اللغة المحكية ويكشفوا عن سنن ما جرت به ألسنة العرب على السليقة وطاعت به قرائحهم على السجية ·

وهكذا عكف النحاة على اللغة ينعمون فيها النظر ، يسبرون غورها ويعجمون عودها فاستبطنوا دخائلها واستجلوا غوامضها · أحصوا مسائلها واستقروا دقائقها · فما جرى من كلام العرب على سنن استنبطوا حكمه وحملوا غير المنقول على المنقول منه وجعلوه قياساً لنظائره · ومضوا يعللون هذا القياس ويسببونه · فاذا سُمع شيء يأباه قياسُهم هذا اتسعوا له ، وأخذوا به اذا اشتهر وشاع . فاذا ندر أغفلوه وأوجبوا فيه القياس ، حملا له على أمثاله ، وتأصيلا لما استنتوه من حدود وقوانين · وقد عقب البغدادي فيما حكاه المزهر (٣٧/١) على هذا فقال : « اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه · وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه » ·

مايتدارك من اللغة بالقياس :

قال ابن جني في الخصائص (٤٢/٢) : « لكن القوم بحكمتهم وزنوا كلام العرب فوجدوه على ضربين : أحدهما ما لا بد من تقبله كهيئته ، لا بوصية فيه ولا تنبيه عليه، نحو صحراء ودار وما تقدم ، ومنه ما وجدوه يُتدارك بالقياس وتخف الكلفة في علمه على الناس فقننوه وفصَّلوه اذ قدروا على تداركه من هذا الوجه القريب ، المغني عن المذهب الحز ن البعيد » · وأوضح ذلك فقال : « كان يسمع سامع ضوّل ولا يسمع مضارعه فانه يقول فيه يضوّل ، وان لم يُسمع ذلك ، ولايحتاج الى أن يتوقف الى أن يسمعه · لأنه لو كان محتاجاً الى ذلك لما كان لهذه الحدود والقوانين التي وضعها المتقدمون وعمل بها المتأخرون معنى يفاد ولا غرض ينتحيه الاعتماد، ولكان القوم قد جاؤوا بجميع المواضي والمضارعات وأسماء الفاعلين والمفعولين والمصادر وأسماء الأزمنة والأمكنة » ·

البصرية وأصولهم

الأصل الذي جرى عليه النحاة في استنباط أحكامهم أخذهم بالأكثر والأغلب ، وترك ما عداه · ففي طبقات النحويين لأبي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) أن ابن نوفل روى عن أبيه أنه سأل أبا عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) « أخبرني عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال لا فقلت كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال أحمل على الأكثر ، وأسمي ما خالفني لغات » ·

رأس البصرية وأول من وضع أصول النحو :

ويبدو عند التحقيق أن أول من وضع أصول النحو وقياسه هو عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي (ت ١١٧ هـ) . ذلك أن سيبويه قد سمي في كتابه من روى عنهم أصول النحو من الأئمة ولم يتجاوز الحضرمي الى امام قبله ، فالحضرمي على هذا هو رأس البصرية .

وقد حكى السيوطي في المزهر (٢/٢٤٦): « وأبو الأسود الدؤلي أول من نقط المصحف .. قال أبو حاتم .. وأما فيما روينا عن الخليل فانه ذكر أن أبرع أصحاب أبي الأسود عنبسة الفيل ، وأن ميموناً الأقرن أخذ عنه » وأردف « .. ثم توفي وليس في أصحابه أحد مثل عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي . وكان يقال عبدالله أعلم أهل البصرة وأنقلهم ، ففرع النحو وقاسه وتكلم في الهمز حتى عمل كتاباً مما أملاه . وكان رئيس الناس وواحدهم » .

وهكذا كان الحضرمي أقدم من انتهج القياس وارتاح اليه وأخذ بالأكثر والأغلب . ففي طبقات الزبيدي (٢٥) : (قال ابن سلاّم : عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي كان أول من بعّج النحو ومدّ القياس وشرح العلل) . ونحو من ذلك ما جاء في نزهة الألباء (٢٣) لأبي البركات كمال الدين بن الأنباري ، اذ قال (انه أول من علل النحو) .

أما أبو الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو (٦٩هـ) فلم تكن خطته تعدو (نقط المصحف)، أي الاهتداء الى ما اتخذ رمزاً للشكل في الرفع والنصب والجر صوناً للسان من اللحن . وليس هذا بالأمر اليسير الذي يُستهان بجدواه فيما عاد منه على اللغة من جزيل الفائدة وموفور العائدة فقد كان (الشكل) أرفق على العربية نفعاً وأرجى عاقبة من أي شيء آخر . وقد وفق الأستاذ أحمد أمين ، رحمه الله ، حين أشار في (ضحى الاسلام) الى ذلك ، وأيده فيه الأستاذ سعيد الأفغاني في كتابه (أصول النحو) حين قال : « **والشكل أعود على حفظ النصوص من حدود النحو : ولعله أعظم خدمة قدمت للعربية حتى الآن** » .

شكل المصحف واعجامه :

وقد أجمل الأستاذ محمد عبدالعظيم الزرقاوي في كتابه (مناهل العرفان) الحديث عن ذلك من بعض كتب السلف كمراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي وتاريخ ابن عساكر ، فقال : « واتفق المؤرخون على أن العرب في عهدهم الأول لم يكونوا يعرفون شكل الحروف والكلمات فضلا عن أن يشكلوها ... ولكن حين دخلت الاسلام أمم جديدة .. بدأت العجمة تخيف على لغة القرآن . بل قيل ان أبا الأسود الدؤلي سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى ـ واعلموا أن الله بريء من المشركين ورسوله ـ فقرأها بجرّ اللام من كلمة رسوله ، فأفزع هذا اللحن الشنيع أبا الأسود وقال : عز وجل الله أن يبرأ من رسوله . ثم ذهب الى زياد والي البصرة وقال له : قد أجبتك الى ما سألت ، وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله ، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث . وهنا جدّ جدّه وانتهى

به اجتهاده الى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله ، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف ، وجعل علامة السكون نقطتين ... ودامت الحال على هذا حتى جاء عبدالملك بن مروان فرأى بنافذ بصيرته أن يميِّز ذوات الحروف من بعضها وأن يتخذ سبيله الى ذلك التمييز بالاعجام والنقط ... وهنالك اضطر أن يستبدل بالشكل الأول الذي هو النقط ، شكلا جديداً هو ما نعرفه اليوم من علامات الفتحة والكسرة والضمة والسكون ... » .

وهكذا فقد تم نقط الحروف لتمييز بعضها من بعض ، وهو ما يسمى بالاعجام ، على ما هو المشهور ، في عهد عبدالملك بن مروان ، ونُدب له امامان هما نصر بن عاصم الليثي (ت ٩٠ هـ) ويحيى بن يعمر العدواني (ت ١٢٩ هـ) وقد تلمذا لأبي الأسود الدؤلي وتلقيا عنه وأحاطا بالأمر خُبراً ووسعاه علماً ، فأعجما المصحف الشريف أول مرة ونقطا الحروف فكان لهذه الخطة في ازالة الاشكال واللبس في قراءة القرآن ، آثر أي أثر .

وقيل ان نصراً قرأ القرآن على أبي الأسود ، كما في نزهة الألباء لابن الأنباري ومعجم ياقوت ، وكان أبو الأسود من القراء ، وتلقى عن نصر أبو عمرو بن العلاء فوُفِّق في رسم النحو لما لم يوفق له أستاذه ، وتلقى عن يحيى بن يعمر أبو اسحاق الحضرمي فأصاب في تأصيل النحو ما لم يصب شيخه .

ومهما يكن من أمر فان الدؤلي لم يعمد الى تأصيل الأصول النحوية وتقعيد قواعدها ولو تعلق اسمه بالنحو شكلا وموضوعاً على ما ذكر ابن الأنباري في نزهة الألباء والقفطي في انباه الرواة ، وكذلك تلميذاه نصر الليثي ويحيى العدواني ولم يكونا أوفر منه حظاً في هذا المضمار . فقد روى سيبويه في كتابه هذه الأصول عن الخليل والأخفش الأكبر وعن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وعن عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي لكنه لم يتجاوز الحضرمي الى امام قبله فلم يروِ عن أبي الأسود الدؤلي ، أو عاصم الليثي أو يحيى العدواني .

أئمة البصرية :

خلف الحضرمي أئمة أخذوا بالأكثر والأغلب وعوَّلوا على القياس كعيسى بن عمر الثقفي (١٤٩ هـ) فقد أسس أصول كتابه (الجامع) على الأكثر ، وأسمى ما شذ عن الأكثر لغات ، وكذا فعل في كتابه (الاكمال) وهما من مراجع كتاب سيبويه .

وهكذا فعل أبو عمرو زبَّان بن العلاء (١٥٤ هـ) كما تقدم ، وهو أحد القراء السبعة ، ويونس بن حبيب (١٨٢ هـ) ، وقد أخذ عنه سيبويه خاصة أصول النحو ، كما أخذ عنه الكسائي والفراء ، وغيرهم ، وكان اماماً في نقد الشعر وفي النحو واللغة .

وخلف هذين الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) وهو بحق عميد النحاة ، قال الزُّبيدي الاشبيلي الأندلسي في كتابه (مختصر كتاب العين) : « فهو الذي بسط النحو ومدّ أطنابه وسبَّب علله وفتق معانيه وأوضح الحِجاجَ فيه حتى بلغ أقصى حدوده . ثم لم

يرض أن يؤلف فيه حرفاً أو يرسم فيه رسماً. واكتفى في ذلك بما أوحى الى سيبويه من علمه، ولقّنه من دقائق نظره ونتائج فكره ولطائف حكمته ، فحمل ذلك عنه وتقلده ، وألّف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم وامتنع على من تأخر بعده » . وقال ابن الأنباري في نزهة الألباء : « وهو الذي بلغ الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ». وقد شفّت أعمال الخليل حقاً عن عبقرية نادرة اذ اختط للنحو نهجاً سليماً فكان فيه بعيد الغور فسيح الخطوة ، وألّف أول معجم في العربية وهو (كتاب العين) فكان معجماً فريداً رتب فيه المواد على الحروف بحسب مخارجها ، وقد التزم نهجه الأزهريّ في تهذيبه وابن عباد في محيطه والقالي في بارعه .

ورصد الخليل الأصوات اللغوية وصفاتها فكان له فيها رأي متقدم حصيف . وتعلق بموسيقا الشعر فانفرد بوضع العروض واتخذ لأوزان القصيد ستة عشر بحراً كشف فيها عن حذق في الفن ولطافة في الحس . وقال السكاكي في (مفتاحه) في سبق الخليل هذا : « لا يظن أحد الفضول عندهم في هذا الباب من ضمّ زيادة .. فضلا عن الامام الخليل بن أحمد ، ذلك البحر الزاخر مخترع هذا النوع ، وعلى الأئمة المغترفين منه من العلماء المتقدمين/ ٢٧٥ » . فلم يشارك الخليل في ميدان من ميادين العلم الا كانت له القدم الفارعة فبدا فيه أسبق العلماء غير مدافع وأفضلهم غير معارض . وكان أبو محمد التوجي يقول (اجتمعنا بمكة – أدباء كل أفق – فتذاكرنا أمر العلماء حتى جرى ذكر الخليل ، فلم يبق أحد الا قال : الخليل أذكى العرب ، وهو مفتاح العلوم) (المزهر –٢/ ٢٤٩) .

وجاء الأخفش الأكبر أبو الخطاب عبدالحميد بن عبدالمجيد (١٧٧ هـ) وقد روى عنه سيبويه ولم يذكر أحد أنه كان صاحب قياس أو تعليل ، فاذا جاء باستدلال ذهني كان أدنى الى خصوص اللغة ، واتخذ وجهاً من وجوه الاعراب كان ألصق بسلامة المعنى .

وجاء سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان (١٨٠ هـ) فطلع على الملأ بكتاب فذ سديد المنهج ، مطّرد التنسيق ، جامع ، غزير المادة، يعوّل فيه على الأكثر والأغلب . ينهج طريق القياس والتعليل ويعلّم البحث فيهما كما يعلّم النحو . وقد اختلف سيبويه الى مجلس أستاذه الخليل في البصرة ، وطلاب العلم فيه كثُر يزحم بعضهم بعضاً ، وقد أقبل على أستاذه يطيل الاستماع اليه والتلقي عنه ويتلطف لما يعيي فيتضلّع منه ويستجلي غوامضه فيقلّب فيه الرأي ويصرّف الفكر ، وقد لفت سيبويه نظر أستاذه بذكائه وفطنته فكان محل عنايته وموضع اختصاصه ، وقد قال له يوماً (مرحباً بزائر لا يملّ) وما كان يقوله لسواه .

استوفى سيبويه ما أملى عليه أستاذه رواية ورأياً وتعليقاً وشرحاً ففاضل ووازن وأحكم الرأي فادى فأحسن التأدية . كان صادقاً فيما أدّاه . تلقى سيبويه أصول النحو عن (يونس بن حبيب) خاصة كما استوعبه عن الخليل . قال يونس حين قرأ كتاب سيبويه : « يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل في جميع ما حكاه ، كما صدق فيما حكاه عني ».

أخذ سيبويه بالأكثر والأغلب • فقاس عليه ، دون القليل أو الشاذ ، وقال في باب (أيّ) من كتابه (١/٣٩٨) : « فلا ينبغي لك أن تقيس على الشاذ المنكر في القياس » • وقال في باب (بناء الأفعال المتعدية _ ٢ / ٢١٤) : « فانما هذا الأقل نوادر تحفظ عن العرب ولا يقاس عليها ولكن الأكثر يقاس عليه » • وقال في باب (ما لحقته الزوائد من الأفعال المعتلة _ ٢/٣٦٢) : « ولا ينكر أن يجعلوها معتلة في هذا الذي استثنينا لأن الاعتلال هو الكثير المطرد » ، ونظير ذلك كثير في الكتاب •

وجاء الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (٢١٥ هـ) ، وقد ارتحل الى بغداد فأدناه الكسائي من مجلسه وعهد اليه بتأديب أولاده • وقد اختلفت آراء الأئمة في الأخفش الأوسط وتفرقت كلمتهم بل تضاربت مذاهبهم ، لكن من الثابت أنه خالف البصرية في مسائل كثيرة ووافق الكوفية في شيء من الأصول كالاعتداد بالقراءات الشاذة والقياس على القليل فامتدحه الكوفية حتى اعتده بعضهم سيد علماء العربية • ولا شك أنه كان من كبار الحفاظ النقلة ، ولو كان يتكسّب بعلمه •

وجاء قطرب محمد بن أحمد (٢٠٦ هـ) فاشتهر بكتابه (العلل في النحو) كما اشتهر بكتبه (الاشتقاق والأضداد ومعاني القرآن) ، وقد أخذ النحو عن سيبويه • ثم جاء المازني أبو عثمان (٢٤٨ هـ) واشتهر بكتابيه (علل النحو والتصريف) وكان يتخذ المذهب البصري ويفتي به ، قال : « دخلت بغداد فألقيت علي مسائل فكنت أجيب فيها على مذهبي ويخطئوني على مذاهبهم » أي الكوفيون •

واستمر منهج النحو قائماً على النظر العقلي والاستدلال الذهني في المذهب البصري، على يد الامام المبرّد أبي العباس بن أبي يزيد (٢٨٥ هـ) لكنه غلا في التعليل والقياس بل نحا بهما نحو المنطق والفلسفة ، على أنه لم يغادر ما كان عليه الأوائل من مراعاة المعنى. وقد أكثر الانتقال الى بغداد ، قاعدة الخلافة ، من البصرة ، فازدحم فيها مجلسه وعقدت بينه وبين ثعلب الامام الكوفي مناظرات بدا فيها صاحب منطق وجدل ، الى بيان واحاطة بكتاب سيبويه ، ولو خالفه في مسائل كثيرة ، والى حذق في فنون الأدب • وقد ألف (المقتضب والكامل) واعتد كتاب (الكامل) أحد كتب الأدب الرئيسة الى جانب أدب الكاتب لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ والنوادر لأبي علي القالي البغدادي •

وتلمذ للمبرّد الزجّاج أبو اسحاق (٣١١ هـ) صاحب الاشتقاق والأمالي ، وقد حاول أن يناظر أستاذه المبرّد مرة فردّ عليه حججه • قال الزجّاج : « لما قدم المبرّد بغداد جئت لأناظره وكنت أقرأ على أبي العباس ثعلب ، فعزمت على اعناته • فلما فاتحته ألجمني بالحجة ، وطالبني بالعلة ، وألزمني الزامات لم أهتد اليها » كما جاء في (نزهة الألباء / ٢٩٠) • وهكذا كان أستاذه الأول ثعلب امام الكوفيين وأستاذه الثاني المبرّد • وقد أعجب الزجّاج بالمبرّد فترك ثعلباً اليه ، وانتقلت اليه رياسة البصرية بعد المبرّد • لكنه انفرد من المذهبين بآراء خاصة عُد بها مؤسس المذهب البغدادي •

وتلمذ للمبرّد ابن السراج أبو بكر (٣١٦ هـ) وقد ألف (الأصول) • وانتهت اليه رياسة النحو بعد الزجّاج وخالف البصريين في مسائل كثيرة • وقد صادق الفيلسوف الفارابي فكان قويّ الصلة به فتلمذ لـه في المنطق ، كما تلمذ الفارابي لصاحبه في النحو.

وأخذ عن هؤلاء أبو سعيد السيرافي (٣٦٨ هـ) ولـه شـرح الكتاب • وقـد أحاط بالمذهب البصري كما أحاط بالمذهب الكوفي ،واستعان بالمنطق والحجاج ، على دعم أصول النحو ولكن لم يتجاوز ذلك الى الأخذ بأساليب المتكلمين والمناطقـة فتصدى لمناظرة متى بن يونس القنائي ، في مجلس الوزير أبي الفتح بن الفرات ، ومن حوله أعلام الفكر كالخالديّ وابن الاخشيد والكندي •• تصدى لابن يونس يدفع حججه ويدحض أدلته حين حاول هـذا اخضاع هذه الأصول النحوية للحجاج العقلي.وقد نبّه السيرافي على استبعاد المنطق وعلتـه النظرية ، كما نبه على وجوب تعلق النحـو باللفظ والمعنى جميعاً •

وأخذ عن هؤلاء أبو الحسن بن عيسى الرماني (٣٨٤ هـ) وقد عرف بالمامه بكثير من العلوم ، فقد كان علـمّاً في علم الكلام ،اذ كان متكلماً على طريقـة المعتزلة ، وكان علـمّاً في النحو ، وعلماً في الأدب ، وفي علوم القرآن • فله شرح (معاني القرآن) للزجاج، وله (تفسير القرآن) وقد امتدحه الصاحب بن عباد وأثني عليه • نحا الرماني نحو المنطق في التعليل فمزج النحو بالمنطق حتى قال أبو علي الفارسي : « ان كان النحو مـا يقولـه الرماني فليس معنـا منـه شيء ، وان كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء » ، فكان للرماني النحو المفلسف • وقد تلمذ لـه أبو حيّـان التوحيدي ، في علم الكلام خاصـة ، فأشاد به فقال انه لم ير مثله قط علماً بالنحو وغزارة في الكلام وبصراً بالمقالات واستخراجاً للعويص وايضاحاً للمشكل ، مع تألّه وتنزه ودين ويقين وفصاحة وفقاهة وعفافة ونظافة، كما ذكر ياقوت في معجمه •

ثم تألق نجم أبي علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفـار الفارسي (٣٧٧ هـ) وذاع صيته ، وقد قصد بغداد حاضرة الخلافة ولم يناهز العشرين من عمره ، فلقي بها من أعلام البصرية الزجّاج أبا اسحاق والسرّاج أبا بكر تلميذي المبرّد ، فاختلف الى حلقتيهما وقرأ الكتاب عليهما • وقد نزع الفارسي الى الزجاج خاصة فسلك طريقته في منهجـه العلمـي ووطىء مواقع قدمه •

كان أبو علي شديد العناية بدراسة الأصوات ، وما يتصل بفقه اللغة من تصريف واشتقاق ، وقد أفصح عن ذلك جلياً تلميذه أبو الفتـح عثمـان بن جني ، وكان شديـد الاهتمام بالقياس ، فقد ابتغى لـه كل سبب والتمس اليـه كل مساغ وقلّب فيـه وجوه الرأي • وقد حبسه ذلك أن يمهر في الرواية اللغوية ويتمكن فيتوفر حظه منها ، كما فعل أصحابه منذ عهد المبرّد • فقد كان السيرافي أروى منه • قال أبو علي : « لأن أخطىء في مائة مسألة لغوية ولا أخطىء في واحدة قياسية» وقال : « لأن أخطىء في خمسين مسألـة مما بابه الرواية أهون علي من أن أخطىء في مسألة واحدة قياسية » • وكان كصاحبـه الرماني علـمّاً في علم الكلام على طريقـة المعتزلة •وعلت شهرته حتى قيل انه فاق المبرد • قال

أبو طالب العبدي : « لم يكن بين أبي علي وبين سيبويه أحد أبصر بالنحو من أبي علي » وأشتهر من مؤلفاته (الايضاح في النحو) و(التكملة) و (مختصر عوامل الاعراب) •
ومن أنبغ تلاميذ أبي علي أبو الفتح عثمان بن جني ، وقد لقيه حين مرّ بجامع الموصل، فأعجب ابن جنيّ بأستاذه وأكبره ولزمه بعد ذلك ، وكان يقول : « أنا غلام أبي علي الفارسي في النحو » وقال في أبي علي : «وقد انتزع من علل النحو ثلث ما وقع منه لسائر النحويين » •

وخلف الفارسي أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢ هـ) • وقد استفاضت شهرته فسبق أقرانه وشاهم فبلغ الذروة في الأصالة وبعد الغور •

كان ابن جني يختلف الى مسجد الموصل فيتلقى فيه مبادىء علوم العربية وقد تلمذ فيه لأحمد بن محمد الموصلي • ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة حتى شوهد يتصدر حلقة المسجد ، وكان يختلف اليه صغار طلبة العلم. وبينما هو كذلك اذا بأبي علي يلقاه في المسجد فيستوقفه نبوغ الصبي وحديثه وما انطوى عليه من فصاحة لسان وقوة منطق فيقول له: « تزببت يا بني وأنت حصرم » • وقد قاد هذا ابن جني الى أن يتلمذ لأبي علي ويستمر اتصاله به في صحبة علمية امتدت نحو أربعين عاماً •

يخلف ابن جني أستاذه فيتصدر للتدريس في بغداد ويزدحم مجلسه بطلاب العلم فيصبح مرجعهم بعد أبي علي •

أدرك ابن جني الشأو في البراعة والعمق في كل ما ألف من كتبه لا سيما سرّ صناعة الاعراب والخصائص والمحتسب وكان أماماً مقدماً في القياس يحث عليه ويرغب فيه ويرهف العزم على الأخذ به بالتلطف والحجة •

سلك ابن جني مسلك أستاذه أبي علي الفارسي وكان أعلق بأصول المنطق والفقه ، وقد أداه النظر الثاقب والرأي النضيج الى فرائد وطرائف في اللغة وفقهها • ماز العلة النحوية من الفقهية والكلامية وجعل اتكاء النحوية على رهافة الحس وبداهة الطبع ، ورأى أنها ليست في سمت الكلامية لكنها أقرب اليها من الفقهية (الخصائص ـ علل العربية ـ ج ١) •

دافع ابن جني عن علل النحويين ورد على من اعتقد فسادها وادّعى ضعفها ، وقد وفق في انكار العلل الثواني وعلة العلل فارتضى منها ما جاء تتميماً للعلة الأولى وشرحاً لها ••

وفي الجملة تناول ابن جني لغة العرب أصواتاً وحروفاً وبحث كيانها نشوءاً واستواء ، بالحدس تارة والاستدلال الذهني تارة أخرى، وعالج أصول نحوها بالتلطف والحجة جميعاً متعمقاً متبسطاً (فلن تجد شيئاً مما علّل به القوم وجوه الاعراب الا والنفس تقبله والحس منطو على الاعتراف به •• وأن علل النحو انما يفزع في التحاكم بها الى بديهة الطبع)•

ورازبنية ألفاظهاصرفاًواشتقاقاً ، وبحثقياسهاوأوغل في البحث واتسع فيه • وكان له في كل ذلك القول المحكم والرأي النجيح •

ثم عُرف من أئمة القياس بعد أبي علي الفارسي وأبي الفتح ابن جني ، جار الله أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري صاحب الكشاف والمفصّل (٥٣٨ هـ) • وقد كان من كبار المعتزلة وبدا ذلك جلياً في اتخاذه المنطق أداة لتعليل أحكامه وسلماً لتسبيب قياسه ، سواء في كشافه أو مفصّله • وابن الشجري هبة الله أبو السعادات العلوي صاحب الأمالي (٥٤٢ هـ) وأبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن الأنباري (٥٧٧ هـ) وهو صاحب المصنفات النفيسة ، لا سيما الاغراب في جدل الاعراب ، والانصاف في مسائل الخلاف (بين البصريين والكوفيين) ، ولمع الأدلة في أصول النحو ، وأسرار العربية • وقد اقتاس في تآليفه بأصول الفقه كما اقتاس بأصول الجدل وعلم الكلام فأحكم النسب بين النحو وعلوم الفقه والكلام فيما نهج ، ثم العكبري محب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين (٦١٦ هـ) صاحب اللباب واعراب القرآن • وتفسيره • وقد ألّف (مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين) ، وقد جاءت نتف منه في كتب الخلف ككتاب الأشباه والنظائر في النحو للامام جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) •

الكوفية وأصولهم

اذا كان البصريون قد عنوا بالقياس كما قدمنا وفصّلنا ومضوا في ذلك وأوغلوا حتى تجاوزوا طبيعة اللغة وخصوصها ، فقد كان للكوفيين أصولهم وقياسهم وعللهم ، فهم لم يقتصروا على الوصف دون الاستدلال والاعتلال كما سيأتي تفصيله •

رأس الكوفيـــة :

ولكن اذا كان الحضرمي (١١٧ هـ) هو رأس البصرية فمن هو رأس الكوفية ؟ أقول اختلف في هذا فقيل ان بعض أئمة البصرة قد هجروها الى الكوفة وأقاموا بها ، وكان أشهر هؤلاء جعفر الرؤاسي محمد بن أبي سارة (١٩٠ هـ) • عاش في البصرة وأخذ أصول النحو عن الامام البصري عيسى بن عمر الثقفي ثم انتقل الى الكوفة فكان أول من وضع كتاباً في النحو من أهل الكوفة • واذا قال سيبويه في كتابه (قال الكوفي) فقد عنى الرؤاسي • **وهكذا يمكن أن يعدّ الرؤاسي رأس الكوفية ، ويكون المذهب الكوفي قد عرف بعد نحو قرن من المذهب البصري** • وقد يضم الى الرؤاسي عمه معاذ بن مسلم الهراء مبدع علم التصريف ، وشيخ الكسائي والفراء ، وقد عُمر طويلا (١٨٩ هـ) ، قال الفيروزابادي في البلغة : « أبو جعفر الرؤاسي أستاذ أهل الكوفة في العربية » •

أعـلام الكوفيـــة :

وقد أخذ عن جعفر الرؤاسي وتلمذ له الكسائي أبو الحسن علي بن حمزة (١٨٩هـ) وهو امـام الكوفية كما كان الخليـل امـام البصرية • وقد أخذ عن الرؤاسي وتلمذ له

الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد (٢٠٧ هـ)وتلمذ للكسائي بعده بل احتذاه ونهج نهجه وغدا علم الكوفية. وقد كان الكسائي والفراء قطبا الكوفية ، قد أخذا أصول النحو عن الامام البصري يونس بن حبيب ، وهكذا نهل الرؤاسي والكسائي والفراء جميعاً من معين البصرة .

نهج الكسائي حدود المذهب الكوفي في التعويل على النقل خلافاً للبصرية في اعتمادها على النظر العقلي لكنه لم يهمل القياس على كل حال . وشايع الفراء الكسائي فيما استن من أصول فاستمسك بالرواية وأبى للنحوي أن ينهج نهج المتكلمين والمناطقة المتفلسفين. وكان القرآن مادته الأولى في روايته فبدا في تفسيره ألصق ما يكون بواقع اللغة أميناً على خصوصها وطبيعتها ، وقد تجلى ذلك في كتابه الأول (معاني القرآن) اذ نهج فيه نهجاً جديداً نأى به عن الغيبيات ونكّب عن اعتماد أي تقدير أو تأويل يضيق النص عن احتماله . ولا يعني كل هذا أن الفراء لم يُعن بتعليل أو قياس ، فالذي أباه هو القياس على الشاهد الواحد ، ونكب عن الأخذ بالقراءات الشاذة مخالفاً في ذلك من تقدمه من الكوفيين ووافق في ذلك البصريين .

وجاء ثعلب أبو العباس أحمد بن يحيى(٢٠٠ ـ ٢٩١هـ) فاقبل على كتب الفرّاء يقف على أغراضها ويحصي مسائلها ويوغل في بحثها . وما لبث أن يمم نهج الفراء مردداً لأقواله محتجاً بآرائه مخلصاً لنهجه ، غير عابىء بالتعليل . وكان يقول (طلبت العربية واللغة في سنة ست عشرة ومائتين ، وابتدأت بالنظر في حدود الفراء وسني ثماني عشرة سنة وبلغت خمساً وعشرين ولم يبق شيء من كتب الفراء في هذا الوقت الا قد حفظته) . وقد تلمذ ثعلب لسلمة بن عاصم الضبي وكان هذا قد حضر مجلس الفراء وأعجب به أيما اعجاب فاغرى به ثعلباً ، وكان سلمة يقول : « لولا الفراء لما كانت اللغة لأنه حصلها وضبطها ، ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ، ويدّعيها كل من أراد ، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب» ولم يعرف عن ثعلب أنه حاول فلسفة اللغة أو منطقة النحو ، كما حاول البصريون وخصمه منهم ، وهو المبرّد . ويعزى الى ثعلب الفضل في اشاعة المذهب الكوفي والتبشير به ، كما يُعزى الى المبرّد دعوته الى البصرية وبراعته في الاغراء بها .

الآخذون بما رجح لديهم من أصول البصرية والكوفية ومسائلهما

وهناك أئمة لم ينهجوا نهج البصرية ويسلكوا طريقتها فيقتاسوا بها ، أو ينهجوا سبل الكوفية ويأتموا بهديها فيتسموا بسمتها ، وانما أدّاهم البحث والتأمل والفحص الى موافاة كل منهما في بعض الأصول والمسائل ومخالفتهما لها في أخرى ، ومن هؤلاء أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحاق الزجاجي (٣٣٧ هـ)وقد أخذ أصول النحو عن الزجاج أبي اسحاق ، والطبري أبي جعفر ، وابن كيسان أبي الحسن ، وابن الخياط أبي بكر ، وأبي موسى الحامض ، وابن السراج أبي بكر ، وابن الأنباري أبي بكر وسواهم ، ومنهم البصري ومنهم الكوفي ، ومنهم من هو بينَ بين ، فتلقى الزجاجي علم البصرة كما تلقى علم الكوفة وأعجب بالزجاج

كما أعجب بأستاذه المبرّد فكان الى البصرية أميل ، لكنه لم يتعصب لأحد المذهبين فيحاكي بغير دليل أو يتابع بغير حجة ، فقد كان يقول بما يملي عليه علمه ويشهد به يقينه فيكون منه على بيّنة • وهكذا مزج الزجاجي نحو البصريين بنحو الكوفيين واستعار مصطلحات الجانبين ، فبدا بغدادي النزعة • فجماعة البغداديين هؤلاء هم الأئمة الذين اتخذوا طريقتهم في اختيار الأجود من مسائل المذهبين على ما رأوه ، كما فعل الزجاج في كتابه (اعراب القرآن ومعانيه) ولا يزال مخطوطاً، والزجاجي في كتابه (الايضاح) • ولم يستنوا نهجاً فرداً دون نهج البصريين أو الكوفيين •

عمد الزجاجي الى التأليف فكان محكم الحدود ، وعلى ذلك كتابه (الجُمل) وقد اتسم بالبيان والوضوح فجاء قريب المنال سهل الأسلوب متسني التحصيل • وقد اشتهر الكتاب وتعددت شروحه وشاعت • وثمة كتاب (الايضاح في علل النحو) ، وقد بحث فيه القياس والعلل والخلاف بين البصريين والكوفيين ، وجعل العلة تعليمية وقياسية وجدلية نظرية ، وقصد بالتعليمية ما أريد به تعليم النحو كقولك رفع الفاعل لأنه فاعل ونصب المفعول لأنه مفعول ، وقصد بالقياسية تعليل الحكم في حمل المقيس على المقيس عليه كقولك في (ان وأخواتها) انها نصبت الفعل لمشابهتها الفعل المتعدّي ذا المفعول الواحد ، فأشبه اسمها المنصوب المفعول به لفظاً ، وأشبه خبرها المرفوع الفاعل لفظاً • أما العلة الجدلية النظرية فقد ذهب بها الى ماوراء ذلك كسؤالك لم رُفع الفاعل ونُصب المفعول ؟ وجوابك رُفع الفاعل لأن الضم ثقيل ونُصب المفعول لأن الفتح خفيف ، والمفعول كثير في كلام العرب فكان أولى بالخفة فاستحق الفتح ، والفاعل قليل فهو أجدر بالضم ، واذا كان الزجاجي قد عني ببحث العلل فقد اهتم فيها غالباً بما أفاد أصول النحو واللغة كالعلة التعليمية والقياسية ، ولم يُعن بالعلل الجدلية فيغلو فيها غلوّ الأنباري أبي البركات ، ويمزج النحو بالمنطق • واذا كان كتاب (الايضاح) هذا نموذجاً بيناً لاتصال هذين العلمين ، فقد كان اتصالا لم تختلط فيه الحدود أو تلتبس فيه السمات • وقد كان ابن كيسان (٢٩٩ هـ) بصرياً كوفياً ، وهو بالبصرية أعلق ، وكان أبو موسى الحامض (٣٠٥ هـ) كوفياً بصرياً وهو الى الكوفية أدنى ••

القياس حدوده والحاجة اليه

القياس هو حمل الفرع على الأصل لعلة جامعة بينهما باعطاء المقيس حكم المقيس عليه • وقد تشعبت آراء الأئمة عامة في الأخذ به في مسائل كثيرة • فمنهم من اشتد فنهج له حدوداً ضيقة لا يعدوها ، ومنهم من تعلق به وتخوّض فيه ، فجرى فيه بغير عنان •

واذا كان لا بد من التوجه الى القياس ما سمحت به طرائق العربية فذلك أنه المعول عليه في نماء اللغة وارتقائها والسبيل الى تسني ما تعسّر فعزّ مناله من نادّها وشاردها لتكفي اللغة ما تُستكفى وتؤدي ما تُستأدى، مسايرة لشؤون العصر ومستحدثاته • وقد عبّر عن ذلك الأستاذ محمد الخضر حسين ،رحمه الله، في كتابه (دراسات في اللغة العربية)

فقال : « والعلوم تتدفق تدفق السيل ،ومقتضيات المدنية تتجددتجددالنهار والليل . وكل من المعاني العلمية والمرافق الحيوية يحتاج الى أسماء تلتئم مع سائر الألفاظ العربية التئام الدرر النقية في أسلاكها » ،وقال : « فالقياس طريق يسهل به القيام على اللغة ، ووسيلة تمكن الانسان من النطق بآلاف من الكلم والجمل دون أن تقرع سمعه من قبل، أو يحتاج في الوثوق من صحة عربيتها الى كتب اللغة أو الدواوين الجامعة لمنثور العرب ومنظومها » .

لكن ما نعنيه بالقياس هنا هو قياس التصريف والاشتقاق ، وقياس النقل والمجاز وما يستتبع ذلك من تدرج المعاني .

أما قياس النحو الذي يراد به الاستدلال الذهني لاستنباط القواعد وتعليلها ،وهو مدار علم النحو عند الأئمة ، فلا بد من التنكب عن الغلو فيه . ذلك أن في تحكيم المقاييس العقلية في كثير من مسائل النحو مايضيّق واسعاً ويمنع سائغاً ، بل يحظر صحيحاً فصيحاً . فطرائق العربية لا تقاس بمقاييس عقلية كما تقاس مسائل المنطق وقضايا الفلسفة وعلم الكلام . وليس الوجه أن يقال: « النحو كله قياس » كما قال أبو البركات ابن الأنباري في كتابه (لمع الأدلة/٩٥) ،في الرد على من أنكر القياس ، وأضاف : « اذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلا وجب أن يكون قياساً وعقلا » . فاعتقاد ما للقياس من شأن في نشأة النحو واستنباط أحكامه ورسم حدوده وتقعيد قواعده ، لا يمنع من التنبيه على أن النحو ليس كله قياساً ،وانما هو قياس من جهة ورواية ونقل قد يستعصيان على القياس وينكبان عنه من جهة أخرى .

ولا شك أن المستحب من القياس هو الذي اعتمد لوضع القاعدة واستنباط الحكم فأفاد في تهذيب اللغة وتشذيبها ، والذي اتخذ لتعليل الظاهرة اللغوية فكان وسيلة الى وعي نظم اللغة وتعليمها فاعتمد على ما أسموه (العلة التعليمية) و (العلة القياسية).

تصنيف العلل :

فالعلة التعليمية ، كما أسلفنا قبل ، أن تقول هذا مرفوع لأنه فاعل ، وذاك منصوب لأنه مفعول به . والعلة القياسية هي التي تقوم على اشتراك المقيس والمقيس عليه فيما تصوروا أنه علة موجبة للحكم فيهما .وقد تشعبت الآراء في تحديد العلة القياسية باختلاف وجهات النظر والاعتبار . فقد تتجاذب الحكم الواحد علتان أو أكثر فيبنى على قياسين أو أكثر كما يتأتى حكمان متضادان في المسألة الواحدة فتقتضيهما علتان مختلفتان فيبنى كل منهما على قياس .فمثال الأول (المبتدأ) فقد يعتل لرفعه بالابتداء ، أو يعتل له بالخبر أو بما يعود عليه من ذكره . ومثال الثاني (ما) التميمية والحجازية ، فقد اعتلوا لـ (ما) التميمية العاطلة بشبهها بـ (هل) في عدم اختصاصها بالدخول على الاسم أو الفعل ، وافادة كل منهما معنى في الكلام هو النفي في (ما) والاستفهام في (هل) ، فجرت (ما) في الاهمال مجرى (هل) . واعتلّوا لـ (ما)

الحجازية العاملة بشبهها بليس في نفي الحال والدخول على الجملة الاسمية فعملت عملها. وهكذا اعتل للاعمال والاهمال في مسألة واحدة ، فكان كل منهما على قياس . ومن ثم ذهب كثير من المجددين في النحو الى انعام النظر في هذه العلل والعمل على الاهتداء الى الأشمل منها في الحكم ، والأظهر في التعليل والألصق بالعربية .

والقياس الذي استند فيه الى احدى العلتين التعليمية والقياسية انما يجانس طبيعة اللغة وخصوصها ، دون القياس الذي اعتمد فيه على ما أسموه (العلة الجدلية النظرية) فنحا نحو الفلسفة واتسم بسمتها وغدا صناعة بل رياضة عقلية ونشاطاً ذهنياً فجعل التعليل أصلا وغاية ، لا وسيلة وحاجة، وبين القياسين من التفاوت والتباين ، ما لا خفاء به ولا لبس .

فاذا قلت (انّ) تشبه الفعل لفظاً لأنها ثلاثية ، ومعنى لأنها تفيد التأكيد ، فاذا خففت ذهب شبه اللفظ فقل عملها ، فقولك هذا تعليل جدلي نظري، ليس وراءه محصول.

العنايــة بالمعنــى :

ولا شك أن المعوّل عليه من التعليل ماقرن فيه صحة الحكم النحوي بسلامة المعنى ، وتحقيق المراد منه ، دون التعلـق بما تقتاداليه براعة الصناعة ويؤدي اليه الافتنان بها، مــن الاغراب في الجـدل والتأويـــل . فلا جرم أن النحو يتجاوز البحث في أواخر الكلم وعلامات الاعراب .

ذلك أن فضيلة الكلام في الأصل انما ترجع الى معناه قبل ألفاظه . قال ابن جني في الخصائص : (فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسّنوها وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترين ّ أن العنايــة اذ ذاك انما هي بالألفاظ بل هــي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه وتشريف، ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته) واذا عدنا الى الامــام عبدالقاهر الجرجاني(٤٧١ هـ) في كتابه (دلائل الاعجاز) ألفيناه أنه يؤمن بأن نظم الحروف من الكلمة لايتم بمراعاة معنى في النفس وانما يجري بمجرد تواليها في النطق وضم بعضها الى بعض ، أما نظم الكلام في التعبير فانه لا يتم بتواليه كيفما اتفق ، وانما يتم ، باقتفاء آثــار المعانــي فيترتب علــى حسب ترتيبهــا في النفس . فالأصل اذاً أن تعمل الفكر فتتوخى الترتيب في المعاني ، فاذا كان لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها . ومتى فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتــج الى أن تستأنف الفكر في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك فتتساوق بحكم أنها خدم للمعاني وتبــع لها . وقد أكد الجرجاني هذا المعنى فقال : « فلا نرى كلاماً قد وصف بصحة نظــام أو فساده ، أو وصف بمزية أو فضل فيه ، الاوأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية ، وذلك الفضل الى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه » . ومن ثم كان خطأ كثير من الأئمة في الغلو بالعناية اللفظيـــة وقصر اهتمامهم على ضبط أواخر الكلم .

ولا ريب أن صواب الرأي أن يُنهج في النحو نهج الجرجاني ، وأن ينأى به الى ذلك عن أي تعقيد ينبو عن روح اللغة ، وأي تعليل يباعد بينه وبين غرضه ٠

البصرية والكوفية والقياس

قلنا ان البصريين قد عُنوا بالقياس ومضوا فيه وأوغلوا حتى تجاوز متأخروهم طبيعة اللغة وخصوصها ، وان للكوفيين أصولهم وعللهم وقياسهم ، وانهم لم يقتصروا على الوصف دون الاستدلال والاعتلال ، فقد أخذ الكسائي بالقياس فقال :

انما النحو قياس يُتبع وبه في كل أمر يُنتفع

وأشيد بمنزلة الفراء في التعليل والقياس ، وقد خالف الكسائي في كثير مما ذهب اليه ووافق البصرية في انكار القياس على الشاهد الواحد وانكار القراءات الشاذة ٠ وكان يحتج بقراءة الكسائي وحمزة وابن مسعود ، ولا يصد عن قراءة الأمصار الأخرى كقراءة أهل البصرة والمدينة ومكة والشام ٠

نهج الكوفية :

وهكذا اعتمد الكوفيون على السماع والقياس، كما فعل البصريون ٠ وكان أوائلهم أعنى بالسماع منهم بالقياس وأشد حرصاً على الوصف منهم على التعليل ، كما كان أوائل البصريين أنفسهم٠ واذا كان الكوفيون لم يدركوا شأو البصريين في الأخذ بالقياس ، وكانوا أدنى الى القصد منهم الى الايغال في هذا المضمار فليس صحيحاً أنهم عولوا على كل مسموع كما يُفهم مما جاء في (الانصاف في شرح مسائل الخلاف) وصاحبه أبو البركات وهو من أئمة البصرية ٠ ولو صح أن الكوفيين يعملون بكل شاذ ويقيسون عليه ، لما استقام لهم أصل أو حكم أو قياس ٠ ولست أشايع أو أجاري الأستاذ أحمد أمين ، رحمه الله ، فيما جاء به في كتابه ضحى الاسلام (٢/٢٥٩) حين قال : « أما الكوفيون فلم يروا هذا المسلك ورأوا أن يحترموا كل ما جاء عن العرب ويجيزوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ، ولو كان الاستعمال لا ينطبق على القواعد العامة ٠ بل يجعلون الشذوذ أساساً لوضع قاعدة عامة » ٠ أقول اني لأستكثر هذا القول ولو شد منه ما قال بعض الأئمة في الكسائي خاصة في هذا الصدد ٠ قال ابن درستويه(٣٤٧هـ) في (بغية الوعاة ٢٠٠/١٦٤) : « كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز الا في الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه فأفسد بذلك النحو » ٠ وقصارى ما في الأمر أن الكوفيين اذا اعتمدوا مسموعاً وقاسوا عليه فقد اعتدّوه لغة يحسن الأخذ بها لأنها لغة قوم من العرب لا يرقى الشك الى فصاحتها ولو قلّت ، لكنهم لا يعوّلون على كل مسموع فقد تخيّر الكسائي والفراء من فصيح الشعر شواهد ليست أدنى منزلة من شواهد سيبويه ، ولها من طابع الفصاحة وميسم البداوة ما لا خفاء به ، وقد شاعت فيما ألّفه المتأخرون من النحاة ٠

قال الدكتور مهدي المخزومي في كلامه على الكوفيين : «اذا سمعوا لفظاً في شعر أو نادر كلام جعلوه أصلا وبوّبوا عليه كأنهم يشعرون بأن ما يقوله الأعرابي أو الاعرابية انما يمثل بيئة لغوية لا يصح اغفالها ،حرصاً منهم على أن تكون الأصول خاضعة في شكلها النهائي للأمثلة المستعملة المسموعة ، بامعانهم في التتبع اللغوي، واستبعادهم أساليب المنطق ومجافاتهم التأويلات التي يخالفها الظاهر »(ص/٤٥٠ ـ ٤٥١) . وقوله مستقيم ، لكن الكوفيين اذا اعتمدوا مسموعاً فقد وثقوا بفصاحته ، فهم أعنى بالاستعمال منهم بالقياس .

والكوفية قد تجيز استعمالا يند عن قواعد البصرية ويشرد عليها ، ولكنها لا تقر استعمالا يخرج عن قواعدها هي . وقد يكون في ضوابط البصرية ما يمنع مسموعاً ، وفي ضوابط الكوفية ما لا يعافه أو يضيق عنه . ومثال هذا أن البصريين قد منعوا العطف على الضمير المجرور الا أن يعاد الجار ، لأن اتصال الجار بالضمير أشد من اتصال الفعل بالفاعل، فيقال مررت بك وبزيد ولا يقال مررت بك وزيد . وخالفهم في ذلك الكوفيون فأجازوا العطف ها هنا ، أعيد الجارّ أو لم يعد ، وأوردوا على ذلك النصوص القاطعة . ومنها قوله تعالى « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ـ النساء/١ » بعطف (الأرحام) على الضمير المجرور في (به) ، كما جاء في بعض القراءات السبع ، وقد جاء في الأصل بالنصب معطوفاً على اسم الله . وردّ البصريون حجة الكوفيين في جر الأرحام عطفاً على الضمير وقالوا انما جُر بواو القسم لا بواو العطف، أو جُرّ بباء القسم مقدّرة ، وحجة البصريين في الوجهين متكلفة ضعيفة ، وقد ورد النهي عن الحلف بالأرحام . وقد جاء العطف على الضمير المجرور كثيراً في الشعر ، قال الشاعر:

اليومَ قرّبت تهجونا وتشتمنا فاذهب وما بك والأيام من عجب

وجاء في التنزيل (وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام واخراجُ أهله منه أكبر عند الله ـ البقرة / ٢١٧) بجر المسجد،فقيل انه جُرّ لأنه معطوف على الضمير المجرور ، وردّه البصريون ، وقدروا الآية:(وكفرٌ به وصدٌّ عن المسجد الحرام)وعلقوا المجرور بعامل محذوف دلّ عليه الصدّ .

الموازنة بين المذهبين :

فمذهب الكوفية أكثر تشعباً وأوسع رواية ، ومذهب البصرية أوسع قياساً وأضيق رواية على أن اتساع القياس البصري المبني على العلل العقلية قد يمنع السائغ ويضيق عن المسموع ، كما رأينا . وهذا ما دعا المتأخرين من النحاة ألاّ يجروا على منهاجهم أو يأخذوا أخذهم . فقد حكي عن أبي عمرو بن العلاء أنه ردّ بعض القراءات القرآنية لخروجها عن قراءة الجمهور ، وكذلك فعل المازني أبو عثمان والمبرّد أبو العباس والزجاج أبو اسحاق . وقد نزع المتأخرون الى مخالفتهم فارتضوا القراءات جميعاً واقتاسوا بها ، واتخذوا منها موضعاً لاستقرائهم واستنباط أصولهم ، شاعت لغتها أم لم

تشع ولا ريب أن في صحة القياس على ماترد به الآيات الكريمة ثراء لأساليب القول في اللغة فوق ثرائها ، واغناء لمذاهب الكلامفوقاتساعها وتشعبها واستيعابها · وأي القرآن، بأي قراءة قرئت محصنة من نظر الناقدوالمعترض ، مرتفعة عن مقام المتعقب والمستدرك · أما اعتذارهم بأن العرب لمتقصد الى القياس على الشاذ منها بحسب مذهبهم النحوي ، فليس بشيء ·

وما دامت القراءات كلها على اختلافهاكلام الله فمن قرأ حرفاً من هذه الحروف فقد أصاب شاكلة الصواب أياً كان ذلك الحرف،ولا يجوز منع أحد من القراءة بأي حرف ، ذلك أن الوجوه التي أنزل الله بهـا القرآنتنتظم كل وجـه قرأ بـه النبي ﷺ وأقرأه أصحابه ·

قال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط (٣٦٣/٢) : « والقراءات لا تجيء على ما علمه البصريون ونقلوه » وقال (٤/ ٢٧١) : « هؤلاء النحاة يسيئون الظن بالقراءة ولا يجوز لهم ذلك » وقال(٢٧١/٤): « ولسنا متعبدين بأقوالنحاة البصرة وانما نتبع الدليل » :

وقال أبو عمرو الداني في جامع البيان: « وأئمة القراء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن علـى الأفشى في اللغـة والأقيس فيالعربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصحفي النقل · والرواية اذا ثبتت لا يردها قياسعربية ولا فشو لغة » ·

وقال الشيخ عبد العظيم الزرقاني في كتابـه (مناهـل العرفان/٤١٥) : « فاذا ثبتت قرآنية القرآن بالرواية المقبولة ،كانالقرآن هو الحكم على علماء النحو وماقعّدوا من قواعد ، ووجب أن يرجعوا هم بقواعدهماليه ، لا أن نرجع نحن بالقرآن الى قواعدهم المخالفة نحكّمها فيه ، والا كان ذلك عكساً للآية ، واهمالا للأصل في وجوب الرعاية »·

وهكذا تحلل ابن مالك وابن هشام فيمااجتهدا فيه ، من حدود البصرية في كثير من الأحيان، ولو تهيأ للنحو من الأئمة من استنوابهذه السنة ونهجوا هذا السبيل فتمنعوا على المتابعة والمشابهة ، وفازوا من التعبدبمذهبمخصوص ، ونجوا مما لا تحتمله طبيعةاللغة أو يأباه خصوصها من الجدل ، وعنوا بنحوالكوفية كلما أوغلت البصرية في التعليل فتنكبت الجادة ، وعولوا على القرآن وآثروا ما جاء فيه على كل مرويّ ، أقول لو تهيأ للنحو أمثال هؤلاء لكان خطة سديدة سوية في التجديد والاحياء ·

القياس والسماع

القاعدة عند النحاة أنه اذا ورد السماعبطل القياس · قال ابن جني في الخصائص (١٠٣/١ ــ ط/١٩١٣ م) : « واعلم أنالشيء اذا اطرد فيالاستعمال وشذعنالقياس، فلا بد من اتباع السماع الوارد به فيهنفسه»وقال (١٣١/١) : « واعلم انك اذا أدّاك القياس الى شيء ، ثم سمعت العرب قدنطقتفيه بشيء آخر على قياس غيره ، فدعماكنت عليـه ، الى ما هم عليـه ·· » · فما مردالتعويل على السماع في الأصل ؟ أقول لاشك

أن مرد التعويل على السماع في الأصل هو الحرص على ضبط اللغة وضمان سلامتها، مذ كان يعمل الأئمة على حصرها وتدوينها. ولكن مهما اشتد الداعي الى العناية بالسماع وتعلقه والكلف به والتمكن منه، فينبغي ألا يكون الحرص عليه حائلا دون ما يمكن أن يلتمس فيه علّة جامعة فيبنى عليه قياس، في كل ما تدعو اليه حاجة التعبير والاصطلاح فتأذن به طرائق النقل والمجاز وسبل التصريف والاشتقاق. وهذا ما أخذ به مجمع اللغة العربية القاهري واذا كان ابن فارس لم يجز قياساً لم يقسه الأوائل ولا قولا لم يقله العرب، رعاية للأصل وتعلقاً به وحياطة له، فقد يتفق أن يقتاد الاستقراء الى قياس لم ينبه عليه الأئمة، أو يتفق أن تتجاوز ملكة الأدباء المتمكنين هذا الحد بعفو الخاطر اذا ألجأت الى ذلك حاجة في الاستعمال، أو دفعت اليه قوة الأداء فتصطفي اللفظ الذي يقع موقعه المرتجى ويصير الى مستقره المطمئن. والقريحة المطبوعة انما تتدفق بمثله قصد احكام الأداء، ولو خالف الأصل المعروف. فانظر الى ما قال أبو محمد عبدالله بن سنان الخفاجي المتوفى (٤٦٦ هـ)، في كتابه (سر الفصاحة/٦٢): «وقد يكون التأليف المختار في اللفظة على جهة الاشتقاق، فيحسن أيضاً كل ذلك». وأوضح مذهبه فقال: «ومثال لذلك مما يختار قول أبي القاسم الحسين بن علي المغربي في بعض رسائله: ورعوا هشيماً تأنفت روضه، فان تأنفت، كلمة لا خفاء بحسنها لوقوعها الموقع الذي ذكرته». وليس في اللغة: تأنفت، ولعل المغربي قد تصور تنزه فاتى بتأنّف، طبعاً وسلاسة. قال ابن القوطية في كتابه (الأفعال): «وأنفت من الشيء أنفاً وأنفة: غضبت، وأيضاً تنزهت عنه».

وأورد الخفاجي مثالا آخر فقال: «وكذلك قول أبي الطيب المتنبي:

اذا سارت الأحداج فوق نباته ... تفاوح مسك الغانيات ورنده

فان تفاوح كلمة في نهاية الحسن. وقد قيل ان أبا الطيب أول من نطق بها على هذا المثال، وأن وزير كافور الأخشيدي سمع شاعراً نظمها بعد أبي الطيب، فقال: أخذتموها».

وهكذا حُكي عن المغربي قوله (تأنف) وعن المتنبي قوله (تفاوح)، ولم يسمعا أو يكونا على قياس معروف لكنهما وقعا موقعهما المختار في الأداء، ولم يخرجا في الاشتقاق عما ألف عن العرب قوله في أفعال أخرى. أفليس يتأتى أن يدخل هذان اللفظان في قياس لو ابتغينا لصيغتيهما مثل هذا القياس، ببحث وتلطف واستقراء. فالسماعي قد يصير قياساً اذا استخرجت له بالاستقراء قاعدة يعرف بها. والا كان السماع قيداً يحجر اللغة عن التوالد والانبساط ويقصر خطاها عن الاستجابة والمؤاتاة. ولا خفاء بأن سبل التصريف وضوابط الاشتقاق لا يشوبها من سرف التعليل في ذكر الأسباب ومسبباتها ما يشوب القياس في قواعد النحو. ومن ثم لم يفض التعويل عليها الى شيء مما آل اليه الانحراف في قياس النحو وتعليله، من التنأي باللغة عن خصوصها وتحيف طبيعتها والانزواء بها عن سبيل المعاني الى الافتنان بصناعة الاعراب، حتى انقبض الاعراب عن أن يكون دليل المعاني وسبيل الابانة والافصاح.

ولكن ما الحكم عند النحاة اذا اجتمع في اللفظة أو المسألة سماع وقياس ؟

ما الحكم اذا سمع في اللفظة أو المسألة استعمال على غير قياس فهل يمتنع الأخذ فيه بالقياس الى جانب السماع ؟ ·

أقول لايكاد الأئمة يجمعون في ذلك على رأي ، وقد تباينت مذاهبهم فكان لكل جماعة منهم وجهة في كل مسألة · مثال ذلك ما اتخذه الأئمة من أقيسة لمصادر الثلاثي ، بناء على الأكثر والأغلب ·

قال الاشموني في شرحه على الألفية (١٢٢/٣) : « فَعْل بفتح الفاء واسكان العين هو قياس مصدر المتعدي من ذي ثلاثة سواء كان مفتوح العين كرد ردّاً وأكل أكلاً وضرب ضرباً ، أو مكسورها كفهم فهماً وأمن أمناً وشرب شرباً ولقم لقماً » وأردف : « والمراد بالقياس هنا أنه اذا ورد شيء ولم يعلم كيف تكلموا بمصدره فانك تقيسه على هذا ، لا أنك تقيس مع وجود السماع ، قال ذلك سيبويه والأخفش » وعقّب على ذلك الامام الصبان فقال : « ومذهب الفراء الى أنه يجوز القياس عليه ، وان سُمع غيره »·

وحكى السيوطي في الهمع فقال : « لاتدرك مصادر الأفعال الثلاثية الا بالسماع ، فلا يقاس على فعل ولو عدم السماع » ·

وهكذا تشعبت آراء الأئمة في مصدر الثلاثي الى مذاهب ثلاثة مذهب يمنع القياس ولو لم يكن سماع ، وآخر يأخذ بالقياس ولو كان سماع ، وعليه الامام الزمخشري ، وثالث لا يأخذ بالقياس حتى يمتنع السماع · وقد اجازوا للشاعر غالباً أن يقيس ، ولكن في ضرورة ·

ومثال آخر هو جمع التكسير فاذا سمع لمفرد جمع على غير قياس امتنع النطق بقياسه ، الا أن يأتي به شاعر في ضرورة ، هذا هو الأكثر ·· قال ابن جني (١٣٢/١) : « وأعددت ما كان قياسك أدّاك اليه لشاعر مولد أو لساجع أو لضرورة لأنه على قياس كلامهم ، بذلك وصّى أبو الحسن » ·

وقد سُمع عن العرب (استصوب واستحوذ) والقياس أن يأتيا بالاعلال على (استصاب واستحاذ) فهل أخذ الأئمة بهذا القياس الى جانب السماع · أقول ذهب جماعة الى صحة (استحاذ واستصاب) لأن العرب لم تأت باستفعل بغير اعلال من فعل ثلاثي الا نطقت به معتلاً ، أو لأن الأكثر كذلك ، ومن هؤلاء سيبويه ، وهكذا فعلوا في مسائل كثيرة ، لكن ذلك لم يطرد عنهم ·

وقد جاء في اللسان (مادة بدا) : (اذا أمكن في الشيء المنسوب أن يكون قياساً وشاذاً ، كان حمله على القياس أولى ، لأن القياس أشيع وأوسع) · وجاء عن بعض العلماء قولهم : اذا عارض في النسب القياس السماع ، جاز القياس والسماع ، فلك على هذا أن تقول ثقفي وثقيفي ·

القياس والظاهريـــة

الظاهرية مذهب فقهي دعا اليه في القرن الثالث الهجري أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني (٢٠٢ ــ ٢٧٠ هـ) ٠وهو امام أهل الظاهر في المشرق ٠ وقد جاء مذهبه ردّاً على أصحاب القياس الذينجعلوا(القياس) رابع الأصول المعروفة في الفقه، وهي الكتاب والسنة والاجماع ٠

أنكر داود القياس جملة ، وجعل أصول الأحكام الكتاب والسنة والاجماع وحدها دون القياس والاجتهاد فخالف بذلك ما مضى عليه عمل الصحابة ٠ وقد اشتد في الأخذ بحرفية النصوص ومنع التقليد وجعل لكل فاهم للعربيـة أن يتكلم في الدين بظاهـر القرآن والسنة ٠ وقد شاع مذهبه هذا في الأندلس، وتولى الدعوة اليه والاحتجاج له والمنافحة عنه في القرن الخامس الهجري الامام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسـي (٣٨٤ ــ ٤٥٦ هـ) ، وقـد تلقى أصـول الفقـه الظاهري على أستاذه أبي الخيـار مسعود بن سليمان بن مفلت (٤٢٦هـ)فرأى الاعتماد على الكتاب والسنة والاجماع وخالف مدرسـة الرأي في رفضـه القياس وانكـاره التقليـد ، معتقداً أن القرآن انما يجب أن يُحمل على ظاهره ، ولا يحال عــن ظاهره البتة ، اللهم الا أن يأتي نص" أو اجماع" أو ضرورة حس على أن شيئاً منـه ليس علـى ظاهره ، وأنه نقل من ظاهره الى معنى آخر٠ فالانقياد حينئذ واجب لما يوحيه ذلك النص والاجماع والضرورة ٠ وقد جاء تفصيل ذلك في كتب ابن حزم الأندلسي لا سيما كتـاب(ابطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل) وكتاب (مسائل أصول الفقـه)وكتاب (كشف الالتباس ما بين الظاهريـة وأصحاب القياس) ٠

القياس وابن مضاء

عاش ابن مضاء أحمد بن عبد الرحمن في القرن السادس الهجري (٥١٢ ــ ٥٩٢هـ) فبدا أنه اتخذ مذهبه في أصول النحو علـى مثال مذهبه الظاهري في أصول الفقه ،فانكر القياس كما أنكرتـه الظاهرية وعوّل علـى النص كما عوّلت ، ذلك في كتابـه الشهيـر (الرد على النحاة) ٠ وليس هذا بدعاً اذا عرفنا أن ابن مضاء كان قاضي القضـاة في دولة الموحدين ، وقـد كان هؤلاء أصحـاب رسالة تدعـو الى العودة الى أصول الدين في الكتاب والسنـة ، قبـل أن يكونوا أصحاب سياسة ، وكان مؤسس دولتهم أبا عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدي ٠ وأن يعقوب بن يوسف خليفة الموحدين يومئذ ، وهو علم مــن أعلام الفقـه ، قد أمر بحرق كتب المذاهب الأربعة وحمَل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، كما أمر سلطان المرابطين علي بن تاشفين يوماً باحراق كتاب الامام الغـزالي (احياء علوم الدين) ٠ قال الدكتور شوقي ضيف في كتابه (المدخل الى الرد على النحاة): (ان العصر الذي ألف فيه كتاب الرد علـى النحاة كان عصر ثورة على المشرق وأوضاعه، في الفقه وفروعه٠ وقد كانت دولة الموحدين،منذ أول الأمر ، تدعو الى هذه الثورة ، حتى

اذا كان يعقوب رأيناه يأمر بحرق كتب المذاهب الأربعة ، يريد أن يرد فقه المشرق على المشرق . وقد تبعه ابن مضاء القرطبي قاضي القضاة في دولته فألف كتاب ـ الرد على النحاة ـ يريد أن يرد به نحو المشرق . أو بعبارة أدق يريد أن يرد بعض أصول النحو، وأن يخلصه من كثرة الفروع فيه وكثرة التأويل ، مستناً في ذلك بسنة أميره يعقوب ، اذ كان يُعجب مثله ، على ما يظهر ، بمذهب الظاهرية ، فذهب يحاول تطبيقه على النحو).

ولا بد لنا حين نذكر يعقوب بن يوسف هنا ، الذي لقب بالمنصور ، من أن ننعى عليه أمراً أتى فيه سوأة ليست بأيسر السوآت، وأن نحمد له أمراً جليلا ركب مراقيه واضطلع بأعبائه فكان فيه بعيد الهمة نافذ العزم . أما أمره المنعي عليه فهو موقفه من السلطان الأيوبي صلاح الدين يوم بعث اليه هنا ، وقد فاز ببيت المقدس ودانت له مصر وبلاد الشام جميعاً وشمالي العراق (ت ٥٨٩ هـ)، بعث اليه ينشد محالفته لمحاربة ملوك أوربة. فأكرم يعقوب وفادة الرسول لكنه لم يجبه الى ما سأل أو ينزل على مقترحه فيلبي مبتغاه، قالوا كان ذلك لانكار يعقوب أن يلقبه صلاح الدين في خطابه بسلطان الموحدين ولا يدعوه بأمير المؤمنين (رواية ابن خلكان ـ ٢/٤٣٢).

وأما أمره المحمود له فهو نصره المبين بعد ذلك في موقعة الأرك (٥٩١ هـ) في الأندلس، فقد كان ذلك نصراً للعرب ضعضعوا به أركان أعدائهم وزلزلوا أقدامهم وكادوا فيه يقضون على مملكة قشتالة .

ولكن هل أنكر ابن مضاء العلة والقياس جملة ؟

أقول ليس ثمة امام قد عاف العلة والقياس جملة ، بصرياً كان أم كوفياً ، وانما اختلف نصيب كل امام من الاقتياس بهما وفوراً أو نزوراً ، اذ يتسنى من ذلك في أصول النحو ما لا يتسنى في أصول الفقه . ذلك أن في علل النحو من فسحة النظر ما لا تتسع له علل الفقه أحياناً كثيرة ، كأن يكون البحث في علة مناسك الحج وترتيبها ، وفرائض الصلاة وعدد ركعاتها فنجد مردوجوبها الى ثبوت الأمر بها بحكم الشريعة ، أي بالنص ، ولا نظير الذلك في النحو . قال ابن جني في الخصائص (/٥٢ ـ ط/١٩١٣م) : « فأول ذلك أنا لسنا ندّعي أن علل العربية في سمت العلل الكلامية البتة . بل ندّعي أنها أقرب اليها من العلل الفقهية » وهو يفرّق بين الاجماع في اللغة والاجماع في الفقه ، فيرى الاجماع في اللغة غير ملزم للمعارض، على حين يلزمه الاجماع في الفقه البتة . لكن على الامام في اللغة اذا شاء مخالفة الجماعة والخروج عما اتفقت عليه كلمة اللغويين واتحدت أن (يناهض هؤلاء اتقاناً ويثابتهم عرفاناً ولا يخلد الى سانح خاطره ولا الى نزوة من نزوات تفكره ، فاذا فعل ذلك سُدد رأيه وشُيع خاطره ـ الخصائص : ١/١٩٧) .

ثار ابن مضاء على النحاة وعاف مذهبهم في (العامل) لغلوهم في التعليل واستبعد الجدل النظري والحجاج الفلسفي وكل ما ينأى باللغة عن طبيعتها وينحرف عن خصوصها، وليس هو أول من انتهج هذا النهج وذهب **هذا المذهب** . ذلك أنه قد عوّل على النص وأغفل القياس من هذه الجهة ، لكنه قد أخذ ولا شك بنمط من القياس . فهو قد أقر

(العلّة) وأبى (علّة العلّة) أو العلل الثواني والثوالث ، كما أنكرها ابن جني وعافها الزجاجي نفسه . واقرار (العلة) يدعو الى البحث عن العلة الجامعة والتماس القياس الذي لا بد منه ، والا فكيف يمكن أن تنهض لغة لا يعمل قياس في رسم ضوابطها وشرح حدودها ، ويمهد لها سبيل التوليد والنماء ومذاهب الاتساع والارتقاء .

ذهب الدكتور طه حسين ، رحمه الله ، الى أن ابن مضاء (لم يفكر بالاصلاح بمقدار ما فكر في هدم النحو) كما جاء في مجلة المجمع القاهري (ج/٤) ، وخالفه الدكتور مازن المبارك في كتابه (النحو العربي) فقال : « أما رأي الدكتور طه حسين فهو مجحف في حق ابن مضاء ، وبعيد عن جادة العدل . ثم هو قبل ذلك كله حكم غريب . أو لم يناد ابن مضاء بما ينادي به - احياء النحو - اليوم من الغاء نظرية العامل واعتبار حركات الاعراب دلائل على المعاني ، فكيف يكون هدّاماً أكثر منه مصلحاً في رأي من يرى في محاولة الأستاذ ابراهيم مصطفى احياء للنحو يصر على أن تحمل هذا الاسم ؟ » .

أقول عاب ابن مضاء ما كان للنحاة من أصول ، ولم يقم أصولا جديدة تحل محلها وتغني مُغناها .. والذي فعله أنه نهج السبيل لاتخاذ هذه الأصول ووجه الفكر لبلوغ القصد وتحقيق الغاية ، بل شرع في اعتماد هذه الأصول فقال (١٠٧) : « فان قيل أنت قد أبطلت أن يكون في الكلام عامل ومعمول، فأرنا كيف يتأتى ذلك مع الوصول الى غاية النحو ؟ قلت أورد هذا في أبواب تدل على ماسواها .. وقد شرعت في كتاب يشتمل على أبواب النحو كلها فان قضى الله باكماله .. والا فيستدل بهذه الأبواب على غيرها » . ولكن أين كتابه الذي حاول به اعتماد هذه الأصول كما يقول الدكتور محمد خير الحلواني في كتابه (أصول النحو العربي)؟

النحو عند المتأخرين

تألق النحو أول ما تألق في البصرة قبل أكثر من اثني عشر قرناً ثم تبعتها الكوفة بعد أن تلمذت لها فكان لها سماتها ورواسمها. وقد مدتا بغداد بمعينها فبزخ في النحو نجم بغداد وهبت رياحها . ثم حذت مصر هذا الحذو فتلمذت للعراق وبعثت بوافديها اليها منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ، ومن هؤلاء آل المصادري وأولهم الوليد بن محمد التميمي المصادري الذي لقي الخليل في البصرة وأخذ عنه ، وابنه أبو الحسن محمد بن الوليد الذي انتسخ كتاب سيبويه في بغداد ، وقابل ما انتسخ بما احتفظ به المبرد من الكتاب ،وعاد بالنسخة الى مصر ليقرئها طلابه .

ووفد أبو العباس المصادري ابن أبي الحسن الى بغداد ليلتقي بها أبا اسحاق الزجاج في أواخر القرن الثالث الهجري وأخذ عنه ،وخلفه أخوه أبو القاسم في اقراء كتاب سيبويه وكان دون أخيه في العلم .

وتبع هؤلاء أبو علي الدنيوري (ت ٢٨٩) وقد أقام بمصر زمناً ثم قصد البصرة فلقي بها المازني وأخذ عنه كتاب سيبويه ،ثم قصد بغداد وتلمذ لثعلب فأخذ عنه نحو

الكوفية ثم مال الى المبرد فسحر ببيانه ،وعادبعد هـذه الرحلة الى مصر ليذيع فيها نحو البصريين ويشيعه ٠٠

ابن هشام :

وقد استمر المصريـون يتلمذون لشيوخهم في العراق ويشرحون كتبهم حتى ظهر فيهم ابن هشام أبو محمد عبدالله جمال‌الدين‌بن يوسف ، وكان مصري المولد والنشأة (٧٠٨ ـ ٧٦١ هـ) وقد قرع صيته الأسماع‌وفشا ذكره على الألسنة حتى قيل انـه كان أنحى علماء عصره ٠ عرف ابن هشام بكتابه‌الشهير (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) وهو كتاب جليل جامع غزيره المادة ، انتحى‌المؤلف في تاليفه نهجاً جديداً، قال ابن‌خلدون في مقدمته « وصل الينا بالمغرب لهذه‌العصوردیوان منسوب الى جمال الدين بن هشام من علمائها ، استوفى فيه أحكام الاعراب مجملة‌ومفصلة ، وتكلم علـى الحروف والمفـردات والجمل ، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها ، وسمّاه بالمغني في الاعراب. وأشار الى نكت اعراب القرآن كلها وضبطها‌بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها ، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في‌هذه الصناعة ووفور بضاعته منها » ٠ أقول اذا قيس نهج ابن هشام في ترتيب الكلام على‌الأدوات الى ما عرف في عصره من ذلك عُدّ ذلك نهجاً فريداً ٠ لكنه لو قرن منها ماتشابه‌في الدلالة والعمـل بدل أن يضم مـا تدانى أوائله منها في اللفظ لكان ذلك أولى‌بعصرنا.

كان ابن هشام عالماً في النحو واللغة والأدب ، كما كان عالماً في الفقـه ، ولم يعرف أنه مال في النحو الى مذهب خاص ، فقدأخذبالقياس والعلة النحوية وكان يختـار في كل مسالة ما رجح لديه فيها ٠ ولم يخضع النحولأصول الفقه كما اعتـاد بعض النحويين في عصره ٠ ولم يلزم الاجماع النحوي كما فعل‌الفقهاء في أصولهم ، وتمسك بـه المتأخرون من النحاة كالسيوطي وأبي البقاء العكبري٠وله جملة من الكتب منها الاعراب عن قواعد الاعراب وشذور الذهب وشرحه وقطر الندى‌وشرحه ٠٠٠

السيوطـي :

واشتهر من متأخري المصريين الامام جلال الدين السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١) ٠ ولد بأسيـوط وتولى التدريس والفتيـا وتفرغ‌للتاليف فأغنى المكتبة العربية وبلغت مؤلفاته المئات‌في علوم القرآن والحديث والفقه والعربية ٠ ومن كتبه في العربية (الاقتراح‌في‌أصول النحو) وقد جمع فيه ما تفرق في مصادر كثيرة ورتبـه في الأبواب والفصـول والتراجم ترتيب أصول الفقه ، كما قال ونهج في‌تاليفه‌نهج الفقيه فوقف عند الاجماع ، ولم يفته، على كل حال أن يخص العلل النحوية ببحث‌مشبع وشـرح مسهب ٠ ثم كتاب (الأشباه والنظائر) وهو كتاب غزير المادة جزيل‌المباحث ، وقد قال في خطبته « قصدت أن أسلك بالعربية سبيل الفقه فيما صنفـه المتأخرون‌فيـه وألّفوه من كتب الأشباه والنظائر » ٠ اوقد اهتم فيه ببسط الآراء النظرية والعلل‌الجدلية ٠ ثم كتاب (همع الهوامع في جمع

الجوامع) وقد عُني فيه بالشواهد وأكثر من النقول وأجمل فيه ما تناثر في أمهات الكتب النحوية · **وأظهر ما في كتب الامام السيوطي** على ضخامتها الجمع والترتيب والتبويب مع استيعاب للاصول واحاطة بالفروع واستقصاء للمسائل ، وقد دل بذلك على سعة اطلاعه ودقة احصائه مع أمانة في النقل ورد للرأي الى صاحبه ·

نحـاة الأندلس

كان نحاة الأندلس يقتفون في الغالب أثر نحاة المشرق ويأتمون بهديهم ويتعلقون بهم تعلق الفرع بالأصل ويتطلعون اليهم تطلع التلميذ الى أستاذه · وكثيراً ما كان يرتحل علماء الأندلس الى المشرق لينهلوا من موارده ويعودوا الى موطنهم ليقرئوا ما قرؤوه · ومن هؤلاء عبدالملك بن حبيب ومنذر بن سعيد البلوطي وابن الفرضي وأبو الوليد الباجي. وقد كان يحدث العكس فقد دأب حكام الأندلس على استقدام كبار علماء المشرق في اللغة والأدب. **ومن أظهر من وفد الى الأندلس من هؤلاء أبو علي القالي صاحب كتاب الأمالي (٢٨٨ – ٣٥٦ هـ) · فقد ولد بارمينية ونشأ فيها وقصد بغداد ينهل فيها اللغة والأدب ثم يمم شطر الغرب أقصى الغرب ليتولى التدريس في الأندلس** · وقد أفاد المغرب من موقعه بين المشرق والأندلس فكان محط العلماء الوافدين الى الأندلس والآيبين الى المشرق ، وكثيراً ما تعلق منهم بالمغرب فجعلها وطناً له ·

وقد شهدت الأندلس كثيراً من أهل اللغة كأبي موسى الهروي وقد كان لغوياً فقيهاً ، ارتحل الى المشرق فلقي مالكاً من الفقهاء والأصمعي وأبا زيد الأنصاري من علماء اللغة · كما ارتحل جودي بن عثمان المورزوري فعاد بنحو الكوفيين ، ولقي من أعلامهم الكسائي والفراء · وقام ثابت بن عبدالعزيز السرقسطي وابنه قاسم بزيارة المشرق فحملا الى الأندلس معجم العين للخليل بن أحمد ، وقد قام باختصاره من علماء الأندلس أبو بكر الزبيدي (٣٧٩ هـ) ·

وقد تجلت محاكاة الأندلسيين للمشرقيين في كثير مما ألّفوا · وهذا العقد الفريد ومؤلفه الأندلسي ابن عبد ربه ، فقد قال الصاحب بن عباد حين ظفر بالكتاب (هذه بضاعتنا ردت الينا) ·

وقد أخذ ابن بسام على جماعته هذه المحاكاة فقال : « ان أهل هذا الأفق أبوا الا متابعة أهل المشرق ، يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتاده ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنماً وتلوا ذلك كتاباً محكماً فغاظني منهم ذلك – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – ٢/١ » ·

وقد استمرت الحال على هذا المنوال حتى القرن الخامس الهجري ، حين شاع في الأندلس مذهب الظاهرية في أصول الفقه ، وكان قد نشأ في المشرق خلال القرن الثالث الهجري وامامه أبو سليمان الأصفهاني · قام المذهب على رفض القياس وانكار التقليد،

وتولى الدعوة اليه والاحتجاج له في الأندلس الامام أبو محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٤٨ ـ ٤٥٦) • وكان ابن حزم هذا يتمنى لو كان مشرقياً حين يقول :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب

وتلا ذلك نبوغ ابن مضاء في القرن السادس الهجري ، وقد اتخذ مذهبه في أصول النحو على مثال مذهبه الظاهري في أصول الفقه ، فأنكر القياس وعوّل على النص في كتابه (الرد على النحاة) كما تقدم تفصيل ذلك ، وكان عصره عصر الثورة على المشرق ومذاهبه •

ابن مالـك :

ومن أشهر نحاة الأندلس المبتكرين في القرن السابع الهجري الامام محمد بن عبدالله ابن مالك الطائي الجياني ولد في بلدة جيان بالأندلس وقرأ العربية على ثابت بن محمد جيان الكلاعي ، كما قرأها على ابن يعيش شارح (المفصل) • وقد انتقل الى دمشق وتوفي فيها • (٦٠١ ـ ٦٧٢ هـ) وابن مالك هذا هو صاحب الألفية المشهورة باسمه ،وقد كثر شرّاحها وكان من أبرز هؤلاء ابنه بدر الدين محمد بن مالك (٦٨٦ هـ) ، وقد عُرف بحذقه للمنطق فجاء شرحه مشوباً بالنهج المنطقي ، فاختط ذلك لسائر شرّاح الألفية وحملهم على جادته • واذا كان نحاة الأندلس قد نادوا بصحة استنباط القواعد اعتماداً على الحديث النبوي منذ دعا الى ذلك الامام ابن حزم الأندلسي في القرن السادس وتبعه في ذلك السهيلي وابن خروف ، فقد كان ابن مالك أكثرهم حماسة لهذا الرأي وأشدهم استمساكاً به ، وقد جرى على الاستشهاد بالحديث في كثير من الأحكام التي خالف فيها الجمهور وقد كان من أنصار هذا المذهب الجوهري وابن جني وابن فارس وابن سيده وابن بري • وهو لم يمل الى بصرية أو كوفية وانما اختار في كل مسألة ما هداه اليه اجتهاده بالحجة •

أبو حيـان :

وقد تالق بعد ذلك نجم أبي حيان الأندلسي الغرناطي المولد والمنشأ (٦٥٤ـ٧٥٤هـ) وله من الكتب سفره الضخم في التفسير وهو (البحر المحيط) ، وله (شرح التسهيل) ومختصره (ارتشاف الضراب) واذا كان أبو حيان قد بدا ذا اسلوب منطقي في تعريفه للحدود وتحليلها فقد ابتعد عن الغلو في التعليل • واذا كان قد استمسك بالنص وعاف من التأويل ما كان متكلفاً فانه لم يدع القياس بل عول عليه في أحكامه • وقد حمله استمساكه بالنص على اهتمامه بالقراءات القرآنية جميعاً واشتغاله بها ، وعاب على النحاة ترددهم في التعويل عليها وقال : « ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة ـ البحر المحيط ـ٤/٢٧١ » ، كما عاب عليهم المفاضلة فيما بينها (٢/٢٦٥) وقال « القراءات لا تجيء على ما علمه البصريون ونقلوه ـ٢/٢٦٣ » •

ولا يمكن الحديث ، على كل حال ، عن نحو أندلسي بسمات خاصة ورواسم فريدة ، على احاطة النحاة الأندلسيين وجدوى ما رفدوا به النحو من جدة في البحث والاجتهاد وبعد عن ارادة المحاكاة ، فاذا كانوا لم يتعبدوا في نحوهم بمذهب بصري أو كوفي ، فانهم لم يتفردوا فيه بخط عام يميزه من نحو المشرق عامة بعد ابن مضاء ٠

* * *

يتبين بهذا كله أنه لا بد من التعويل على القياس ، والأخذ بالعلة والاقتصار منها على مادعوه بالعلة التعليمية والعلة القياسية، فلا نغلو في التعليل ونمضي فيه حتى نخضع اللغة لأصول المنطق والفلسفة ونهج الجدل والحجاج ، فننأى بها عن خصوصها وطبيعتها.

قال الزجاجي في (ايضاح علل النحو) :« قد عرّفناك أن الأشياء تستحق المرتبة والتقديم والتأخير على ضروب فنحكم لكل واحد بما يستحقه ، وان كانت لم توجد الا مجتمعة ٠ فنقول ان الجسم الأسود قبل السواد ، ونحن لم نر الجسم خالياً من السواد الذي هو فيه ، ولا رأينا السواد قط عارياً عن الجسم ، بل لا يجوز رؤيته لأن المرئيات انما هي الأجسام الملونة ، ولا ندرك الألوان خالية من الأجسام ٠٠ » ٠ فما حاجة النحو الى جدل لفظي لا درك فيه ، وبحث فلسفي لا غناء له في صنعة نحو أو بيان ٠ وقال نحوي في تعليل أن(هل) اما أن تباشر الفعل كقولك(هل قدم زيد) أو تباشر اسماً لا يقع في حيّزه فعل ٠ تقول (هل زيد قادم) ولاتقول(هل زيد قدم) ، قال : (ان هل اذا لم تر الفعل في حيّزها حنت اليه لسابق الألفة فلم ترض حينئذ الا بممانقته) فما حاجة النحو الى مثل هذا العبث والتخييل وهل يجديه ذلك نفعاً أو يسوق اليه بياناً أو يوجب له حسناً ؟

ولا مناص من أن يفسح للسماع ويوسع له ، ولو خالف القياس ، فقد يستدعيه الاستعمال وتقتضيه حاجة التعبير ٠ ذلك أن كثيراً من الشاذ المتاول انما يثبت الأصل الذي انزوى عنه وينبه على أن مجانبته لهذا الأصل وانفراده عنه بالحكم ، انما كان لداع في التعبير أوجبه الاستعمال ، على ألاّ يعتمد هذا الشاذ لترسى فيه قدم قياس يبطل الأصل الثابت ٠

مثال ذلك مجيء السماع بجمع المصيبة على المصائب والقياس المصيبات ، فقد كان ذلك لعلة رعوها ٠ ذلك أنهم أنزلوا(المصيبة)وهي صفة في الأصل منزلة الأسماء ،فحملهم ذلك أن يجمعوها جمع الأسماء على(مصائب)٠ وهكذا جاء السماع بجمع (المسن) على صيغة اسم الفاعل ، من الآدميين أو غيرهم ، على (المسان) بفتح الميم وتشديد النون ٠ وذلك لعلة موجبة ، فقد اشتهر استعمال(المُسن) منقطعاً عن موصوفه فأنزل منزلة الأسماء فكان من شان ذلك تكسيره تكسيرها٠وتحو ذلك جمعهم مخزية على مخاز ومدينة على مداين ومدائن ومطيحة على مطاوح والمصحف على المصاحف والموسى على المواسي.

وهكذا (الخضراء) فهي في الأصل صفة للبقلة لكنها استعملت استعمال الأسماء ، فقيل (ليس في الخضراوات صدقة) أي في البقول فجمعت جمع الأسماء دون الصفات٠

وكذلك القول في (نكباء ونكباوات) وهي الريح التي تنكبت عن الرياح الأربع ، وفي (دكاء ودكاوات) للأرض اذا انبسطت فأشبهت الرابية ٠

والقياس في (استفعل) اذا اعتلت عينه أن يُعل أي يقلب حرفه علته (واواً أو ياء) ألفاً ٠ نقول استجاب واستمات واستكان ،وشذ قولهم (استجوب) لأنهم أرادوا أن ينبهوا على اشتقاقه من (الجواب) كما اشتق (استتيس واستفيل) من التيس والفيل. وقالوا (أغيم) من الغيم و (أعوه) من العاهة ٠

وقالوا في (مفعلة) المشتقة من الاسم: شراب مطيبة بفتح الياء ودواء مبولة بفتح الواو ، أي يدعو الى الطيب والبول ، وأرض مفيأة ومشورة يكثر بها الثور والفيء ٠ ولو اشتقت (مفعلة)من الفعل لجاءت بالاعلال أي قلب حرف علتها (الواو أو الياء) ألفاً كالمقالة والمقامة والمنامة والمنارة والمثابة، وهو الأصل والقياس، ذلك فرقاً بين مفعلة الاسمية ومفعلة الفعلية ٠

ولا معدل عن أن ننأى بالنحو أن يكون علماً يعرف به أحوال الكلم اعراباً وبناء فيقتصر البحث فيه على أواخر الكلمات ويشوبه من جفاف القواعد ما لا يترقرق فيه ماء بيان أو تشرق به ديباجة كلام ٠ فالقريب المختار أن يكون علم النحو قسم علم المعاني فيغدو كل تتمة الآخر ٠ قال ابن كمال باشا في رسالته : (ويشارك النحوي صاحب المعاني في البحث عن المركبات الا أن النحوي يبحث عنها من جهة هيئتها التركيبية صحة وفساداً، ودلالة تلك الهيئات على معانيها الوضعية على وجه السداد ، وصاحب المعاني يبحث عنها من جهة حسن النظم المعبر عنه بالفصاحة في التركيب وقبحه ٠٠ فما يبحث عنه في علم النحو من جهة الصحة والفساد ، يبحث عنه في علم المعاني من جهة الحسن والقبح، وهذا معنى كون علم المعاني تمام علم النحو) ٠

ونختتم فصلنا هذا بما جاء به الامام السيد في شرح المفتاح ، اذ قال : « البحث في اللغة اما عن المفردات من حيث جواهرها وموادها وهيآتها ، فعلم اللغة ، أو من حيث صورها وهيآتها فقط فعلم الصرف ، أو من حيث انتساب بعضها الى بعض بالأصالة والفرعية فعلم الاشتقاق ، واما عن المركبات فباعتبار هيآتها التركيبية وتأديتها لمعانيها الأصلية فعلم النحو ، واما باعتبار تأديتها لمعان مغايرة لأصل المعنى فعلم المعاني ، واما باعتبار كيفية تلك الافادة في مراتب الوضوح فعلم البيان » ٠

★ ★ ★

هل يمكن معرفة معدل المواليد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم

البحث عن طريقة*

للمستشرق الفرنسي : شارل بيلا

ترجمة : فاطمة عصام صبري

توطئـــة :

علم السكان أو الديمغرافية علم حديث يدرس المجتمعات البشرية مـن حيث حجومهـا وتركيبها وتطورها وخصائصها العامة ولا سيما مـن النواحي الكمية • وأحدث منـه فرعه الذي دعي بالديمغرافية التاريخية وهذه تتناول المجتمعات الغابرة التي لدينا عنهـا بعض المصادر أو الوثائق المكتوبة دون أن تكون فيها احصـاءات مناسبة أو معلومات كافيـة • ويعمد الديمغرافيون الحديثون الى تأمل طرائق علمية يستطيعون بهـا أن يكشفوا النقاب عما فاتهم من الخصائص السكانية لتلك المجتمعات• وقد عمد المستشرق الفرنسي شارل بيلاء الى أن يسهم في هذا الميدان فالتفت نحو معالجة بعض الجوانب السكانية عند قبيلة قريش بالاعتماد على كتب الطبقات ولا سيما نسب قريش لما تقدمه هـذه الكتب من وثائق تاريخية مفيدة • ولهذا قامت السيدة فاطمة عصـام صبري بترجمـة هـذا البحث المأخوذ مـن كتـاب :

Etudes sur l'histoire socio-culturelle de l'Islam (VII^e - XV^es).
London, Variorum reprints 1976.

وقد اضافت على الترجمة حواشي بعضها ما التبس على المؤلف سـهواً وبعضـهـا قصص وطرائف اقتبستها مـن كتـاب نسب قريش لتضفي على البحث الجاف رونقـاً تتسم بـه الكتب العربية القديمة ولتزيد على الرونق فوائد اجتماعية لذلك العهد • ولعـل هـذا المقال يثير المؤرخين العرب الى التدقيق فيه والاتيـان بامثـاله •

* Peut-on connaitre le taux de natalité au temps du Prophète ? A la recherche d'une méthode.

الفتي الطويلة لكتب الطبقات أمثال « نسب قريش » لمصعب الزبيري و « طبقات ابن سعد » و « الاصابة » لابن حجر ومؤلفات آخرى من هذا النوع جعلتني أذهب الى أن قليلاً من الصبر ومن الخيال يخوّل الباحث أن يستخرج منها بيانات من نمط ديمغرافي عن عهود معيّنة في تاريخ الاسلام · تتيح بوادر تلك البيانات تصور الخصب الديمغرافي لدى رجال قريش ونسائها إبان الحقبة التي سبقت مولد الاسلام وتلته ، أي في وقت بعيد منا ولكنه متميز لأنه العهد الوحيد الذي لدينا عنه معلومات غزيرة تكاد تكون منظّمة وليس من الصعب بعد ذلك استكمال النتائج كما يقال في الاحصاء وجعلها تشتمل على قبائل أخرى ·

ان كتب طبقات الصحابة تفضي الى احصاء سكان مكة والمدينة في الثلث الأول من القرن السابع للميلاد اذ جميع سكان هاتين المدينتين حظوا برؤية الرسول على الأقل وربما بمعرفته عن كثب أو التقرب منه ·

وتساعد كتب الطبقات هذه أيضاً من وجهة نظرية على الاقل في تقدير أعمار المسلمين الذين نقلوا الحديث في قرن معين ، فان مؤلفي التراجم يسعون بالدقة الممكنة الى تحديد الأعمار التي عاشها من يترجمون لهم وعلى هذا يتيسر الوصول الى نتائج صحيحة ودقيقة ومثبتة ، وتزداد دقة المعلومات كلما تنزلنا مع الزمان ·

ويلف الغموض الزمن المتقدم على ذلك بحيث لا ينتهي التحقيق الاحصائي الى تخمين سليم · ولهذا التزمت البحث عن معدل المواليد ثم عن معدل الزيادة في قبيلة محددة هي قبيلة قريش ، كذلك من المناسب الاشارة الى ان المعلومات المتوافرة في كتب الأنساب مثل جمهرة ابن الكلبي لا يمكن اعتمادها لهذه الغاية لأن المؤلف لا يذكر البنات الا نادراً ، كما أنه قد يغفل الأولاد الذكور لامرىء تثبت ذكرهم في مراجع أخرى · أما كتاب طبقات ابن سعد فهو مفيد في دراسة نسل بعض السادة القرشيين ولكنه لا يستوعبهم استيعاباً كاملا · كذلك لا توفر كتب الطبقات الا معلومات جزئية عن زواج الصحابيات وعن ذريتهن · وخلاصة تفحص هذه المراجع هي أن طي أسماء البنات يحول دون الحصول على نتائج مرضية وحاسمة فهي لا تستطيع أن تقدم الا وثائق مساعدة · ولا يتلافى كتاب «نسب قريش» هذا النقص فلا يجد الباحث الديمغرافي فيه مبتغاه لأن المعلومات جزئية وقد تبدو متضاربة ، ومع ذلك وجدت هذا الكتاب يمتاز باحصاء عدد وفير من القرشيين ــ عاشوا في مكة أو هاجروا منها ــ مع تعداد أولادهم ــ ولو أن عدداً من بناتهم قد أغفل ــ كما أنه يتيح بعض الملاحظات التي ترضي المؤرخ والعالم الاجتماعي دون أن تكون في منتهى الدقة ·

وقد عمدت ، دون أن أضع النجاح نصب عيني ، الى كتاب نسب قريش فجردته واستخلصت منه أسماء النساء اللواتي عاصرن النبي أو عشن في زمن قريب قبله أو بعده وتزوجن على الأقل مرة ثم أسماء الرجال الذين يذكرهم مصعب وهو متثبت مما يقول سواء تزوجوا واحدة أو عدة نساء ، وكان لهم ذرية معروفة ، مع أنني في البداية ظننت أن خصب النساء وحده يلزم أن يؤخذ بعين الاعتبار في تخمين النمو الديمغرافي · وكان من المفيد التمييز بين العهد الذي سبق دخول المكيين في دين الله أفواجاً والعهد الذي تلاه ولكن ظهر لي أن ذلك أمر صعب المنال ·

العبارة المثلى في قلم مصعب على الشكل التالي : « فلان ولد له : أ ، ب ، ج ومن بناته من تزوجت فلاناً وولد لهما كذا طفلاً ،وأم جميع الأولاد لذلك الشخص هي فلانة » ثم يعدد أولاده وينسبهم الى أمهاتهم . وأحياناًيعدد مصعب بعد اسم زوجة فلان وأولادها منه أولادها من أزواجها الآخرين ، وبذلك يتيسرلنا أن نعرف ذرية هذه المرأة كلها كذلك نتيقن اذا ولدت زوجة واحدة لزوجها ستةأولاد أو أكثر . وقد يحجم المؤلف عن ذكر أسماء جميع أولاد امرأة لها عدة أزواج فيفقرة واحدة وعندئذ يلزم الرجوع الى فقرات أخرى من الكتاب يذكرهم فيها . ولو اقتصركتاب نسب قريش على هذا النهج من الوصف لأتاح لنا احصاءات تقترب كثيراً من الواقع ولكن الفقرات الكاملة نادرة والأولاد لا يذكرون بتمامهم دائماً ، واذا ذكروا فقد يحذف منهم الاناث أو يشار اليهن دون ذكر عددهن بدقة، والتعبيرات من أمثال (فولدت له)كثيرة وغالباً ما يجتزىء المؤلف فيقول : من ولد فلان . ويذكر بعضهم .

ثم ان كثيراً من عشائر قريش قد ألمّ بها الماماً سريعاً . لذلك اقتصرت على المعلومات التي يعتبرها مصعب صحيحة وتامة ، وقداحترزت ما استطعت فأحصيت ٧٠٠ امرأة كان لهن من الأولاد :

١٧٢٦ ولداً (الوسطي ٢,٤٦)

منهم ١٣٢٧ ذكراً (الوسطي ١,٨٩)

و ٣٩٩ أنثى (الوسطي ٠,٥٧) فقط

وهذا شيء بعيد الاحتمال لأنه لا يوجدشعب يكون فيه الصبيان بصورة طبيعية ثلاثة أمثال البنات وسنرى بعدقليل في الأسر التي لدينا عنها بيانات صحيحة وأكيدة أن النسبة تنخفض الى نحو ١٠٨ صبي تلقاء ١٠٠ بنتبدلاً من ٣٣٢ مقابل ١٠٠ الذي وصلنا اليه.

ومع ذلك فان الجاحظ ذلك الكاتبالخالد لاحظ أن البنات ـ ما عدا في خراسان ـ أكثر عدداً من الصبيان . وأضاف أن احصاءجرى للطالبين في مطلع القرن الثالث للهجرة شفّ عن وجود ٢٣٠٠ من ذرية أبي طالبوفيه عدد البنات يفوق عدد الذكور بعشر على الأقل وهذا يعتبره الجاحظ أمراً عارضاًفي تلك الأسرة التي اشتهرت بأن النساء المذكارات أي الولادات للذكور كنّ عديدات .فاذا قبلنا جدلاً بأن عدد البنات هو حقاً ٣٩٩ فيجب أن نعتبر أن الـ ٧٠٠ امرأة المعدودةهنّ مذكارات وهذا أمر بعيد الاحتمال .

ويمكن أيضاً أن نفكر في عادة وأد البناتغبّ ميلادهن ولكنها عادة أزالها الاسلام بل ان بعض النساء اللواتي عشن في أواخرالجاهلية ودخلن في التعداد السابق أنجبن بنات ظللن على قيد الحياة . وأخيراً يمكن أن نتهم المؤلف في انتقائه ونعتبر أن النساء اللواتي وردن عنده كان لهن بنات وأغفل ذكرهن . نكتفي الآن بقبول هذا الحساب النظري ونقبل مؤقتاً أن معدل الخصب للمرأة الواحدةهو ٢,٤٦ .

لا بد من أن نصحح هذا المعدل فنزيده منجهة لندخل في الحساب بعض النساء اللواتي أحصين عدة مرات وننقصه من جهة ثانية اذيجدر أن نضيف الى سبعمائة الامرأة المتزوجة

النساء اللواتي بقين عازبات . فمن العسير تقدير الرقم تماماً . ولم يكن من هؤلاء سوى تسع نساء : ثمان منهن كن بنات علي بن عبدالله بن عباس ومن يقدمن استثناءً كافياً وبارزاً يمكن ملاحظته ، ولكن يبدو أنه في كثير من الحالات يقدم مصعب معلومات غير كافية وصمته لا يمكن تبريره بأي شكل من الاشكال.

من جهة أخرى لا بد من ان تكون وفيات الرضع اذ ذاك مرتفعة ولكنا لا نستطيع الاعتماد على نسب قريش لتقديرها تماماً ، ومع ذلك ليس لها الا نتائج محدودة في حسابنا لأن المواليد الذين ماتوا قبل أن يُسمّوا غير مذكورين مطلقاً ، ولفظ درج أي مات دون أن يترك نسلاً ينطبق على الأطفال الذين يموتون في سن مبكرة . وقد ذكر ذلك ٣٥ مرة ، وربما كان هذا الرقم أقل من الواقع وعلى آية حال فان خُمْس أولاد الحكَم بن أبي العاص ، وعلى الضبط ، ٦ على ٣٢ درجوا وهي نسبة مقبولة ولكنا لا نستطيع أن نعتمد هذه النسبة لأن لفظ درج لا توجد فيه اشارة الى عمر الطفل الميت بدقة .

في كل ما تقدم ذكرنا أرقاماً عامة أياً كانت قيمتها ، ولكي نحاول الاحاطة بالحقيقة عن كثب في مسألة نسبة الاناث الى الذكور التي تظل أعوص المشاكل اخترنا خمسين امرأة ممن كان لهن على الأقل خمسة أطفال جميعهم مذكورون بأسمائهم :

رقم الصفحة في النسب	اسم المرأة	اسم الزوج أو الأزواج	عدد الذكور	عدد الاناث	المجموع
٤٣٩	دعد بنت عمرو	سيار بن نزار	١٠	٢	١٢
٣٠٣	فاختة بنت عتبة	عبدالرحمن بن الحارث	٦	٥	١١
١٧	حيَّة بنت هاشم	هاشم بن الأحْجَم	٦	٥	١١
٣٥٦، ٣٥٧	صفية بنت أبي عبيد	عبدالله بن عمر بن الخطاب	٨	٢	١٠
٢٠٤	فاطمة بنت عتبة	قَرَظة بن عبد عمرو	٨	٢	١٠
٤٤٤	تماضر بنت أبي عمرو	أبو همهمة	٦	٣	٩
١٥٩	مليكة بنت أوفى	الحكم بن أبي العاص	٥	٤	٩
٢١، ٢٢	خديجة بنت خويلد	أبو هالة + عتيق + النبي (ﷺ)	٢	٧	٩
١٤	عاتكة بنت مرّة	عبدمناف + حبش بن عامر	٥	٤	٩
٢٨٣، ٢٠٦، ٣٠٨، ٣٣٠	سعدى بنت عوف	طلحة بن عبيدالله + عبدالرحمن ابن الحارث + عبدالله بن الوليد بن المغيرة	٤	٤	٨

رقم الصفحة في النسب	اسم المرأة	اسم الزوج أو الأزواج	عدد الذكور	عدد الاناث	المجموع
٣٥٨،٣٥	أم عبدالله بنت عبدالرحمن	عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن بن ابي بكر الصديق (+ لها أزواج آخرون)	٤	٤	٨
٩٩	آمنة بنت أبان	أمية + ابنه أبو عمرو(١)	٥	٣	٨
١٠١	اروى بنت كريز	عفان + عقبة بن أبي معيط	٤	٤	٨
١٧	فاطمة بنت عمرو	عبدالمطلب	٣	٥	٨
٤٤٣	هند بنت عبدالله	عامرة	٨	٠	٨
٤٤٣	بنت الحارث بن مالك بن كنانة	الحارث بن فِهْر	٥	٢	٧
٤٤٣	بنت الحارث بن مالك بن النَّضر	الحارث بن فِهْر	٥	٢	٧
٢٨	زُرعة بنت مِشْرح	عبدالله بن العباس	٦	١	٧
١٥٩	آمنة بنت علقمة	الحكم بن أبي العاص	٥	٢	٧
٣٣٨	أم جميل بنت المغيرة	سفيان بن (عبد) الأسد	٧	٠	٧
٤٠٨،٢٠٦	عاتكة بنت عبد العزى	سعيد بن سهم	٣	٤	٧
٨٣،٤٤	ليلى بنت مسعود	علي + عبدالله بن جعفر بن أبي طالب	٥	٢	٧
٣٠٥	أم حسن بنت الزبير (بن العوام)	عبدالرحمن بن الحارث	١	٦	٧
٣٤٣	تخمُد' بنت عبد	عمران بن مخزوم	٤	٢	٦
٤٠	فاطمة بنت أسد	ابو طالب	٤	٢	٦
١١٤،٥٩	فاطمة بنت الحسين بن علي(٢)	الحسن + عبدالله بن عمرو	٥	١	٦
٢٨	أم الفضل بنت الحارث اسمها لبابة	عباس بن عبدالمطلب	٥	١	٦
١٩	أميمة بنت عبدالمطلب	جحش بن رئاب	٣	٣	٦
١٠٠	آمنة بنت عبد العزى	أبو العاص	٤	٢	٦
٤٠٦	بنت سُعَيد بن سهم	سُعَيد بن سعد	٤	٢	٦
١٤	حبّى بنت حُلَيل	قصي (بن كلاب)	٤	٢	٦

رقم الصفحة في النسب	اسم المرأة	اسم الزوج او الازواج	عدد الذكور	عدد الاناث	المجموع
٤٤٣	عميرة بنت عوف	عميرة بن وديعة	٥	١	٦
١٥٩	أم نعمان (بنت الحارث)	الحكم بن أبي العاص	٣	٣	٦
١٦٠	بنت منبّه	الحكم بن ابي العاص	٥	١	٦
٤٢	الصهباء	محمد بن علي بن أبي طالب	٢	٤	٦
٢٨٣	أم كلثوم بنت أبي بكر	طلحة + عبدالرحمن بن عبدالله	٤	١	٥
٤٦	فاطمة بنت علي	محمد بن أبي سعيد + سعيد بن الأسود بن أبي البختري + المنذر بن عبيدة	٢	٣	٥
٢٥، ٨٣	زينب بنت علي	عبدالله بن جعفر بن أبي طالب	٣	٢	٥
١٧٤	صفية بنت المغيرة	سعيد بن العاص	٥	٠	٥
١٢٥	هند بنت عتبة	أبو سفيان	٣	٢	٥
٣٦٣، ٣٦٤	سَوْدة بنت عبدالله بن عمر	عبدالرحمن بن زيد + عروة ابن الزبير	٤	١	٥
١١٤	أم عبدالعزيز	عبدالله بن عمرو بن عثمان	٢	٣	٥
١٥	سلمى بنت عمرو	هاشم + أحيحة	٣	٢	٥
٤٦(٣)	فاطمة بنت أبي طالب	محمد بن أبي سعيد + سعيد + المنذر	٢	٣	٥
١٠٤	أم عمرو بنت جُنْدَب	عثمان بن عفان	٤	١	٥
٢٣٦، ٢٦٦	أم كلثوم بنت عقبة	عبدالرحمن بن عوف + الزبير	٤	١	٥
٨٠، ٢٧٧	أسماء بنت عُميس(٤)	علي + جعفر بن أبي طالب + أبا بكر	٥	٠	١
٢٧٨	عائشة بنت طلحة	عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر	٤	١	٥
٣٣٨	ريطة بنت عبد	سفيان بن عبد أسد	٥	٠	٥
٢٨	أم كلثوم بنت الفضل	حسن بن علي + أبو موسى الأشعري	٤	١	٥

هؤلاء النسوة الخمسون ولد لهن ٣٤٠ ولداً (المتوسط ٦،٨٠) منهم ٢٢٣ صبياً (المتوسط ٤،٤٦) و ١١٧ بنتاً (المتوسط ١،٣٤) اي ١٦٠ ذكراً مقابل ١٠٠ أنثى ٠

ان قراءة « النسب » تجعلنا نتصور أن كثيراً من النساء كن ولودات ولم تكن نادرة الأسر التي يتجاوز عدد أولادها الخمسة أو الستة قليلة وانما القليلة هي الاسر التي لها طفل واحد ولذلك اغفلت ، واذا لم تكن الأسرة مشهورة لا يذكر مصعب الا البارزين فيها ، بل كان يعجل للوصول اليهم ، لذلك يصعب ضبط الحساب ٠

أمر آخر نلاحظه هو أن من بين النساء الواردات في الجدول من تزوجت أكثر من مرة ٠ ومن المفيد فحص حالات المتزوجات وقد اكتفينا باللواتي تزوجن ثلاث مرات برباط شرعي كما يدعونا ابن حبيب في كتاب المحبّر الذي يخصص فصلاً فيه لهذه المسألة دون الاشارة الى عدد الاولاود الذين كانوا حصيلة هذه الحالات المتتابعة ٠

ومن الطبيعي أن يحفّ الغموض حياة الناس الخاصة ولا سيما حياة النساء حتى الشهيرات منهن فيؤدي ذلك الى خلاف واضح بين واضعي الترجمات الذين يسعون الى استيفاء الحقيقة حسب الروايات التي يعتمدونها ٠ ومن أكثر الأمثلة بروزاً على هذا النوع من الشك وعدم اليقين مثال السيدة المشهورة سكينة بنت الحسين بن أبي طالب التي بلغ عدد أزواجها ستة في بعض الروايات فكان ذلك مثار خلاف لا في تاريخ كل زواج فقط بل في أسماء أولئك الأزواج ٠ ولو قبلنا تلك الروايات لكانت قد تزوجت ثماني مرات مع أنها تزوجت خمس مرات فقط (منها اثنتان عقد فيها قرانها ولم تتزوج ، كما أن عبدالملك بن مروان خطبها وردته) ويتبين بالبحث أن عدد أولاد هذه المرأة ثلاثة : صبيان وبنت ومن زوج واحد هو عبدالله بن عثمان بن عبدالله (النسب ، ص ٥٩) ٠

في الجدول التالي نعرض اذن عدداً من النساء اللواتي تزوجن على الأقل ثلاث مرات متبعين الترتيب الهجائي (الأجنبي) ومعتمدين « المحبّر » تأليف أبي جعفر محمد بن حبيب :

اسم المرأة	رقم الصفحة في النسب	رقم الصفحة في المحبر	ازواجها	ذكور	اناث	مجموع
عائشة بنت طلحة بن عبيدالله التيمي	٣١٤ و ٢٧٨	٤٤٢	١ ـ عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق	٤	١	٥
			٢ ـ مصعب بن الزبير بن العوام	٠	٠	٠
			٣ ـ عمر بن عبيدالله بن معمر بن عثمان التيمي	٠	٠	٠
عميرة بنت قيس بن سويد البكري ويقال الخولاني		٤٥٣	١ ـ سعد بن أبي سعد بن أبي طلحة من بني عبد الدار	١	٠	١

اسم المـرأة	رقم الصفحة في النسب	رقم الصفحة في المحبر	ازواجهـــــا	ذكور	اناث	مجموع
			٢ ـ الآسود بن آبي البختري	٠	١	١
			٣ ـ آبو حبيب بن امية بن ابي حذيفة بن المغيرة	٠	١	١
			٤ ـ آبو مسلم بن الحارث بن عامر بن نوفـل	٠	٠	٠
			٥ ـ فضالة بن جعفر بن رفاعة المخزومي	٠	٠	٠
			٦ ـ رافـع الزبيـدي	١	٠	١
أسماء بنت عُميس الخثعمية	٤٤ ، ٨٣،٨٠، ٢٧٧	٤٤٢و	١ ـ جعفر بن آبي طالب	٣	٠	٣
		٤٤٣	٢ ـ آبو بكر الصديق	١	٠	١
			٣ ـ علي بن آبي طالب	١	٠	١
عاتكة(٥) بنت زيد بن عمرو ابن نفيل بن عبدالعزى	٢٧٧ ، ٢٦٥	٤٣٧	١ ـ عبيدة بن الحارث بن المطلب	٠	٠	٠
			٢ ـ عبدالله بن ابي بكر	٠	٠	٠
			٣ ـ عمر بن الخطاب	١	٠	١
			٤ ـ الزبير بن العوام	٠	٠	٠
			٥ ـ محمد بن آبي بكر	٠	٠	٠
			٦ ـ عمرو بن العاص السهمي	٠	٠	٠
بريكة بنت القاسم بن محمد ابن علي بن آبي طالب	٧٧	٤٤٦	١ ـ عبـدالرحمن بن عمر بن عبدالرحمن بن سهل	١	٠	١
			٢ ـ عبدالعزيز بن سـلمة بن آبي سلمة المخزومي	٠	١	١
			٣ ـ علي بن الربيع بن عبيدالله الحـارثي	٠	٠	٠
			٤ ـ عبدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن آبي طالب	٠	٠	٠
ضباعة بنت عامر بن قرط القشيرية	٣٠٣	٤٣٨و	١ ـ هوذة بن علي الحنفي	٠	٠	٠
		٤٣٩	٢ ـ عبدالله بن جدعان التيمي	٠	٠	٠
			٣ ـ هشام بن المغيرة المخزومي	١	٠	١
فاطمـة بنت علي بن آبي طـالب	٣٦	٥٦و٥٧	١ ـ محمد بن أبي سعيد بن عقيل	١	٠	١
			٢ ـ سعيد بن الأسود بن آبي البختري	٠	٢	٢

اسم المرأة	رقم الصفحة في النسب	رقم الصفحة في المحبر	أزواجها	ذكور	اناث	مجموع
			٣ ـ المنذر بن عبيد بن الزبير ابن العوام	٢	٠	٢
حفصة بنت عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق	٢٤٤	٤٤٨	١ ـ الحسين بن علي بن أبي طالب	٠	٠	٠
			٢ ـ عاصم بن عمر بن الخطاب	٠	٠	٠
			٣ ـ المنذر بن الزبير	١	٠	١
هند بنت أسماء بن خارجة الفزاري	١٦٩	٤٤٣	١ ـ عبيدالله بن زياد بن أبيه	٢	١	٣
			٢ ـ بشر بن مروان بن الحكم	١	٠	١
			٣ ـ الحجاج بن يوسف الثقفي	٠	٠	٠
هند بنت سهيل بن عمرو	٤٢٠	٤٥٠	١ ـ حفص بن عبد بن زمعة	٠	٠	٠
			٢ ـ عبدالرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبي العيص	٠	٠	٠
			٣ ـ عبدالله بن عامر بن كريز	٢	٠	٢
			٤ ـ الحسن بن علي بن أبي طالب	٠	٠	٠
هند بنت عتبة	١٢٣	٤٣٧	١ ـ الفاكه بن المغيرة	٠	٠	٠
			٢ ـ حفص بن المغيرة	٠	٠	٠
			٣ ـ أبا سفيان صخر بن حرب بن أمية	٣	٢	٥
كيّسة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة	٢٠و١٤٧ و ١٤٩	٤٤٠	١ ـ جبلة بن ثور	٠	٠	٠
			٢ ـ مسيلمة الكذاب	٠	٠	٠
			٣ ـ عبدالله بن عامر بن كريز	٣	١	٤
خديجة بنت خويلد	٢١و٢٢	٤٥٢	١ ـ أبو هالة نبّاش بن زرارة	٠	٢	٢
			٢ ـ عتيق بن عائذ	٠	١	١
			٣ ـ محمد رسول الله (ﷺ)	٢	٤	٦
لبابة بنت عبدالله بن العباس ابن عبدالمطلب	٢٩	٤٤٠	١ ـ علي بن عبدالله بن جعفر ابن أبي طالب	٠	٠	٠
			٢ ـ اسماعيل بن طلحة بن عبيدالله	١	٠	١
			٣ ـ محمد بن عبيدالله بن العباس بن عبدالمطلب	٠	٠	٠

اسم المـــرأة	رقم الصفحة في النسب	رقم الصفحة في المحبر	أزواجهـــــا	ذكور	اناث	مجموع
لبابة بنت عبيدالله بن العباس ابن عبدالمطلب	٧٩	٤٤١	١ ــ العباس بن علي بن أبي طالب	١	٠	١
			٢ ــ الوليد بن عتبة بن أبي سفيان	١	٠	١
			٣ ــ زيد بن حسن بن علي بن أبي طـــالب	٠	١	١
ميمونـة بنت عبدالرحمن ابـن عبــدالله بــن عبدالرحمن بن أبا بكر الصديـــق	١٦٥	٤٤٥و ٤٤٨	١ ــ عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك	٢	٠	٢
			٢ ــ محمد بن الوليد بن سليمان ابن عبدالملك	٠	٠	٠
			٣ ــ هشام بن عبدالملك	٠	٠	٠
ميمونة بنت عبيـــدالله بن العبــاس بن عبدالمطلب	٣١و٣٢	٤٤١	١ ــ عبدالله بن علي بن أبي طالب	٠	٠	٠
			٢ ــ أبو سعيد بن عبدالرحمن ابن الحـــارث بن هشـــام المخزومي	٢	٠	٢
			٣ ــ نافع بن جبير بن مطعم بن عـــدي بن نوفـــل	١	٠	١
			٤ ــ أبو السنابل ابن عبدالله بن عامر بن كريز	٠	٠	٠
رُبَيحة بنت محمد بن علي ابن عبـــدالله بن جعفر		٤٤٠	١ ــ يزيد بن الوليد بن يزيد ابن عبدالملك بن مروان	٠	٠	٠
			٢ ــ بكار بن عبدالملك بن مروان	٠	٠	٠
			٣ ــ صالح بن علي بن عبدالله ابن العبـــاس	٠	٠	٠
			٤ ــ اسحاق بن ابراهيـــم بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طـــالب	٠	٠	٠
ربيحـــة بنت المغـــيرة بن عبدالرحمن	٣١٠		١ ــ عيسى بن عيسى بن طلحة	٠	٠	٠
			٢ ــ عبدالله بن عكرمـــة	٠	٠	٠
			٣ ــ عبدالعزيز بن عبدالله	٠	٠	٠
			٤ ــ جعفر بن سليمان	٠	٠	٠

اسم المرأة	رقم الصفحة في النسب	رقم الصفحة في المحبر	أزواجها	ذكور	اناث	مجموع
سهلة بنت سهيل	٢٦٧، ٤٢٠		١ ـ حذيفة بن عتبة	١	٠	١
			٢ ـ الشمق بن سعيد	١	٠	١
			٣ ـ عبدالرحمن بن عوف	١	٠	١
سعدى بنت عوف	٢٨٣و ٣٠٦و ٣٠٨و ٣٣٠		١ ـ طلحة بن عبيدالله	٢	٠	٢
			٢ ـ عبدالرحمن بن الحارث	١	٤	٥
			٣ ـ عبدالله بن المغيرة	١	٠	١
سحيقة بنت محمد		٤٤٤ و٤٤٥	١ ـ الحارث بن عبدالمطلب	٠	٠	٠
			٢ ـ عمر بن علي بن الحسن	٠	٠	٠
			٣ ـ اسماعيل بن ابراهيم بن محمد بن طلحة	٠	٠	٠
			٤ ـ اسماعيل بن عبدالله بن جعفر	٠	٠	٠
			٥ ـ اسماعيل بن ابراهيم بن محمد بن طلحة (راجعها)	٠	٠	٠
			٦ ـ عبدالرحمن بن عبدالله	٠	٠	٠
اميمة بنت أبي سفيان	١٢٤	١٠٥ و٤٤٧	١ ـ حويطب ابن عبدالعزى	١	٠	١
			٢ ـ صفوان بن أمية	١	٠	١
			٣ ـ المغيرة بن شعبة الثقفي	٠	٠	٠
أم عبدالله بنت عبدالرحمن ابن زيد		٤٤٢	١ ـ عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق	٠	٠	٠
			٢ ـ عبدالله بن عمر بن الخطاب	٠	٠	٠
			٣ ـ طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق	٠	٠	٠
أم علي عبدة بنت علي ابن الحسين بن علي	٦٢	٤٣٨	١ ـ محمد بن معاوية بن عبدالله ابن جعفر	٠	٠	٠
			٢ ـ علي بن الحسين بن الحسن ابن علي	٢	٠	٢
			٣ ـ نوح بن ابراهيم بن محمد ابن طلحة بن عبيدالله	٠	٠	٠

اسم المـرأة	رقم الصفحة في النسب	رقم الصفحة في المحبر	أزواجهـا	ذكور	اناث	مجموع
أم بشر بنت عقبة	٤٩، ٥٠		١ ـ الحسن بن علي بن أبي طالب	١	١	٢
			٢ ـ عبدالرحمن بن عبدالله	١	٠	١
			٣ ـ سعيد بن زيد	٠	١	١
أم جميل بنت عبدالملك ابن قدامة بن ابراهيم		٤٣٩	١ ـ محمد بن عبدالله بن اسماعيل	٠	٠	٠
			٢ ـ علي بن عون بن محمد بن علي بن أبي طالب	٠	٠	٠
			٣ ـ ابراهيم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عمر بن الخطاب	٠	٠	٠
			٤ ـ عبدالملك بن يحيى بن عروة	٠	٠	٠
			٥ ـ ابن عبدالعزيز	٠	٠	٠
			٦ ـ ابن رياح	٠	٠	٠
أم حكيم بنت الحارث ابن هشام	٣٠٣		١ ـ عكرمة بن جهل	٠	٠	٠
			٢ ـ خالد بن سعيد بن العاص	٠	٠	٠
			٣ ـ عمر بن الخطاب	٠	١	١
أم حكيم بنت محمد	١٦٩	٤٥٥	١ ـ بشر بن مروان	١	٠	١
			٢ ـ عمر بن مروان	٠	٠	٠
			٣ ـ عبيدالله بن مروان	٠	٠	٠
أم حكيم بنت يحيى بن الحكم	١٦٧	٤٤٩	١ ـ عبدالعزيز بن الوليد	٠	٠	٠
			٢ ـ سليمان بن عبدالملك	٠	٠	٠
			٣ ـ هشام بن عبدالملك	٣	٢	٥
أم حسين بنت علي بن أبي طالب	٤٥	٤٣٧	١ ـ جعدة بن هبيرة	٠	٠	٠
			٢ ـ جعفر بن عقيل بن أبي طالب	٠	٠	٠
			٣ ـ عبدالله بن الزبير	٠	٠	٠
أم اسحق بنت طلحة	٥٠و٥٩	٤٤٢	١ ـ الحسن بن علي بن أبي طالب	١	٠	١
			٢ ـ الحسين بن علي بن أبي طالب	١	٠	١
			٣ ـ عبدالله بن محمد بن أبي بكر	٠	١	١
أم كلثوم بنت عبدالله بن جعفر بن أبي طالب	٨٢	٤٣٩	١ ـ القاسم بن محمد بن جعفر	٠	١	١
			٢ ـ الحجاج بن يوسف	٠	٠	٠
			٣ ـ علي بن عبدالله بن العباس	٠	٠	٠

اسم المرأة	رقم الصفحة في النسب	رقم الصفحة في المحبر	أزواجها	ذكور	اناث	مجموع
أم كلثوم الكبرى بنت علي ابن أبي طالب	٢٥و٤١	٤٣٧	١ ــ عمر بن الخطاب	١	١	٢
			٢ ــ محمد بن جعفر بن أبي طالب	•	•	•
			٣ ــ عون بن جعفر بن أبي طالب	•	•	•
			٤ ــ عبدالله بن جعفر بن أبي طالب	•	•	•
أم كلثوم الصغرى (نفيسة) بنت علي بن أبي طالب	٤٥		١ ــ عبدالله بن عقيل	•	١	١
			٢ ــ كثير بن العباس	١	•	١
			٣ ــ تمام بن العباس	•	١	١
أم كلثوم بنت الفضل بن العباس	٢٢٦،٢٥، ٢٨	٤٣٩	١ ــ الحسن بن علي بن أبي طالب	٣	١	٤
			٢ ــ أبو موسى الأشعري	١	•	١
			٣ ــ عمران بن طلحة	•	•	•
أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط	،٢٣٦ ٢٦٦	٤٤٦	١ ــ زيد بن الحارثة	•	•	•
			٢ ــ عبدالرحمن بن عوف	٤	•	٤
			٣ ــ الزبير (بن العوام)	•	١	١
			٤ ــ عمرو بن العاص	•	•	•
أم محمد بنت عبيدالله ابن العباس		٤٤١	١ ــ عبيدالله بن عبدالله بن العباس	•	•	•
			٢ ــ عثمان بن عبدالله بن حميد	•	•	•
			٣ ــ عبدالله بن معبد بن العباس	•	•	•
أم قاسم بنت الحسن بن علي	٥٩،٥٠	٤٣٨	١ ــ مروان بن ابان بن عثمان بن عفان	•	•	•
			٢ ــ علي بن الحسين بن علي	٣	•	٣
			٣ ــ الحسين بن عبدالله بن عبيدالله	•	•	•
أم قتّال بنت عبد	٢٠٣،١٢٣	٤٥٠	١ ــ عمرو بن أمية	١	•	١
			٢ ــ حرب بن أمية	•	١	١
			٣ ــ أسيد بن جارية	١	•	١
			٤ ــ عمرو بن نوفل	١	•	١
أم سلمة بنت عبدالرحمن ابن سهل		٤٤٧	١ ــ الحجاج	•	•	•
			٢ ــ الوليد بن عبدالملك	•	•	•
			٣ ــ سليمان بن عبدالملك	•	•	•
			٤ ــ هشام بن عبدالملك	•	•	•

اسم المرأة	رقم الصفحة في النسب	رقم الصفحة في المحبر	ازواجهـا	ذكور	اناث	مجموع
أم عثمان بنت سعيد بن عثمان	١٦٧،١٦٨	٤٤٦	١ ـ هشام بن عبدالملك	١	٠	١
			٢ ـ الحكم بن الوليد	٠	٠	٠
			٣ ـ بكار بن سلمة	٠	٠	٠
			٤ ـ محمد بن عبدالله بن عمرو	٠	٠	٠
أم يحيى بنت محمد بن عروة بن الزبير		٤٥١	١ ـ الحكم بن يحيى بن عروة	٠	٠	٠
			٢ ـ أمية بن عبدالله بن خالد	٠	٠	٠
			٣ ـ الحكم بن يحيى	٠	٠	٠
			٤ ـ محمد بن عمران	٠	٠	٠
			٥ ـ الحكم بن يحيى	٠	٠	٠

من هؤلاء النساء المذكورات تبدو المعلومات عن سبع وعشرين منهن أكيدة نسبياً

اذ ولدن ١٠٢ ولداً (وسطياً ٣,٧٧)

منهم ٧٦ صبياً (الوسطي ٢,٤٨)

و ٥٣ بنتاً (الوسطي ١,٢٩)

أي ١٧٧ ذكراً مقابل ١٠٠ أنثى(٦)

ويزيد الغموض في بحثنا ان لم ننتبه للرجال ولزوجاتهم وامائهم ، وهكذا نقدر العقبات التي تعترض في ايضاح المشكلة العميقة التي نحن بصددها فنحن هنا لا نتحدث عن الزواج من زوجة واحدة الا في الحالات المفيدة ٠

رقم الصفحة في النسب	رئيس العائلة	الزوجات وأمهات الأولاد	ذكور	اناث	مجموع
٢٥	العباس بن عبدالمطلب (هاشم)	لبابة بنت الحارث (هلال)	٥	١	٦
		هذيلية	١	٠	١
		أم ولد	٢	٠	٢
		أم ولد	٠	١	١
		أم ولد	٠	١	١

رقم الصفحة في النسب	رئيس العائلة	الزوجات وأمهات الأولاد	ذكور	اناث	مجموع
٢٨	عبدالله بن عباس (هاشم)	زهرة بنت مشراح (كندة)	٦	١	٧
		أم ولد	٠	١	١
٢٠	عبدالله بن عبدالمطلب (هاشم)	آمنة بنت وهب (زهرا)	١	٠	١
		أم ولد	١	٠	١
١٤٩	عبدالله بن عامر بن كريز(؟) (عبد شمس)	كيسة بنت الحارث (عبدشمس)	٣	٠	٣
		كنانية	٢	٠	٢
		أم ولد	٢	٠	٢
		أم ولد	٢	٠	٢
		أم ولد	١	٠	١
		هند بنت سهيل	٢	٠	٢
		أماة الله (كلاب)	٠	١	١
١١٣_١١٥	عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان (عبد شمس)	أسماء بنت عمرو (مخزوم)	١	٢	٣
		فاطمة بنت الحسين بن علي	٢	١	٣
		فتاة مجهولة	١	١	٢
		أمهات أولاد	١	٢	٣
٨٢	عبدالله بن جعفر بن أبي طالب	زينب بنت علي بن أبي طالب	٣	٢	٥
		بنت المسيب (فزارة)	٢	٠	٢
		ابنة خَصَفة (بكر)	٤	٠	٤
		ليلى بنت مسعود (نهشل)	٤	٢	٦
		آمنة بنت عبدالله (خثعم)	١	٢	٣
		النابغة بنت خداش (عبس)	١	٠	١
		[أم كلثوم بنت علي]	٠	٠	٠
		أمهات أولاد	٣	٠	٣
٢٤٠_٢٤٣	عبدالله بن الزبير (أسد)	تماضر (فزارة)	٤	٠	٤
		أم هشام (أخت تماضر)	٤	٠	٤
		حنتمة (مخزوم)	٢	٠	٢
		ريطة (أخت حنتمة)	١	٠	١
		أم ولد	١	٠	١

رقم الصفحة في النسب	رئيس العائلة	الزوجات وأمهات الأولاد	ذكور	اناث	مجموع
٣٥٦	عبدالله بن عمر بن الخطاب (عدي)	صفية بنت أبي عبيد (ثقيف)	٨	٢	١٠
		أم ولـد	٣	٠	٣
		أم علقمـة (فهر)	١	٠	١
		أم ولـد	١	١	٢
		سهلة بنت مالك (تغلب)	٠	١	١
		أم ولـد	١	١	٢
		أم ولـد	١	٠	١
١٧	عبدالمطلب بن هاشم	فاطمة بنت عمرو (مخزوم)	٣	٥	٨
		هالة بنت أهيب (زُهرة)	٣	١	٤
		فتيلة بنت جناب (عمرو بن عامر)	٢	٠	٢
		صفية بنت جندب (هوازن)	٢	٠	٢
		لبنى بنت هاجر	١	٠	١
		فتـاة خزاعيـة	١	٠	١
٢٦٦	عبدالرحمن بن عوف (زهرة)	أم كلثوم بنت عتبة (مخزوم)	١	٠	١
		بنت شيبة (عبد شمس)	٠	١	١
		أم كلثوم بنت عقبة (عبد شمس)	٤	٠	٤
		بحـرية (شيبان)	٠	٠	١
		سهلة بنت سهيل (عبد شمس)	١	٠	١
		أم حكيم بنت قارظ (كنانة)	١	٠	١
		امرأة من بني عبد الأشهل	١	٠	١
		تماضر ابنة الأصبغ (كلب)	١	٠	١
		أسماء بنت سلامـة (نهشل)	١	٠	١
		فتـاة مغفلة	١	٠	١
		مجد بنت زيد (حمير)	١	٠	١
		غزال بنت كسرى (شيبة)	١	٠	١
		باديـة بنت غيلان (ثقيف)	٠	١	١
٣٠٣	عبدالرحمن بن الحارث بن هشام (٨) (مخزوم)	فاختة بنت عتبة (الشريدة) (عبدشمس)	٦	٥	١١
		أم حسن بنت الزبير (أسد)	١	٦	٧
		سعدى بنت عوف (مرة)	١	٤	٥
		أم رسن بنت الحارث (حارثة)	٢	٢	٤
		أمهـات أولاد	٣	٠	٣
		مريم بنت عثمان بن عفان	٠	١	١

رقم الصفحة في النسب	رئيس العائلة	الزوجات وامهات الاولاد	ذكور	اناث	مجموع
٣٦٣	عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب (عـدي)	فاطمة بنت عمر (عـدي)	١	٠	١
		أم عمر بنت سفيان (ثقيف)	١	٠	١
		ميمونة بنت بشر (البكاء)	٢	٠	٢
		سودة بنت عبدالله بن عمر بن الخطاب	٤	٠	٤
		أم ولـد	١	٠	١
٩٧	عبدشمس بن عبدمنـاف	نعجة بنت عبيد (عامر بن صعصعة)	٢	١	٣
		عبلة بنت عبيـد (تميم)	٣	١	٤
		عمرة بنت وائلة (زيـد مناة)	١	١	٢
		آمنـة بنت وهب (أسـد)	١	٠	١
		أمامة بنت الجودي (كندة)	١	٠	١
١٠٠ـ١٠١	أبو العـاص بن أميـة (عبد شمس)	آمنة بنت عبد العزى (عدي)	٤	٢	٦
		رقية بنت الحارث (مخزوم)	٢	١	٣
		امرأة مجهولة	٠	١	١
		صفية بنت ربيعة (عبد شمس)	١	٠	١
		أروى بنت أسيد	٠	١	١
٢٧٥ـ٢٧٧	أبو بكر (تيـم)	قتيلة بنت عبد العزى (حِسْل)	١	١	٢
		أم رومان (عبد شمس)	١	١	٢
		أسماء ابنة عُميس (خثعم)	١	٠	١
		حبيبة ابنة خارجة (خزرج)	٠	١	١
٣١٢	أبو جهـل بن هشام (مخزوم)	بنت عُمَيْر بن معبد (زرارة)	٢	٠	٢
		عائشة بنت الحارث (عبس)	١	٠	١
		أروى بنت أبي العيص (عبدشمس)	٠	٤	٤
٣٧٠	أبو الجهم بن حـذيفـة	أم كلثوم بنت جَرْوَل (خزاعة)	١	٠	١
		خولة بنت القعقاع (زرارة)	١	٠	١
		أميمة بنت الجنيد (كنانة)	١	٠	١
		أم عبدالله بنت الحارث (غسان)	٢	٠	٢
		أمهـات أولاد	٤	٠	٤

رقم الصفحة في النسب	رئيس العائلة	الزوجات وأمهات الأولاد	ذكور	اناث	مجموع
٤٤٣_٤٤٤	أبو همهمة بن عبدالعزى (فهر)	تماضر بنت أبي عمرو بن عبدمناف	٦	٣	٩
٣١٥	أبو أمية بن المغيرة (مخزوم)	عاتكة بنت عبدالمطلب (هاشم)	٢	١	٣
		فتاة من ثقيف	٢	٠	٢
		عاتكة بنت عامر (كنانة)	١	١	٢
		أم ولد	٠	١	١
١٢٣	أبو سفيان بن حرب (عبد شمس)	صفية بنت أبي العاص (عبدشمس)	١	٢	٣
		هند ابنة عتبة (عبد شمس)	٣	٢	٥
		زينب بنت نوفل (كنانة)	١	٠	١
		عاتكة بنت أبي أزيهر (الأزد)	٢	٠	٢
		صفية بنت أبي عمرو (عبدشمس)	١	٢	٣
		لبابة بنت أبي العاص (عبدشمس)	٠	١	١
		فتاة من حارث (حارثية)	٠	١	١
٢٩	علي بن عبدالله بن العباس (هاشم)	العالية بنت عبيدالله (هاشم)	١	٠	١
		أم ولد	٢	٠	٢
		أم ولد	٢	٠	٢
		أم ولد	٥	٠	٥
		أم أبيها بنت عبدالله ابن جعفر ابن أبي طالب	١	١	٢
		امرأة من بني الحريش	١	٠	١
		أمهات أولاد	١٠	١٠	٢٠
٤١ وما يليها	علي بن أبي طالب	فاطمة بنت محمد	٢	٢	٤
		خولة بنت جعفر (حنيفة)	١	٠	١
		الصهباء (يقال اسمها أم حبيب بنت ربيعة من تغلب)	١	١	٢
		أم البنين بنت حزام... بن زهرة الأصح بن ربيعة	٤	٠	٤
		ليلى بنت مسعود (دارم)	١	٠	١
		أسماء ابنة عُمَيْس (خثعم)	١	٠	١
		أم ولد	١	٠	١
		أم سعيد بنت عروة (ثقيف)	٠	٢	٢
		أمهات أولاد	٠	١١	١١

رقم الصفحة في النسب	رئيس العائلة	الزوجات وامهات الأولاد	ذكور	اناث	مجموع
٤١١	عمرو بن العاص (سهم)	ريطة بنت منبه (سهم)	١	٠	١
		فتاة من بلي	١	٠	١
١٣٤	عنبسة بن أبي سفيان (عبد شمس)	زينب بنت الزبير	١	٢	٣
		أم ولد	١	٠	١
٨٠	جعفر بن أبي طالب	أسماء بنت عميس (خثعم)	٣	٠	٣
٢٤٠_٢٤١	حمزة بن عبدالله بن الزبير (أسد)	هند بنت قطبة (ذبيان)	١	٠	١
		أم ولد	١	٠	١
		أم الخطاب بنت شيبة (الخزرج)	١	٠	١
		أم ولد	١	٠	١
		فاطمة بنت القاسم بنت أبي طالب	١ (٩)	٠	١
١٢١_١٢٣	حرب بن أمية (عبد شمس)	صفية بنت حزن (عامر بن صعصعة)	١	٢	٣
		امرأة من تميم	١	١	٢
		أم قتّال بنت عبدالحارث (زهرة)	٠	١	١
		فاختة بنت عامر (ثقيف)	٢	١	٣
١٥٩_١٦٠	الحكم بن أبي العاص (عبد شمس)	آمنة بن علقمة (كنانة)	٥	٢	٧
		مليكة بنت أوفى (مرة)	٥	٤	٩
		أم النعمان بنت الحارث (ثقيف)	٣	٣	٦
		بنت منبه (ثقيف)	٥	١	٦
		البعيثة بنت هاشم (زهرة)	١	٠	١
		أم ولد	١	٢	٣
٤٤٣	الحارث بن فهر	بنت الحارث بن مالك بن كنانة	٥	٢	٧
		بنت الحارث بن مالك بن النضر ابن كنانة	٥	٢	٧
٣٩٥	الحارث بن مَعْمَر (جُمَح)	قُتيلة بنت مظعون (جُمح)	٣	١	٤
٣٦٥	الحارث بن زهرة بن كلاب	قيلة بنت أبي قيلة	٢	٠	٢
		لبنى بنت أبي سلمة	٢	٠	٢

رقم الصفحة في النسب	رئيس العائلة	الزوجات وأمهات الأولاد	ذكور	إناث	مجموع
٤٦ وما يليها من صفحات	الحسن بن علي بن أبي طالب	خولة بنت منظور (فزارة)	١	٠	١
		أم بشر بنت عقبة (الأنصار)	١	١	٢
		أمهات أولاد	٤	٠	٤
		أم اسحاق بنت طلحة (تيم)	١	٠	١
		أمهات أولاد	٠	٤	٤
١٥ـ١٦	هاشم بن عبد مناف	سلمى بنت عامر (الخزرج)	١	١	٢
		أميمة بنت أدّ (قضاعة)	١	٠	١
		قيلة بنت عامر ويقال لها (الجزور) لعظمها (خزاعة)	١	٠	١
		هند بنت عمرو (الخزرج)	٢	٠	٢
		واقدة بنت أبي عدي	٠	٢	٢
		أم عدي بنت حُبيب (ثقيف)	٠	١	١
٣٠١	هشام بن المغيرة (مخزوم)	بنت عثمان بن عبدالله (مخزوم)	١	٠	١
		أسماء بنت مُخَرِّبة (دارم)	٢	٠	٢
		الشفاء بنت خالد (مخزوم)	٣	٠	٣
		ضباعة بنت عامر (قُشَيْر)	١	٠	١
٥٧ وما بعدها	الحسين بن علي	بنت أبي مرّة (سعد)	١	٠	١
		أم ولد	١	٠	١
		امرأة من بكيّ	١	٠	١
		الرباب بنت امرىء القيس (كعب)	١	١	٢
		أم اسحاق بنت طلحة (تيم)	٠	١	١
١٢٧ـ١٢٨	معاوية بن أبي سفيان	ميسون بنت بَحْدل (كلب؟)	١	٠	١
		فاختة بنت قَرَظة (عبد مناف)	١	١	٢
		كنود بنت قرظة (أخت فاختة)	٠	١	١
		أم ولد	٠	١	١
٢١ـ٢٢	محمد رسول الله (ﷺ)	خديجة بنت خويلد (عبد عزى)	٢	٤	٦
		مارية	١	٠	١
		زوجاته الأخريات	٠	٠	٠

رقم الصفحة في النسب	رئيس العائلة	الزوجات وأمهات الأولاد	ذكور	اناث	مجموع
٧٥ـ٧٦	محمد بن علي بن أبي طالب	أم ولد	٤	٠	٤
		جمال بنت قيس (عبد مناف)	١	٠	١
		الشهباء بنت عبدالرحمن (أسد)	٢	٤	٦
		مسرعة بنت عبّاد (مازن)	١	٠	١
		أم جعفر بنت محمد . . . بن أبي طالب	٢	٠	٢
٢٤٩	مصعب بن الزبير (أسد)	فاطمة بنت عبدالله (أسد)	٢	٠	٢
		ام ولد	١	٠	١
		أمهات أولاد	٥	٠	٥
١٧٤ـ١٧٥	سعيد بن العاص بن أمية (عبد شمس)	صفية بنت المغيرة (مخزوم)	٥	٠	٥
		هند بنت المغيرة (مخزوم)	٢	١	٣
		أم خالد بنت خُبّاب (بكر)	١	٠	١
١٧٦ وما يليها	سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص (عبد شمس)	أم البنين بنت الحكم (عبدشمس)	٢	٠	٢
		أم حبيب بنت حُبَيْر (عدي)	١	٠	١
		العالية بنت سلمه (سعدالعشيرة)	١	٠	١
		امرأة من بني كنانة	١	٠	١
		أم عمرو بنت عثمان بن عفان	٣	١	٤
		أم سلمة بنت حبيب (كلاب)	١	٠	١
		مريم بنت عثمان بن عفان	١	٠	١
		أم ولد	١	٠	١
		أم ولد	١	١	٢
		بنت سَلَمة بن قيس	١	٠	١
		عائشة بنت جرير (بجلة)	١	١	٢
		أمهات أولاد	٠	٦ +	٦ +
٤٠٨	سُعَيْد بن سهم (سهم)	عاتكة بنت عبدالعزّى	٣	٤	٧
		الخزاعية	٠	١	١
٢٥١	طلحة بن أبي طلحة (عبد الدار)	سلافة الصغرى بنت سعد (أوس)	٤	٠	٤
		مريم بنت عبدالله (سعد بن ليث)	١	٠	١

رقم الصفحة في النسب	رئيس العائلة	الزوجات وامهات الأولاد	ذكور	اناث	مجموع
٢٨١ وما بعدها	طلحة بن عبيدالله (تيم)	حمنة بنت جحش (أسد)	٢	٠	٢
		خولة بنت القعقاع	١	٠	١
		أم ابان ابنة عتبة (عبد شمس)	٣	٠	٣
		الجَرْباء (طيء)	١	١	٢
		أم كلثوم بنت أبي بكر	١	١	٢
		سُعْدى بنت عوف (مرّة)	٢	٠	٢
٢٤٨ وما بعدها	عمر بن الخطاب (عدي)	زينب بنت مظعون (جُمح)	٢	١	٣
		أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب	١	١	٢
		أم كلثوم بنت جرول (خزاعة)	٢	٠	٢
		جميلة بنت ثابت (الأنصار)	١	٠	١
		أم ولد	١	١	٢
		أم ولد	١	١	٢
		عاتكة بنت زيد (عدي)	١	٠	١
		أم حكيم بنت الحارث (مخزوم)	٠	١	١
		سُعيدة بنت رافع (الأنصار)	١	٠	١
١٠٤	عثمان بن عفان (عبد شمس)	رقية بنت النبي (ﷺ)	١	٠	١
		فاختة بنت غزوان (ثقيف)	١	٠	١
		أم عمرو بنت جُندَب (ازد)	٤	١	٥
		فاطمة بنت الوليد (مخزوم)	٢	١	٣
		أم البنين بنت عيينة (فزارة)	١	٠	١
		رملة بنت شيبة (عبد شمس)	٠	٣	٣
		نائلة بنت الفرافصة	٠	٣	٣
١٦٥	الوليد بن عبدالملك	أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان	٢	١	٣
		أم عبدالله بنت عبدالله بن عمرو ابن عثمان	١	٠	١
		أمهات أولاد	١٤	٠	١٤

رقم الصفحة في النسب	رئيس العائلة	الزوجات وأمهات الأولاد	ذكور	اناث	مجموع
٣٢٠ وما يليها	الوليد بن المغيرة (مخزوم)	عصماء بنت الحارث (هلال)	١	٠	١
		حنتمة بنت شيطان (عبد مناة)	٢	١	٣
		بنت هلال (عبد شمس)	١	٠	١
		أميمة أو عاتكة بنت حرملة (قسر)	٢	٠	٢
٣٦٣	زيد بن الخطاب (عدي)	لبابة بنت أبي لبابة (أنصار)	١	٠	١
٢٣٦، ٢٧٦، ٣٨٥	الزبير بن العوام (أسد)	أسماء بنت أبي بكر	٤	٠	٤
		الرباب بنت أنيف (كلب)	٢	١	٣
		أم خالد بنت خالد (عبد شمس)	٢	٠	٢
		زينب بنت بشر (قيس)	٢	٠	٢
		أم كلثوم بنت عقبة (عبدشمس)	٠	١	١
		الحلال بنت قيس (أسد)	٠	١	١
		عاتكة بنت زيد	٠	٠	٠

واذا لم يكن ثمة خطأ فان أكثر الناس نسلاً فيمن ذكر هو علي بن عبدالله بن عباس اذ كان له (٣٣ ولداً : ٢٢ صبياً و ١١ بنتاً) أتى بعده الحكم بن أبي العاص (٣٢ : ٢٠ صبياً و ١٢ بنتاً) ، عبدالرحمن بن الحارث (٣١ : ١٣ + ١٨) ، علي بن أبي طالب (٢٨ : ١٢ + ١٦) ، عبدالله بن جعفر بن أبي طالب (٢٤ : ١٨ + ٦) ، سعيد بن العاص (٢٣ : ١٤ + ٩ ولكن هذا الرقم ناقص) ، عبدالله بن عمر بن الخطاب (١٩ : ١٥ + ٤)، عبد المطلب (١٨ : ١٢ + ٦) ، الوليد بن عبدالملك (١٨ : ١٧ + ١) ، عثمان بن عفان (١٧ : ٩ + ٨) ، عبدالله بن عمرو بن عثمان (١٦ : ٧ + ٩)، أبو سفيان (١٦ : ٨ + ٨) ، عبدالرحمن بن عوف (١٦ : ١٤ + ٢) ، عمر بن الخطاب (١٥ : ١١ + ٤) ، الحارث بن فهر (١٤ : ١٠ + ٤) الخ ٠٠

فرجل أبيح له أن يمارس تعدد الزوجات في وقت واحد أو بشكل متتابع وأن يحظى من الاماء بالقدر الذي يشاء ، ويكون له ٣٣ ولداً فقط ، لا يدعو الى الدهشة بل هو حصيلة متواضعة ، لما كان يتاح للنبلاء الأغنياء ، اذ ما كان لهم أكثر بكثير· فالحكم بن أبي العاص كان له ٢٨ ولداً (١٨ + ١٠) وأربع زوجات فقط (اثنتان منهن ثقفيتان) فالأسر الكثيرة العدد كانت قليلة نسبياً ·

ان الجدول السابق يزودنا بمشعرات مهمة وان كانت سلبية حول نسبة الذكور الى الاناث · أول الأمر يبدو قليل الاحتمال أن لا يكون لعبدالله بن الزبير أية بنت الى جانب

(١٢) صبياً ، ولا عند عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب أو عند أبي جهم ولكل منهما صبيان ، ولا عند مصعب الذي له ثمانية ، ولا عند هشام بن المغيرة الذي له سبعة الخ... ولا أن يكون للوليد بن عبدالملك بنت واحدة فقط الى جانب ١٧ صبياً . ان هذه الارقام يجب أن تقبل بكثير من التحفظ الحذر والحيطة ، ومع ذلك فعندما تحفز مكانة الأب العالية المؤلف واضع الترجمة على الرغبة في استيفاء عدد الأولاد تغدو بنية الأسرة أكثر توازناً ، ولهذا نجد ذرية الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين تدخل في القاعدة الديمغرافية العامة وهي نصيب من التوازن بين عدد الأولاد الاناث والذكور ونجد للأئمة الخمسة الذين قادوا الجماعة الاسلامية ما يلي من الأولاد :

النبي (ﷺ)	:	٣ صبيان	+	٤ بنات	=	٧ أولاد .
أبو بكر	:	٣ صبيان	+	٣ بنات	=	٦ أولاد .
عمر	:	١١ صبياً	+	٤ بنات	=	١٥ ولداً .
عثمان	:	٩ صبيان	+	٨ بنات	=	١٧ ولداً .
علي	:	١٢ صبياً	+	١٦ بنتاً	=	٢٨ ولداً .

يكون المجموع ٣٨ صبياً + ٣٥ بنتاً = ٧٣ ولداً .

أي ١٠٨ صبياً مقابل ١٠٠ بنت وبذلك نبعد عن النسب المفرطة السالفة ونقترب مما هو متعارف في علم السكان .

واذا جمعنا الرجال والنساء والأولاد المذكورين في الجدول السابق وأسقطنا من حسابنا الاماء ونسلهم ولم نتعرض لذكر النبي (عليه الصلاة والسلام) يكون لدينا النتائج التالية :

لـ ٤٩ رجلاً : ١٨٤ امرأة و ٣١٥ صبياً و ١٤١ بنتاً ، المجموع ٤٥٦ ولداً ، فيكون نصيب كل رجل ٣,٧٥ زوجة و ٦,٤٢ صبياً و ٢,٨٨ بنتاً ، أي ٩,٣٠ ولداً . ونصيب كل امرأة ١,٧١ صبياً و ٠,٧٦ بنتاً ، أي ٢,٤٧ ولداً . ويكون للأسر التي يشيع فيها تعدد الزوجات بشكل واسع ٢٢٣ صبياً مقابل ١٠٠ بنت .

وقبل أن نتناول هذه الأرقام بالمناقشة لن يكون عديم الجدوى الاشارة الى بعض الملاحظات حول هذا الجدول لأنها قد تخدمنا فيما بعد .

يعدد كتاب المحبّر (ص ٣٥٧) أسماء رجال كان عند كل منهم عشر نسوة عندما جاء الاسلام ، وهم كلهم من ثقيف . ويبدو أن هذا العدد لم نجده عند قريش ، وفي وجهة النظر هذه لا يقدم كتاب نسب قريش معلومات مفيدة ، والأفضل في هذا الشأن أن نلجأ الى تصفح كتب الطبقات أو كتب تراجم الصحابة مثل الاصابة (النساء رقم ٧٠١) اذ يروي أن صفوان بن أمية كان له ستة زوجات خضع للأوامر القرآنية فطلق أولاً أم وهب بنت

أبي أمية وكانت قد أسنَّت ثم « فرق الاسلام بينه وبين فاختة بنت الأسود وكان أبوه تزوجها فخلف هو عليها » ولا بد أنها آمنت فيما بعد ، ومثل هذه الروايات متعدد وربما من المهم دراستها .

في مقابل ذلك نعرف أن بعض المسلمين كانوا يرغبون في التبتل والعزوبة الارادية ، وقد قاوم النبي (ﷺ) هذه الرغبة فيهم . مثلاً عثمان بن مظعون (نسب قريش ، ص ٣٩٣) وظهر مثل هذا الميل في أوساط أخرى ولم يرضَ الدين عنه اذ يفضي الى تناقص المجتمع وتعبير (لم يعقب) الذي يلي بعض الأسماء يتضمن في بعض الحالات على الاقل لوناً من ايثار العزوبة أو الأبولة . ينطبق ذلك على ورقة بن نوفل (نسب قريش، ص ٢٠٧) وسلوكه حتى قبل الاسلام اذ ورد في النسب : « فأما ورقة بن نوفل فلم يعقب وكان قد كره عبادة الأوثان وطلب الدين في الآفاق وقرأ الكتب » .

واذا اعتمدنا كتاب نسب قريش رأينا أن تعدد الزوجات في وقت واحد أو في أوقات متتابعة لم يكن منتشراً بالشكل الذي توحي به الجداول السابقة بل ان كثيراً من الأسر كان الزواج فيها قائماً على وحدانية الزوجة ، وذلك بحسب حال الزوج وحبه لزوجته أو لظروف خاصة أو بسبب موت مبكر ، كما كانت الحالة مع عبدالله بن عبدالمطلب الذي لم يكن له سوى زوجة واحدة هي آمنة بنت وهب وولد واحد هو النبي (ﷺ) (نسب قريش ص ٢٠) . نذكر أيضاً حالة أبي هممة واسمه عمرو بن عبدالعزى كانت له زوجة واحدة ولدت له تسعة أولاد ، وجرت أسرته على وحدانية الزوجة الواحدة (نسب قريش ، ص ٤٤٣) كما هو مبين في الجدول التالي :

الزوج	الزوجة	ذكر	أنثى	مجموع
وديعة بن الحارث بن فهر	عميرة بنت الأحمر	٤	٠	٤
عميرة بن وديعة	عميرة بنت عوف	٥	١	٦
عامرة بن عميرة	هند بنت عبدالله	٨	٠	٨
عبدالعزى بن عامرة	قلابة بنت عبد مناف	٤	٠	٤
أبو هممة	تماضر	٦	٣	٩

(جملة الأبناء ٣١ بينهم ٤ اناث فقط !) .

فشخص مثل عبدالله بن عباس لم يتزوج سوى امرأة واحدة (نسب قريش ، ص ٢٨) . ولدت له ٧ أولاد يبدو مثلاً مميزاً في اتجاه المسلمين الأتقياء الذين يعتبرون تعدد الزوجات من آثار الجاهلية .

ولكن حتى قبل الاسلام لم يكن لبعض النبلاء البارزين سوى زوجة واحدة أو زوجتين كالحارث بن فهر الذي كان له ١٤ ولداً من زوجتين فقط . ثم هنالك حالات لا يمكن ايضاحها اذ يتعذر معرفة عدد الزوجات في وقت واحد عند المتزوجين من

آكثر من واحدة مثل : عبدالرحمن بن عوف(١٢ زواجاً) ، سعيد بن العاص (٩ عقود زواج) ، أبو سفيان والخلفاء عمر وعثمان وعلي (سبعة) • وأغلب الظن أن كل واحد منهم كان عنده ٤ زوجات باستمرار ولكننا لا نعرف الأمور بدقة ووضوح بل ان المعلومات غير كافية في هذا المجال الا حين تكون الزوجتان اختين في زمنين مختلفين (عبدالله بن جعفر ، عبدالله بن الزبير ، أبو سفيان ، معاوية • الخ) وسنرى أن لهذه المسألة أهمية تعين على حل بعض المشكلات •

دور الاماء يجب أن يكون موضوع بحث وتمحيص أيضاً ، فهن يذكرن أحيانا بأسمائهن ولكن في أغلب الأحيان يكن مغفلات الأسماء وعلى العموم لا يقدَّرن حقَّ قدرهن الا اذا صرن أمهات أولاد • نضرب مثلاً على حب الاماء ، علي بن عبدالله بن عباس فقد خرج على عرف أبيه فولد له ١٠ صبيان و ١٠ بنات من امائه ، وعبدالملك ولدت له اماؤه ١٤ طفلاً ذكراً ، الخ ... يوجد هنا عامل زيادة السكان الذي ينبغي أن يوضع في الحسبان لو كانت المعلومات المتوافرة أكثر دقة •

ومن جهة أخرى ، وبالرغم من بعض الغموض الذي نجده في كتاب نسب قريش ، فانه يقدم لنا جداول أنساب جد مفيدة يمكن أن ترتب وتزودنا بدلالات سمينة عن بنية بعض الأسر النبيلة ، وعن اختيار القرين أو القرينة(١٠) وعن العدد النسبي للاماء ، وعن مصير الأرامل أو المطلقات(١١) وضرباً للمثل جمعنا في الجدول التالي الدلالات التي نملكها عن أسرة أحد السادة النبلاء المخصبين وهو عبدالرحمن(١٢) بن الحارث بن هشام بن المغيرة (المخزومي) (نسب قريش ، صفحة ٣٠٣) :

الزوجات	الأولاد	مناكح الأولاد
فاختة	أبو بكر	
	عمر	
	عثمان	
	عكرمة	بنت عمر بن عبدالله بن معمر
	خالد	
	محمد	
	حنتمة	عبدالله بن الزبير
	أم حجير	١ ــ عبدالله بن معاوية (عبد شمس)
		٢ ــ الوليد بن عتبة (عبد شمس)
		٣ ــ الحارث بن عبدالله (مخزوم)
	أم حكيم	١ ــ هشام بن العاص (مخزوم)
		٢ ــ الأزرق الهبرزي (مخزوم)
	سودة	يحيى بن طلحة بن عبيدالله (تيم)
	رملة	١ ــ محمد بن اسماعيل (مخزوم)
		٢ ــ عبدالحميد بن عبدالله (مخزوم)

الزوجات	الأولاد	مناكح الاولاد
أم حسن	عياش	
	عاتكة	عبدالله بن عبدالله بن أمية (مخزوم)
	أسماء	عبدالله بن عمرو بن عثمان
	عائشة	١ ـ معاوية بن أبي سفيان
		٢ ـ عبدالله بن أبي عمرو (مخزوم)
		٣ ـ عباد بن عبدالله بن الزبير
	أم سعيد	ابان بن عثمان بن عفان (عبد شمس)
	أم كلثوم	أبو بكر بن عبيدالله بن عمر (عدي)
	أم الزبير	هاشم بن عبدالله بن الزبير
سعدى	المغيرة(١٣)	
	زينب(١٤)	١ ـ ابان بن مروان بن الحكم
		٢ ـ يحيى بن الحكم (عبد شمس)
	ريطة	عبدالله بن الزبير
	حفصة	عباد بن عبدالله بن الزبير
	فاطمة	المهاجر بن خالد (مخزوم)
أم رسن	السيد	
	الوليد	
	أم سلمة	١ ـ سعيد بن العاص (عبد شمس)
		٢ ـ الأزرق الهبرزي (مخزوم)
	قريبة	مصعب بن عبدالله (مخزوم)
مريم أمهات أولاد	مريم	بقيت عازبة
	سلمة	
	عبيدالله	
	هشام	

ندع للقارىء مهمة شرح هذا الجدول ليعود مرة جديدة الى معدل الولادات ان الأرقام الجزئية التي حصلنا عليها أثناء أبحاثنا عن خصب النساء هي التالية :

٧٠٠ امرأة ولد لهن ١٣٢٧ صبياً (١,٨٩) + ٣٩٩ بنتاً (٠,٥٧) = ١٧٢٦ (٢,٤٦).

٥٠ امرأة شديدة الخصب ولد لهن ٢٢٣ صبياً (٤,٤٦) + ١١٧ بنتاً (٢,٣٤) = ٣٤٠ (٦,٨٠).

٢٧ امرأة تزوجن عدة مرات ولد لهن ٦٧ صبياً (٢,٤٨) + ٣٥ بنتاً (١,٢٩) = ١٠٢ (٣,٧٧).

١٨٤ من نساء ازواج متعددي الزوجات ولد لهن ٣١٥ صبياً (١,٧١) + ١٤١ بنتاً (٠,٧٦) = ٤٥٦ (٢,٤٧).

فتكون النسب المئوية للصبيان الى البنات هي على التوالي :

١٠٠/٣٣٢ ١٠٠/١٩٠ ١٠٠/١٧٧ ١٠٠/٢٢٣

ومع ذلك رأينا أن النبي (ﷺ) والخلفاء الراشدين الأربع كان لهم ٣٨ صبياً مقابل ٣٥ بنتاً ، أي ١٠٨/١٠٠ ، تلك الأرقام السالفة اذن أمر فيه نظر ٠

وبالاعتماد على نتائج هذا الجرد نجد أن خصب ٧٠٠ امرأة وخصب ١٨٤ المتزوجات مرة أو عدة مرات ، هو واحد في الحالتين أي ٢,٥ تقريباً ولكن نسبة الصبيان الى البنات تزيد حتماً حتى انها تتضاعف وسنحاول أن نقوم بالاستدلال التالي :

كانت الأرقام المتعلقة بالمواليد الذكور تشف عن الواقع تقريباً ، ولما كنا نعرف من جهة أخرى أن عدد الاناث في المجتمعات يناهز عدد الذكور ، لزم أن ٧٠٠ الامرأة لم تلد ٣٩٩ أنثى فقط بل على الأقل ١٣٠٠ بنت وهذا يفضي الى خصب أنثوي يعادل ٣,٧٥ ، وهي نسبة قريبة من تلك التي حصلنا عليها من احصاء أولاد النساء اللواتي تزوجن عدة مرات أي ٣,٧٧ ٠

ومع ذلك فان مثل هذا الاستدلال قد يؤدي بنا الى نتائج خاطئة اذ لا شيء يثبت لنا أن العدد الناقص من البنات ولدتهن أمهات غير مذكورات في نسب قريش ٠

لنحتفظ الآن مؤقتاً بالرقم الوسطي ٢,٥ ولنر اذا كان بالامكان اكتشاف طريقة للحساب في المجتمعات التي يوجد فيها أحوال مدنية وتعددات احصائية يكون الحساب سهلاً اذ يكفي أن نحسب في سنة مسماة مجموع المواليد ونقسمها على عدد السكان لنعرف معدل المواليد ٠

ثم ان نسبة الزيادة تحصل عليها بعملية سهلة :

المواليد ــ الوفيات ± المهاجرين في اتجاهين ٠

وكل ذلك مقسوم على عدد السكان ٠

ولما كنا لا نعرف للقرشيين في عهد النبي لا العدد السنوي للمواليد ولا للوفيات ولا عدد السكان فانها مخاطرة أن نحسب نسبة المواليد أو الزيادة ومع ذلك فليس الحساب بالمستحيل ٠

وفي الواقع اذا عرفنا كم طفلاً ولد وسطياً في كل أسرة ، أي اذا عرفنا المعدل الوسطي لخصب الرجال والنساء أمكن أن نكتفي بتقسيم هذا الرقم على المدة المتوسطة للعمر أي الأجل المتوسط، ونضرب الحاصل بـ ١٠٠ لنحصل على المعدل المئوي السنوي للمواليد بالنسبة للأسر ٠ واذا قسمناه على ٢ اذ ثمة أبوان (أم وأب) نحصل على المعدل الوسطي للمواليد في مجتمع معين ٠

لنفرض أن كل أسرة عندها خمسة أولاد ، وان المدة المتوسطة للعمر ٥٠ عاماً فيكون

$$\text{معدل المواليد السنوي} \; \frac{٥ \times ١٠٠}{٥٠} \; \text{بالنسبة للأسر، أي هو} = \frac{٥ \times ١٠٠}{٥٠ \times ٢} = ٥\% \; \text{في ذلك}$$

المجتمع المعين ·

لكي نحسب بعد ذلك معدل الزيادة (دون أن نحصي المهاجرين الذين لا يدخلون على أية حال في القبائل العربية الا بصفة رقيق أو موالي) يكفي أن نطرح الرقم (٢) من عدد الأولاد (أي حذف الأبوين) في المثل السابق فتكون الزيادة الكلية(١٥) في المدة المتوسطة

$$\text{للعمر} \left(\frac{١٠٠ \times (٥-٢)}{٢} \right) = ١٥٠ \; \text{في المئة والمعدل السنوي هو} \; \frac{١٥٠}{٥٠} = ٣\% \; ·$$

وبالجملة فان هذين المعدلين يطابقان تماماً الصيغتين :

$$\text{معدل المواليد السنوي} = \frac{د \times ١٠٠}{٢ \times ت} \; ·$$

د عدد الأولاد و ت مدة التعمير المتوسطة أو الأجل المتوسط ·

$$\text{الزيادة الكلية} = \frac{١٠٠ \; (د-٢)}{٢ت} \; ·$$

ان الاستدلال السابق نافع في مجتمع يسود فيه الزواج من زوجة واحدة · أما مع تعدد الزوجات فالمشكلة تتعقد الى حد بعيد بالاضافة الى أن مدة التعمير المتوسطة أو الأجل المتوسط في ذلك الوقت عند العرب غير معروف مطلقاً ، لنعتبر أنه كان ٤٠ سنة(١٦) وهو من باب الفرض ·

ومع أن العمر الوسطي للزواج الأول ومدة الخصب لم تدخلا في الحساب فلا يجوز أن نغفلهما تماماً لأنهما يتيحان فهم الفروق التي سنجدها ·

ان اصرار كتاب التراجم على أن عائشة كانت في السادسة من عمرها عندما عقد عليها الرسول ، وفي التاسعة عندما تزوجها تثبت أن أمثال هذا الزواج المبكر كان أمراً وارداً · عمر الفتاة اذن عند الزواج الأول ١٢ ، ١٣ عاماً ، وعمر الفتى ١٥ ، ١٦ عمران مألوفان طبيعيان في ذلك الوقت ·

ومدة الخصب عند النساء في بعض الحالات تتجاوز بالتأكيد ٣٠ سنة · فخديجة بنت خويلد كانت تقارب الخمسين حين والدت للرسول بنتهما (رقية) (نسب قريش، ص٢١)· وفاطمة بنت أسد بن هاشم (نسب قريش ، ص ٣٩-٤٠) تزوجت أبا طالب وولدت عدا بنتين أربعة صبيان في مدة عشر سنوات بين الولادات · وذلك يشير الى أن مدة خصبها جاوزت ٣٠ سنة قمرية ·

لا نمتلك معلومات أخرى من هذا النوع ولكن الخصب لا يعني بالضرورة ولادة، وربما كان معظم النساء يُهْمَلْن حين يناهزن الأربعين · وفي أفضل الفروض يمكن تحديد مدة الخصب عند النساء حوالي ٢٠_٢٥ على الأقل ، وقد يمكن نقصها الى ١٠_١٥ في معظم الحالات ، ولكن بسبب تعدد الزواج المتتابع يظل الرجال مخصبين مدة طويلة قد تبلغ ٤٠ سنة ، ولكن يجب أن ننقص هذه الفترة الى ٢٥ سنة اذا فكرنا في الوفيات المبكرة والحوادث والحروب ، وتكون أطول من مدة خصب النساء بما يقدر ب ١,٧ مرة ·

ولما كان الأمر كذلك فاني حاولت أن أبعد من ذهني هذه المشكلة التي تطرحها (الاناث) مقرراً ألا أؤسس حساباتي الا على الذكور قائلاً لنفسي انه يمكن بعد ذلك مطابقة الارقام المتحصلة ·

اذا سلمنا بانه ولد ١,٩٠ صبياً لكل امرأة خلال ٤٠ سنة يكون معدل المواليد الذكور يساوي

$$\frac{١,٩٠ \times ١٠٠}{٤٠} = ٤,٧٥٪$$

بالنسبة الى النساء · ان احصاء أبناء ٣٥٠ رجلاً كان حاصله ١١٧٨ صبياً بمعدل ٣,٣٦ ومعدل مواليد سنوي يبلغ

$$\frac{٣,٣٦ \times ١٠٠}{٤٠} = ٨,٤٪$$

بالنسبة الى الرجال · الفرق سببه تعدد الزوجات · واذا تذكرنا أن ٧٠٠ امرأة ولدن ١٣٢٧ صبياً بينما ٣٥٠ رجلاً كان لهم ١١٧٨ تحققنا أن لولادة ١٠٠٠ مولود صبي يلزم ٥٢٧ امرأة و ٢٩٧ رجلاً وهذا يدل على :

أ ــ أن كل قرشي كان له وسطياً ١,٧٧ امرأة · وهو رقم معقول يطابق فرضاً نسبة مدة خصب الرجال الى مدة خصب النساء تقريباً :

$$\frac{٤٠}{٢٢,٥} = ١,٧٧$$

وهذه نتيجة ذات أهمية بالنسبة الى بقية الحساب ·

ب ــ اذا كان ٥٢٧ من النساء و ٢٩٧ من الرجال ، أي ما مجموعه ٨٢٤ شخصاً ولدوا ١٠٠٠ صبي في مدة تعميرهم (التي نفرضها هنا للجنسين ٤٠ سنة) فمعنى ذلك أنه يولد سنوياً :

$$\frac{١٠٠٠ \times ١٠٠}{٨٢٤ \times ٤٠} = ٣٪$$

تقريباً من الذكور في مجموع السكان · ونلاحظ أنه يوجد في الحساب رقم واحد أخذناه تعسفاً واعتباطاً هو مدة الأجل المتوسط التي يمكن أن نجتهد لمعرفتها بدقة بمزيد من الأبحاث ·

واذا استطعنا الآن أن نحصل على أرقام أكثر يقيناً عن المواليد البنات يمكن أن نتقدم شوطاً لا بأس به ٠

حتى لو ادخلنا في اعتبارنا الزواج من خارج القبيلة وهو ما كان يقوم به بعض الرجال فان من المؤكد أن عدد النساء أكثر من الرجال وتعدد الزوجات المتتالي يتيح للرجال أن يتزوجوا من جيلين من النساء (اذا لم يكن من أكثر) آلى جانب التسري(١٧) وربما كان من المناسب أن ندخل في الحساب مدة الخصب النسبية عند الرجال والنساء ، ولكن يكون الأمر أبسط اذا زدنا بحيطة معدل الخصب فجعلناها للنساء ٣,١ وللرجال ٥,٥ ٠

$$\frac{٥,٥}{٣,١} = ١,٧٧ \cdot$$

ويكون معدل المواليد المتوسط السنوي للنساء فقط $= \frac{١٠٠ \times ٣,١}{٤٠} = ٧,٥\% \cdot$

ويكون للرجال فقط $= \frac{١٠٠ \times ٥,٥}{٤٠} = ١٣,٧٥\% \cdot$

ولكن من المناسب أن نحسب ذلك في مجموع السكان بواسطة الصيغ التالية :
خ = الخصب ع = عدد الزوجات مو = معدل المواليد ت = الأجل المتوسط ٠
اذا انطلقنا من النساء يكون لدينا :

$$\text{مو} = \frac{١٠٠ \text{ خ}}{\text{ت} \left(١ + \frac{١}{\text{ع}}\right)}$$

واذا انطلقنا من الرجال يكون لدينا :

$$\text{مو} = \frac{١٠٠ \text{ خ}}{\text{ت} (١ + \text{ع})}$$

في الحالة الأولى $\frac{١٠٠ \times ٣,١}{٤٠ \times ١,٥} = ٠٥\%$ تقريبا (ع = ١,٧٧) ٠

وفي الحالة الثانية $\frac{١٠٠ \times ٥,٥}{٤٠ \times ٢,٧٧} = ٥\%$ تقريبا ٠

وهكذا يكون معدل المواليد ٥٪ وهو معدل مقبول وطبيعي ، واذا أردنا الآن أن نقدر

الزيادة السنوية لقريش لا تطبق الصيغة الحسابية التي استخلصناها آنفاً لمجتمع وحداني الزوج والزوجة وهي :

$$\frac{١٠٠\,(\text{د}-٢)}{٢ \times \text{ت}}$$

ولكننا نستطيع أن نستبدل بالرقم ٢ القوس (١ + ع) حيث ع هنا تدل على عدد الأزواج ان اعتمدنا على ذرية المرأة الواحدة التي تزوجت عدة مرات الا أن هذا التبديل لن يكون ذا فائدة كبيرة · نؤثر أن نستند الى النساء اللواتي كان أزواجهن متعددي الزوجات وهو الشائع فتصبح الصيغة للزيادة السنوية :

$$\frac{١٠٠\,\left[\text{د} - \left(١ + \frac{١}{\text{ع}}\right)\right]}{\text{ت}\left(١ + \frac{١}{\text{ع}}\right)}$$

وتطبيق هذه الصيغ على الأرقام المقترحة أنفاً يتيح قبول معدل سنوي للزيادة يناهز ٢,٥٪ ان كانت ت تساوي ٤٠ سنة ·

يتحصل مما أسلفنا أن القرشيين كانوا يزدادون زيادة منتظمة على وجه العموم · ومن المؤكد أن العديد من الأسر عرفوا زيادة أكبر بكثير ولا سيما الطالبيون والعباسيون الذين وصل عددهم الى ٣٣٠٠٠ في زمن المأمون · وعلى أية حال فان الرقم ٢,٥٪ يبدو حداً أدنى لأن الأرقام المتعلقة بالولادة تستحق أن تزاد في حين أن مدة تعمير الفرد المتوسطة ، اي الأجل المتوسط ، لا بد أن تكون أقل وسطياً من ٤٠ سنة ·

ومع أن كل ما تقدم ليس الا من باب الفرض ، وأن الأرقام أخذت اعتباطاً لادخال تعدد الزوجات في الحسبان من جهة وعدد البنات المنقوص من جهة أخرى فان التجربة لم تكن عبثاً لأننا نعرف الآن أنه ليس مستحيلاً معرفة العدد الوسطي لزوجات القرشيين وعدد الصبيان الذين ولدنهم ، والنتائج الرقمية تؤلف كما يبدو أساساً جيداً للانطلاق· ثم ان كتاباً مثل نسب قريش يزودنا بمعلومات اجتماعية مهما تكن دقتها فهي ذات نفع في موضوع تعدد الزوجات أو اعادة تزوج الأرامل والمطلقات · ولعل تفصيلاً أكثر منهجية يكون ذا فائدة علمية ·

فاذا أردنا الاعتماد على علم السكان الحديث لزم فرز أسماء جميع الرجال وأسماء نسائهم (اذا كانوا متزوجين) وأولادهم ثم أسماء جميع النساء وأسماء أزواجهن وذرياتهن وأن نصنع بعد ذلك جدولاً يعتمد على مصادر أخرى متعددة ، ثم نعاود الحساب مستندين الى أرقام أكثر دقة وبذلك يمكن أن تثبت أن الدراسات الديمغرافية التاريخية الجدية نسبياً والجديدة يمكن أن يكون أساسها نصوصاً قديمة ليست درجة الدقة والغموض فيها عائقاً يتعذر تجاوزه وتلافيه ·

□ الحواشـي :

١ ـ جاء في النسب : « وكان نكاحا تنكحه الجاهلية فانزل الله تحريمه : (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلاً) سورة النساء ـ ٢١ المترجمة ٠

٢ ـ كان الحسن بن الحسن خطب الى عمه الحسين بن علي فقال له الحسين : يا ابن أخي قد انتظرت هذا منك انطلـق معي ! فخرج به حتى ادخله داره ثم أخـرج اليه بنتيـه فاطمـةوسكينة فقال : اختر فاختارفاطمة فزوجه اياها ٠٠ فكان يقال : ان امراة (مردودتها) سكينة لمنقطعة (القرين في) الحسنفلما حضرت الحسن الوفاة قال لفاطمة : « انك امراة مرغوب فيك ! فكاني بعبد الله بن عمرو بن عثمان اذا خرج بجنازتي قد جاء على فرس مرجلا جمته لابسا حلته يسـير في جانب الناس يتعرض لك فانكحي من شئت سواه : فاني لا ادع من الدنيا ورائي هما غيرك » قالت له : « انت آمن من ذلك » واثلجته بالايمان من العتق والصدقة لا تزوجته ٠ ومات الحسن بن الحسن وخرج بجنازته فوافاه عبد الله بن عمرو في الحال التي وصف الحسن وكان يقال لعبد الله «المطرف» من حسنه فنظر الى فاطمة حاسرة تضرب وجهها فارسل لهـا : « ان لنا في وجهك (حاجة) فارفقي (به) ! ٠٠ فاسترخت يداها وعرف ذلك فيها وخمّرت وجهها فلما حلت ارسـل يخطبها فقالت : كيف بيميني التي حلفت بها ؟ فارسـل اليها : « لك مكان كل مملوك مملوكان ومكان كل شيء شيئان ، فعوضها عن يمينها فنكحتـه » النسب ص ٥١ ـ ٥٢ ـ المترجمة

٣ ـ كرر المؤلف هذا الاسم مرتين ـ المترجمة ٠

٤ ـ في المحبر تزوجت أسماء أولا جعفر بن ابي طالب ثم ابابكر ثم علي ـ المترجمة ٠

٥ ـ كانت عاتكة هذه عند عبد الله بن ابي بكر وكان معجبـا بها وكان قد شغلته عن ابيه فامره ابوه بطلاقها ثم اتبعتهـا نفسـه فقـال :

ولم ار مثلي طلـق العـام مثلها   ولا مثلهـا في غـير جرم تطلـق

فقال ابوه : ارتجعها لما راى هواه فيها وفيها يقول أيضا :

يقولون : طلقهـا واصبح مكانهـا   مقيمـا تمني النفس احـلام نائم

وان فـراقـي اهـل بيت جمعتهـم   عـلى كبـر مني لاحـدى العظـائم

اراني واهـلي كالعجـول تروحت   الى بوءهـا قبـل العشـار الروائم

ومات عنها عبد الله اصابه سهم يوم الطائف وهو مـع رسول الله ﷺ فمات منه بالمدينة فقالت عاتكة تبكيه :

واقسـمت لاتنفـك عيني حـزينـة   عليـك ولا ينفـك جـلدي اغبـرا

ثم تزوجت عمر بن الخطاب فدخل علي بن ابي طـالب في بيتها فقال لعمر وعاتكة في خدرها :

اتاذن لي ان ادخل راسي على عاتكة فاكلمها بحاجـة لي؟ قال نعم ٠ فادخل رأسه عليها فانشدها قولها فبكت فقال عمر : ما لها ولك اسالك بالله الا كففت ٠

ثم قتل عنها عمر بن الخطاب فتزوجها الزبير بن العوام فقتل عنها فبكته وقالت :

غـدر ابن جرمـوز بفـارس بهمـه   يوم اللقـاء وكـان غـير معـرّد

يا عمـرو ولو نبهتـه لوجدتـه   لا طائشا رعش السنان ولا اليـد

لله درك ان قتلـت لمسـلمـا   وجبـت عليـك عقـوبة المتعمـد

النسب ص ٢٧٧ وص ٣٦٥ ـ المترجمة

٦ ـ اذا استحال الوصول الى أرقام أكيدة فاننا على الأقل نستخلص من كتاب نسب قريش بعض المعلومات الاجتماعية ، ونكتفي بالاشارة اليها عرضا :

من عديد من الحالات قبل الاسلام تتزوج المرأة على التوالي الأب ثم الابناء :

واقدة بنت أبي عدي (ص ١٥ ، ١٦ في النسب) تزوجت عبد مناف + هاشم بن عبد مناف ٠

حياة بنت جابر (ص ٣٦٤ في النسب) تزوجت نفيل بن عبد العزى (ولدت له صبين) + عمرو بن نفيل (ولدت له صبيا واحد) ٠

امينة بنت أبان (ص ٩٩ في النسب) تزوجت أمية بن عبدشمس (ولدت له ٤ صبيان و ٣ بنات) + أبا عمرو بن أمية (صبي واحد) ٠

ولكن مصعبا يشير الى أن هذا حرمه الاسلام بالآية الواردة في القرآن (٤ ، ٢١ سورة النساء) ٠
وليس نادرا زواج امرأة من اخوين او ثلاثة على التوالي :

أسماء بنت مخربة (ص ٣١٨ من النسب) تزوجت هشام بن المغيرة + أبا ربيعة بن المغيرة ٠

الكاملة بنت زياد (المحبر ص ٤٤٥) تزوجت عتبة + يزيد + عثمان أولاد يزيد بن معاوية ٠

ان السهولة التي كان يتم بها الطلاق والأسف الذي يشعر به المطلقون والمطلقات يدفعانهم الى المراجعة والعودة الى ازواجهم انفسهم خذ مثلا سحيقة بنت محمد وكذلك أم يحيى التي تزوجت ثلاث مرات من ابن عم لها هو الحكم بن يحيى بن عروة ـ المؤلف ٠

٧ ـ عبد الله بن عامر بن كريز : استعمله عثمان على البصرة وعزل ابو موسى الأشعري فقال ابو موسى : قد أتاكم فتى من قريش كريم الأمهات والعمات والخالات ٠٠٠ وكان كثير المناقب وافتتح خراسان وقتل يزداجرد في ولايته وأحرم من نيسابور شكرا لله وهو الذي عمل السقاية بعرفة ويقال انه أتي به الى النبي ﷺ وهو صغير فقال : هذا يشبهنا وجعل ﷺ يتفل عليه ويعوذه فجعل عبد الله يسوغ ريق النبي فقال ﷺ : « انه لمسقى » فكان لا يعالج أرضا الا ظهر له فيها الماء ٠ وله النبّاج (قال ياقوت استنبط ماءه وشقق فيه عيونا وغرس نخلا) وهو مكان قريب من البصرة وله بستان ابن عامر بنخلة أراد معاوية أن يصطفي امواله فقال ابن عامر : قال رسول الله ﷺ من قتل دون ماله فهو شهيد والله لأقاتلنه حتى أقتل دون مالي ٠ فاعرض عنه معاوية وزوجه ابنته هندا بنت معاوية وكانت أبر شيء به وجاءته يوما بالمرآة والمشط وكانت تتولى خدمته بنفسها فنظر في المرآة فالتقى وجهه ووجهها فرأى شبابها وجمالها ورأى الشيب في لحيته قد الحقه بالشيوخ فرفع راسه اليها فقال : الحقي بابيك ٠ فانطلقت حتى دخلت على أبيها فاخبرته فقال : وهل تطلق الحرة ؟ قالت ما أتي من قبلي واخبرته الخبر فارسل اليه ٠ فقال : أكرمتك بابنتي فرددتها علي ! فقال : أخبرك عن ذلك : ان الله منّ علي بفضله وخلقني كريما لا احب ان يتفضل علي أحد ! وان ابنتك أعجزتني مكافاتها بحسن صحبتها لي فنظرت فاذا أنا شيخ وهي شابة لا ازيدها مالا الى مالها ولا شرفا الى شرفها فرأيت أن أردها اليك لتزوجها فتى من فتيانك كان وجهه ورقة مصحف » ٠ (ص ١٤٨ ـ ١٤٩ النسب) ـ المترجمة ٠

٨ ـ ذكر ان عثمان بن عفان وهو خليفة مر بمجلس لبني مخزوم فوقف فسلم عليهم ثم قال : « انه ليعجبني ما أرى من جمالكم ونعمة الله عليكم ! » فقال له بعضهم : «أفلا تزوج بعضنا يا أمير المؤمنين ؟ فنظر الى عبد الرحمن بن الحارث وهو منهم فقال : «ان شاء ذاك (واشار الى عبد الرحمن بن الحارث) زوجته فقال عبد الرحمن : « فاني أشاء » فزوجه مريم بنت عثمان بن عفان (ص ٣٠٨ و ص ١١١ و ١١٢ من النسب) ـ المترجمة ٠

٩ ـ الاصح اثنان وهما أبو بكر ويحيى (النسب ص ٢٤١) ـ المترجمة ٠

١٠ ـ هل كان زواج الاقرباء سائدا ؟ وهل تزوج بعض القرشيين من بنات أعمامه او عماته او بنات اخيه او اخته ٠ وهل كان الزواج من خارج القبيلة معروفا اذ ان الزواج من البدويات لم يكن امرا نادرا ٠ انظر الجداول التي يشار فيها الى أصل القرين او قبيلته ـ المؤلف ٠

١١ـ ثمة نوع من الدوران يتم في مجتمع ما فالى جانب تعدد الزوجات يوجد بالنسبة للنساء تعدد أزواج متتابع ـ المؤلف •

١٢ـ ••• فولد الحارث بن هشام : عبد الرحمن وهو « الشريد » أتي به من الشام بفاختة بنت عتبة بن سهيل بن عمرو ابن عبد شمس ••• ولم يكن بقي من ولد سهيل بن عمرو غيرها فسماهما عمر بن الخطاب « الشريدين » وقال : زوجوا الشريد من الشريدة لعل الله ان ينشر منهما خيرا » فزوج عبد الرحمن بن الحارث فاختة واقطعهما عمر بن الخطاب بالمدينة خطة فاوسعها لهما فقيل : اكثرت لهما يا أمير المؤمنين قال : عسى الله ان ينشر منهما ولدا كثيرا رجالا ونساء• (نسب قريش ص ٣٠٣) ـ المترجمة •

١٣ـ ••• وزعموا أن قوما قعدوا يذكرون الأغنياء من قريش فقال احدهم : المغيرة بن عبد الرحمن • فقال له القوم : وهل لمغيرة من مال ؟ فقال الرجل : اليس له اربع بنات وأربع أخوات ؟ وكان المغيرة يقول : لا ازوج كفؤا الا بالف دينار ! فكان اذا خطب اليه الكفؤ قال له : قد علمت قولي ؟ فيقول له الخاطب : قد علمت وقد احضرت المال فيزوجه ويقبض المال منه ثم يقول له : اختم عليه بخاتمك فاذا ادخل زوجته بعثما يجهزها بما يصلحها ويخدمها خادمين ويدخل بيتها نفقة سنة ، دفع اليها صداقها مختوما بخاتم زوجها ثم يقول لها : « هذا مالك وماجهزناك به صلة منا لك وزوجك اولى بك منا اليوم فاحسني مابينك وبينه »ثم يسلم عليها ويودعها ويقول لها : « انك لن تريني الا في أحد امرين : اما مزدبا لك واما ناقلك من بيتك مطلقة او ميتة » (نسب قريش ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩) ـ المترجمة •

١٤ـ زينب بنت عبد الرحمن هي التي يقول فيها زوجها الثاني يحيى بن الحكم : كعكتان وزينب• وذلك ان عبد الملك بن مروان بعث الى المغيرة بن عبد الرحمن أن يقدم عليه فقدم المغيرة أيلة وبها يحيى بن الحكم فخطب الى المغيرة زينب بنت عبد الرحمن وهي أخت المغيرة لأمه وأبيه وجعل له اربعين الف دينار فزوجه اياها وكان عبد الملك بن مروان حين بعث الى المغيرة انما اراد أن يزوجه زينب فلما قدم المغيرة على عبد الملك خطب اليه زينب فقال له المغيرة : مررت بعمك يحيى بن الحكم فخطبها الي فزوجتها منه ولم اعلم ان لك فيها حاجة فغضب عبد الملك على عمه واخذ كل شيء له فقال يحيى بن الحكم : « كعكتان وزينب » يقول : لا ابالي اذا وجدت كعكتين آكلهما وكانت عندي زينب • وكانت زينب تسمى من حسنها « الموصولة » لأن كل ارب (عضو) منها كانما حسن خلقه ثم وصل الى الارب الآخر • (نسب قريش ص ٣٠٧) ـ المترجمة •

١٥ـ الزيادة الكلية : يصف المؤلف هذه الزيادة بالكلية على حين تدعى في علم السكان بالزيادة الطبيعية فاذا اضيف اليها صافي الهجرة دعيت بالزيادة العامة ـ المترجمة •

١٦ـ سن الأربعين هو سن النضج •

١٧ـ لا نستطيع أن نعد نسل النساء الاماء الذي يشكل زيادة صافية على السكان القرشيين لأنهم لا يدخلون ضمن القبيلة (ولا في الشعب العربي بشكل عام) وان آبا أولاد الاماء يكون له زوجة شرعية واحدة على الأقل •
ومؤلف نسب قريش مصعب يزودنا غالبا بالتفصيلات الضرورية ولكنه يكتفي في كثير من الحالات بالقول ان هؤلاء الأولاد من قريش كانت امهم من امهات الأولاد وبعض الأرقام هنا تكون دون فائدة : ٧٩ أمة اعطت أسيادها ١٢٦ ولدا منهم ٩٩ ذكرا و ٢٧ انثى (٣٧ لم يكن لهن سوى صبي واحد ، ٩ لم يكن لهن سوى بنت واحدة ولكن احداهن كان لها ٥ صبيان واخرى ٤ صبيان والنتان لهما ٣ صبيان وواحدة اخيرة كان لها ٣ صبيان وبنت • فاذا اخذنا هذه الأرقام المذكورة يكون معدل الخصب عند هؤلاء الاماء قريب من ١٫٦٠ لتفترض انه ١٫٢٥ ذكور و ٠٫٢٥ اناث (١٠٠/٥٠٠ !) فهذا يبدو بعيد الاحتمال مع ان موقف الرجال أمام امائهن يختلف عن موقفهم تجاه نسائهم ، وان مولد بنت لهم منهن يكون مدعاة للابتعاد نهائيا عنهن •

★ ★ ★

الخيل في شعر تغلب

« في العصر الجاهلي »

علي أبو زيد

اذا كان العربي بحاجة الى الكلأ والماء ، يسعى وراءهما ، يطوي البيد طياً ، فان حاجته الى الخيل لم تكن باقل من ذلك ، فهي عماد حياته ، ليس للتنقل فحسب ، فهذه غاية قامت الابل مقامها في الغالب ، وانما لشن الغارة ، ورد العدوان ، ولعمري فان هذه عندهم غاية تضارع حاجتهم الى الماء والمرعى ، ففي كلا الأمرين الحياة .

ومن هنا كان اهتمام العرب بخيلهم ، وعنايتهم بتربيتها وحسن اعدادها ،وانبرى الشعراء يذكرونها بأسمائها ، فحمزة بن عبدالمطلب مثلا يذكر فرسه (ورد) مشيراً الى عتقه وكرمه وأنه من بنات ذي العُقّال(١)،فيقول :

ليس عندي الا سلاح و (ورد) قارح من بنات (ذي العُقّال)

اتقي دونه المنايا بنفسي وهو دوني يغشى صدور العوالي

بل ان فرسان العرب قرنوا فروسيتهم بأسماء الخيل في كثير من الأحيان ، فالأخنس ابن شهاب التغلبي « فارس العصا » و «فارس زِيَم(٢) » ٠ وحسان بن حنظلة الطائي « فارس الضُبيب »(٣) ٠ وعامر بن ربيعة بن صعصعة « فارس الضحياء »(٤) ، وفيه يقول أحد الشعراء(٥) :

أبي : فارس الضحياء يوم هُبالة اذا الخيل في القتلى منَ القوم تعثر

والأبيات التي قالها عبيدة بن ربيعة بن قُحفان التميمي في فرسه (سكابِ) هي من أجمل ما عبرت به الشعراء عن حب العربي للخيل ، وتعلقه بها ، ومكانتها في نفسه ، يقول(٦) :

أبيتَ اللعن ان سكابِ ليست   بعِلق يُستعار ولا يباعُ
سليلة سابقين تناجلاها   يضمهما اذا نُسبا الكُراعُ
ففيها عزة من غير نفر   يُحيِّدها اذا مرّ القراع
فلا تطمع ، أبيتَ اللعنَ ، فيها   ومنعُكها بوجهٍ يُستطاع
وكفّي يستقلُّ بحمل سيفي   وهي ممن تهضّمني امتناع
وحولي من بني قُحفان شيبٌ   وشبّان الى الهيجا سِراع

ولم يقف اهتمام الشعراء بالخيل عند هذا الحد، بل راحوا يدققون النظر في أحوالها، فوصفوها أيما وصف ، وتتبعوا دقائق جسدها فصوروها في أشعارهم صوراً تدل على مدى تعلقهم بها ، حتى ان بعض الشعراء قصر شعره ــ أو معظمه ــ على ذكر الخيل ، وتتبُّع أوصافها في جميع أحوالها • وماشعر أبي دواد الايادي ، وطفيل الغنوي وامرىء القيس الكندي ، عنا ببعيد •

ولا غرو اذاً أن يجعل العرب نتاج الخيل احدى المناسبات المهمة التي يقيمون لها الأفراح ، فكانوا « لا يهنئون الا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تُنتَج»(٧) وتفسير ذلك واضح •

ولعلنا نلاحظ أن العرب ساووا الخيل بأنفسهم ، أو كادوا ، فأطلقوا عليها الأسماء، وحفظوا أنسابها ، وذكروا علامات عتقها وكرمها ونجابتها ، ليدلوا على عظم مكانة الخيل عندهم وأهميتها لهم • وقد جُمع عدد غير يسير من الكتب التي انبنت على ذكر أسماء الخيل وأنسابها ، وليس الأمر هنا مرهوناً بصدق ذلك أو كذبه ، وانما بدلالته وما ينبني عليه •

وهذا الكلف بالخيل ــ لضرورة الحياة ــ لم يكن ديدن الجاهليين وحدهم • فالقرآن الكريم يذكر لنا ما كان للخيل من مقام عظيم عند نبيّه سليمان بن داود عليهما السلام ، حتى جعلته يسهو عن أداء الفريضة ــ على أحد الآراء(٨) ــ فقال ، عز من قائل : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أوّاب * اذ عُرض عليه بالعشي الصافناتُ الجياد * فقال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ﴾ [سورة ص: ٣٨/٣٠ــ٣٢] وللخيل ذكر في القرآن الكريم في غير ما آية • وقد أقسم الله تعالى بها فقال: ﴿ والعاديات ضبحاً * فالموريات قدحاً * فالمغيرات صبحاً * فأثرن به نقعاً * فوسطن به جمعاً * ان الانسان لربه لكنود ﴾ [سورة العاديات : ١٠٠/١ــ٦] وجعلها مما يعدّ للعدو ، ويثاب المرء عليه •

وكذلك جعل الرسول الكريم ﷺ الخيل معقوداً بنواصيها الخير (٩) ، وفي ذلك مافيه من دلالة على مكانة الخيل الرفيعة عند العرب، والتي أبقى عليها الاسلام ووجهها توجيهاً سليماً ٠

ويكاد يكون الاهتمام بالخيل عند قبيلة تغلب في العصر الجاهلي أبين وأظهر لأمرين: أولهما : ما عرف عن تغلب من حياة الحرب التي ما كادت نارها تخبو عندهم حتى مجيء الاسلام ، وهذه صفة بارزة فيها ، أدركها القدماء فقالوا : « تغلب الغلباء » ٠ ومن يرجع الى أخبار تغلب في العصر الجاهلي لا يكاد يجد سوى غزوة ، أو وقعة ، أو رد غارة، وظهر ذلك الاهتمام جلياً في شعر شعرائها حتى غدت معظم مطالع قصائدهم تبتدىء بذكر الخيل ، فعمرو بن كلثوم مثلا يبدأ احدى مقطعاته بقوله(١٠) :

جلبنا الخيلَ من كنفي أريك عوابس يطَّلعن من النقاب

ويقول في مطلع أبيات أخرى (١١) :

جلبنا الخيل من جنبي أريك الى القلَعات من أكناف بعر

وأفنون التغلبي يبدأ أبياتاً له فيقول(١٢) :

سمونا الى عُليا هوازن بالقنا وجُرد كأمثال القِداح ضوامر

ويقول الأسود بن عمرو بن كلثوم في مطلع أبيات له(١٣) :

ولقد شهدت الخيل تحمل شكتي عتد أمرّ من السوابح هيكل

وثانيهما : أن بني تغلب من ربيعة الفرس ، فقد كان نصيب ربيعة بن نزار من ارث أبيه فرسه ، فقيل : ربيعة الفرس ، ولا أقل من أن يظهر اهتمام تغلب بارث أبيهم وبشكل جلي ٠

★ ★ ★

ويبدو أن اهتمام أبناء هذه القبيلة بالخيل ، ومنهم الشعراء ، كان اهتمام غاية قبل كل شيء ، ولذلك فاننا لم نجد أحداً من شعراء هذه القبيلة عُرف باكثاره من وصف الخيل ، أو التدقيق في ذلك ٠ كما أننا لم نقف على قصيدة واحدة ــ فيما وصل الينا من شعر تغلب ــ خصها الشاعر لهذه الغاية، وانما جاء ذكر الخيل في أثناء الأبيات ، ودون اطناب ، وبما يخدم ظاهرة الفخر عندهم ٠

ويكاد يكون اهتمام عمرو بن كلثوم بالخيل أكثر من سواه ، لأنه السيد القائم على شؤون القبيلة أولا ، ولأنه الشاعر ، والشاعر الوحيد الذي وصل الينا ديوان شعره مجموعاً ــ فيما أعلم(١٤) ــ ٠ واذا التمسنا لذلك دليلا في شعره ، ألفيناه يعدّ للخيل أثمانها قبل أن يعدّ ذلك لقوتهم اليومي ، فهو يقول(١٥):

فما أبقت الأيامُ م المالِ عندنا سوى جِذمِ أذوادٍ محذّفةِ النسل
ثلاثة أثلاث : فأثمان خيلنـــا ، وأقواتنا ، وما نسوق الى القتلِ

كما انه يجعل الخيل ارثاً عظيماً يحرص الآباء على نقلـه للأبنـاء ، ويفخر الأبنـاء بمحافظتهم عليه ، يقول في المعلقة :

وتحملنـا غـداة الـروع جردٌ عُرفن لنـا نقائذَ وافتَلينـا
وردن دوارعـاً وخرجـن شُعثا كأمثـال الرصائـع قـد بَلينـا
ورثناهـنّ عـن آبـاء صـدقٍ ونورثها ـ اذا متنـا ـ بنينـا

ولذلك ليس غريباً أن يجعل نساء قومه من اللواتي يقمن على شؤون الخيل واطعامها، مبالغة في الاهتمام بها ، فيقول :

علـى آثارنـا بيـض كـرام نحاذر أن تفـارق أو تهونـا
يقتـن جيادنا ، ويقلـن لستـم بعولتنـا اذا لـم تمنعونـا

« ويقال : انهم كانوا لا يرضون للقيام على الخيل الا بأهليهم اشفاقاً عليها »(١٦)

ولعلنا نجد اهتماماً بالخيـل مشابهاً لاهتمام عمرو عند مهلهل أيضاً ، فعندما حاول بعض البكريين أن يخيِّره بين أن يبيع خيله بالمعزى والغنم ، أو أن يرحل بقومه عـن المرعى ، أنف مهلهل من ذلك ، وآثر الرحيل، وان كان الهلاك فيه ، وقال(١٧) :

انِفَت أبناؤنـا مـن فعلنـا أن نبيـع الخيـل بالمعزى اللجاب

★ ★ ★

هذا جانب من اهتمام سادة تغلب ـ في الجاهلية ـ بالخيل . وقد ظهر ذلك في أشعار شعرائهم ، الا أنه ليس بالمستوى الرفيع الذي نتوقعه ! فقد سلفت الاشارة الى أن أبناء هذه القبيلة قد وجدوا في الخيـل وسيلة مهمـة لتحقيق غاياتهم وانتصاراتهم ، ومن هنا جاء وصفهم لها وصفاً ظاهرياً عاماً ، يخدم ما كانوا يرمون اليه من فخر عند ذكر الخيـل في أشعارهم ، وهي خيل حرب وغارة عند جميع شعراء تغلب ، وارتبط وصفهم لها بهـذه الحالة في الغالـب ، فعمرو بن كلثوم يقـول(١٨) :

اقيس بن عمرو غـارة بعد غارة وضَبّة خيل تَحربُ المالَ والنعمْ
اذا أسهلت خَبّتْ وان احزنت وجّتْ وتحسبها جِنّـاً اذا شالت الجِذَمْ

وأفنون التغلبي يغير على هوازن بتلك الخيل :

سمَوْنا الى عليا هوازن بالقنـا وجُردٍ كأمثال القِداح ضوامـرِ

والسفّاح التغلبي يفخر بحسن بلائـه وقيادته لتلك الخيل فيقول(١٩) :

وانك لـو أبصرتني يوم صبّحت ... هوازن أمثـال السّراحين ضُمّرُ

أعرّضهـا للطعـن في كل غمرةٍ ... فتسلمُ أحيانا وحينـا تُعفـّرُ

★ ★ ★

لأيقنت أني فارس الخيـل والذي ... اليـه العوالي والصفيح المذكّرُ

وأبرز الصفات التي وقف عندها شعراء تغلب هي صفات ظاهرية عامة ، كما أسلفت، وتتعلق بجسد الخيل العام في الغالب ٠فخيلهم« مضمرة كالقداح » ، « وقبٌ شوازب » ،٠ « وجرد كالقداح مسومات » ٠ ونظروا اليهاوهي مغيرة فوصفوها وصفاً سريعاً يتناسب وتلك اللحظة الحرجةالتي يلتفت فيها الشاعرالى المعركة أولا وآخراً ، فالسفّاح التغلبي رأى الخيل « قبّاً » فقط(٢٠) :

جلبنـا الخيـلَ مـن قنوين قبـا ... فأوردنـا نواصيهـا حُنينـا

وأبو اللحّام التغلبي يراها « جرداً كالقداح » و « شوازب محلسات »(٢١) :

وجـردٍ كالقـداح مسوّمـات ... شوازب محلسـاتٍ باللبـودِ

وكذلك رأى أفنون الخيل جرداً كأمثال القداح ضوامر ، كما رأينا ٠

وقد تنبه بعض الشعراء على هيئةالخيل وهي تدخل المعركة وتخرج منها ، فعرض هذه الصورة عرضاً مقتضباً دون توقف عندهـا ٠فعمرو بن كلثوم يصف خيلـه وقـد رشحت عرقاً عند وصولها الى مكان الغارة فيقول :

جلبنـا الخيـل مـن جنبي أريك ... الى القلعَات مـن أكناف بعـرِ

ضوامر كالقـداح ترى عليهـا ... يبيس المـاء مـن حوٍ وشقـر

الا أن وصفه يقف عند ذكر يبيس الماء، دون أن ينتقل الى صورة فنية يوحيها اليـه ذلك اليبيس ، بينما رأى طفيل الغنوي مثلا هذا اليبيس « أشارير ملح » ، فقال(٢٢) :

كأن يبيس المـاء فوق متونهـا ... أشاريرُ ملـح في مبـاءة مُجربِ

ويصف بشر بن شلوة التغلبي الخيل فيطريقها الى المعركة وما أصابها منجهدونصَب فيقول(٢٣) :

سما بالعناجيج الجياد علىالوجى ... ينكبُهـا بالجري صمُ الجلامـدِ

★ ★ ★

فصبّحهـا قبّاً تضب لثاتُهـا ... عليها رجال الموت مـن آل خالدِ

ويصف الخيل مرة أخرى وهي في حومة الوغى فيراها تخوض في الدم(٢٤) :

والخيـل يغبرن الغبّـارَ عوابساً وعلى سنابكهـا سبائب مــن دم

أما السفاح فيصور الدماء في المعركة وقد غيرت لون الخيل ، فيقول(٢٥) :

وضربـت في أبطالهـم فتجدّلـوا وحملتُ مُهري وسطها فحماهـا

حتى رأيت الخيـل بعد سوادهـا كُمتَ الجنودِ خُضبنَ منجرحاها

ويرتفع أفنون بالخيـل الى مستوى الانسان ذي المشاعر والأحاسيس ، الذي يفرح ويتألم ويحزن ويشكو ، فيجد في حمحمة الخيل- وقد طال سيرها - شكوى وألماً ، فيقول :

سمَونا الى عُليـا هوازن بالقنـا وجُردٍ كأمثال القداح ضوامرِ

تئنّ أنـين الحامـلات وتشتكـي عَجاياتِها من طول نكب الدوائر

فما زال ذاك الدأب حتى صبحتها على ما بها من جهدها أهل حاجر

ومثل هذا الوصف نجده في شعر ابن قوزع الكسري التغلبي وهو يذكر غارة علقمة ابن سيف التغلبي يوم (سفح مُتالع) على بني تميم ، فيقول (٢٦) :

أصاب بهـا شهراً على كل علـةٍ لهـا من تشكيهـا أنين وحمحمه

وهذا يذكرنا بأبيات عنترة في معلقته :

فازورَّ مـن وقـع القنا بلَبانـه وشكـا الـيّ بعبرةٍ وتحمحـم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكـان لو علـم الكلام مكلّمي

واذا كان فرس عنترة يرد عنه كثيراًمن الطعن والضرب ، فان شيطـان بن مدلـج التغلبي فعل خلاف ذلك ، اذ جعل نفسه دريئة دون فرسه(٢٧) :

وكنتُ لها دون الرماح دريئـة فتنجو وضاحي جلدها ليس يكلم

★ ★ ★

هذه أبرز الجوانب التي تناولها شعراء تغلب ، في العصر الجاهلي ، في وصف الخيل، وهي خيـل حرب وغارة ، كما سلف ، ولـم يصفوها الا في تلك الحالة ، وفي معرض فخرهم بفروسيتهم وبطولاتهم ، ولم يذكروها في المراعي آمنة الا مرة واحدة في شعر الأخنس بن شهـاب ، وفي معرض الفخر بالقوة والمنَعة أيضاً ، اذ يقول(٢٨) :

ونحـن أناس لا حجـاز بارضنـا مع الغيث ما نُلفى ، ومنهوغالب

ترى رائدات الخيل حول بيوتنا كمعزى الحجاز أعجزتها الزرائب
فيُغبَقن أحلابا ويصبحن مثلها فهنّ من التعداء قُبٌ شوازب

وأكد جانب الفخر في هذه الأبيات المرزوقي فقال : « المراد أن ما يرتبطونه من المال ويقتنونه من الخيل ، لا الابل والغنم ، وأنها تختلف فيما بين بيوتهم لكثرتها ، لأنهم غزاؤون وأرباب غارات(٢٩) » .

أما خيل الطرد والصيد ، فلا نجد لها ذكراً في أشعار تغلب ــ المعروفة ــ في الجاهلية، ولعل حياة القبيلة الحربية حالت دون ذلك .

* * *

وقد ذكرت كتب أنساب الخيل مجموعة من خيل تغلب ، تتبعتها في مظانها ، وجمعتها، وسأوردها مرتبة على حروف المعجم :

١ ــ **جلوى** : وهي أم داحس(٣٠)

٢ ــ **حلاّب** : وهي من نتاج أعوج(٣١) ، وفيها يقول الأخطل(٣٢) :

نكرّ بنات حلاّبٍ عليهم ونزجرهن بين : هلا وهابِ

٣ ــ **حُميزة** : فرس شيطان بن مدلج الجشمي(٣٣) ، وبشؤمها يضرب المثل ، فيقال: أشأم من حميزة » .

٤ ــ **الخذواء** : من نتاج أعوج (٣٤) .

٥ ــ **خرْوب** : فرس ابن النعمان بن قريع التغلبي ، وفيه يقول(٣٥) :

كأن غرةّ خروبٍ اذا طلعت يوم الرهان جبينُ البدر في الظُلَمِ

٦ ــ **زِيَم** : فرس الأخنس بن شهاب، ونسب اليه قوله(٣٦) :

هذا أوانُ الشدّ فاشتدّي زِيَمْ

٧ ــ **السَّلِس** : فرس مهلهل بن ربيعة(٣٧) . قال مخاطباً الحارث بن عُباد البكري :

اركب نعامة اني راكب السَّلس

٨ ــ **الشقراء** : فرس المهلهل(٣٨) أيضاً .

٩ ــ **الضيف** : من ولد الحَرُون(٣٩) .

١٠ ــ **العصا** : فرس للأخنس بن شهاب(٤٠)، ولذلك قيل : « فارس العصا » .

١١ ــ **الغَيْد** : فرس لتغلب(٤١) أيضاً .

١٢ ـ **قَيد** : من أفراس تغلب(٤٢) ·

١٣ ـ **المشهَّرة** : فرس لمهلهل أيضاً(٤٣) ·

١٤ ـ **المنكدر** : فرس لبني العدوية ، وكان لرجل من بني عمرو بن غنم بن تغلب(٤٤) ·

١٥ ـ **نُباك** : فرس السفاح التغلبي (سلمة بن خالد) من نتاج أعوج(٤٥) ، وفيه يقول:

فاني لـن يفارقني نُبـاك يرى التقريب والتعـداد دينا

١٦ ـ **نُباك** : فرس آخر لكليب بن ربيعـة(٤٦) أخي المهلهل ·

١٧ ـ **الهُجيسي** : من خيل تغلب(٤٧) ·

١٨ ـ **الورد** : فرس أبي حنش عُصم بن النعمان وفيه يقول(٤٨) :

والورد يسعى بعُصم في طوائفهم كأنـه لاعبٌ يسعى بمِنحـاز

١٩ ـ **الورد** : فرس لمهلهل أيضاً(٤٩) ·

٢٠ ـ **الورد** : فرس للهُذيـل بن هبيـرة التغلبي(٥٠) ·

* * *

هذا ما استطعت جمعه من خيل تغلب ،وما من شك في أن ثمة خيلا أخرى لتغلب لم أهتد اليهـا ، ولعل متابعـة البحث ، وظهور مصادر جديدة يكشفان عن المزيد من خيـل تغلب وغيرها من القبائل العربية ، فتتكامل صورة هذا الجانب البارز من جوانب الحياة العربية قديماً ، وتتضح معالمه ·

□ **الحواشـي :**

١ ـ انساب الخيل في الجاهلية والاسلام ، لابن الكلبي (تح ·أحمد زكي ـ ط · القاهرة ـ ١٣٨٤ ـ ١٩٦٥) : ص : ٢٠ ·

٢ ـ من خيل تغلب · انظرها في ترتيبها ·

٣ ـ انظر الحلبة في أسماء الخليل المشهورة في الجاهلية والاسلام ، لمحمد بن كامل التاجي (تح : د· عبد الله الجبوري ـ ط · الرياض ـ ١٤٠١ ـ ١٩٨١) : ص : ١٠٢ ·

٤ ـ المصدر السابق : ١٠٣ ·

٥ ـ المصدر السابق ·

٦ ـ أسماء خيل العرب وانسابها ، للاسود الغندجاني (تح :د· محمد علي سلطاني ـ ط · مؤسسة الرسالة ـ بيروت (؟) ص : ١٢٤ ·

٧ ـ العمدة ، لابن رشيق (ط · دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٧٢) : ١/٦٥ ·

٨ ـ انظر تفسير الطبري (ط · دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٤٠٣ـ ١٩٨٣) : ٢٣/٩٨ ـ ٩٩ ، والبداية والنهاية لابن كثير (ط · مكتبة المعارف ـ بيروت ـ ١٤٠٤ ـ ١٩٨٣) :٢/٢٥ ·

٩ ـ انظر روايات الحديث ، وتخريجها في جامع الاصول ، لابن الأثير (تح : الشيخ عبد القادر الارناؤوط ـ دمشق ـ ١٣٩٠ ـ ١٩٧٠) : ٤٩/٥ ٠

١٠ ـ ديوان عمرو بن كلثوم (تح : كرنكو ـ ط ـ ١٩٢٢) : ١٠ ٠

١١ ـ المصدر السابق : ٧ ٠

١٢ ـ الأنوار ومحاسن الأشعار ، للشمشاطي (تح : د٠ السيد محمد يوسف ـ ط ٠ الكويت ـ ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧) : ٢٣٦/١ ٠

١٣ ـ انظر ديوان عمرو بن كلثوم : ١٥ ٠

١٤ ـ وجمع السندوبي شعر مهلهل مع أشعار المراقسة (ط ٠ القاهرة ـ ١٣٥٨ ـ ١٩٣٩) ٠ وثمة نسختان خطيتان لشعر مهلهل في المتحف العراقي ببغداد ٠

١٥ ـ حماسة أبي تمام (تح ٠ د٠ عبد الله عسيلان ـ ط ٠ جامعة الامام محمد ـ الرياض ـ ١٤٠١ ـ ١٩٨١) : ٢٥٧/١ ٠

١٦ ـ جمهرة أشعار العرب ، لأبي زيد القرشي (تح : علي محمد البجاوي ـ ط ٠ أ٠ القاهرة ـ دار النهضة ـ(؟) : ٣٦٦ ٠

١٧ ـ انظر كتاب بكر وتغلب ـ المنسوب لمحمد بن اسحاق ـ(ط ٠ مطبعة نخبة الاخيار ـ ١٣٠٥ هـ) : ٩٨ ٠

١٨ ـ ديوان عمرو بن كلثوم : ١٢ ٠

١٩ ـ الانوار ومحاسن الأشعار : ٢٦٥/١ ـ ٢٦٧ ٠

٢٠ ـ المصدر السابق : ٢٥٧/١ ٠

٢١ ـ النقائض ، لأبي عبيدة (تح : بيفان ـ ط ٠ مكتبة المثنى ـ بغداد ـ عن طبعة ليدن ـ ١٩٠٥) : ٤٥٨ ٠

٢٢ ـ ديوان طفيل الغنوي (تح ٠ محمد عبد القادر أحمد ـ ط ٠ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ـ ١٩٦٨) : ٢٤ ٠

٢٣ ـ الأنوار ومحاسن الأشعار : ١٩٢/١ ٠

٢٤ ـ الاختيارين ، للأخفش الأصغر (تح ٠ د٠ فخر الدين قباوة ـ ط ٠ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤) : ١٨٤ ـ ١٨٨ ٠

٢٥ ـ الانوار ومحاسن الأشعار : ٢٥٨/١ ـ ٢٦٠ ٠

٢٦ ـ المصدر السابق : ١٦٦/١ ـ ١٦٧ ٠

٢٧ ـ الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة ، لحمزة بن الحسن الأصبهاني (تح : عبد المجيد قطامش ـ ط ٠ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧١) : ٢٣٩/١ ٠

٢٨ ـ المفضليات ، للمفضل الضبي (تح : أحمد شاكر وعبدالسلام هارون ـ ط ٠ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٤) : ٢٠٤ ـ ٢٠٨ ٠

٢٩ ـ شرح ديوان الحماسة ، لاحمد محمد المرزوقي (تح : أحمد أمين وعبد السلام هارون ـ ط ٠ لجنة التاليف والنشر ـ القاهرة ـ ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧) : ٧٢٥ ٠

٣٠ ـ كذا في الحلبة في اسماء الخيل : ٥٢ ٠ والذي في أنساب الخيل لابن الكلبي : ٢٤ ، والخليل للاصمعي (في مجلة المورد العراقية) مجلد ١٢/٤٤/ص : ٢٢٠ ، واسماء الخيل للغندجاني : ٦٢ ، أن جلوى الكبرى إم داحس كانت لقرواش ابن عوف من بني ثعلبة بن يربوع ٠

٣١ ـ انساب الخيل لابن الكلبي : ٤٢ ، والخيل للاصمعي : ٢١٩ ، والخيل ، لأبي عبيدة (ط ٠ دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر اباد ـ الهند ـ ١٣٥٨) : ٦٧ ، وأسماء الخيل للغندجاني : ٧٧ ، والعمدة : ٢٣٤/٢ ، ونهاية الأرب للنويري (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب) : ٤٠/١٠ ، والحلبة : ٥٩ ٠

٣٢ ـ شعر الأخطل (تح : د٠ قباوة ـ ط ٠ دار الآفاق ـ ١٩٧٩) : ١/٣٦٨ ٠

٣٣ ـ الحلبة في أسماء الخيل : ٦٤ ٠ وقيل اسمها « حميرة » كما في الدرة الفاخرة : ١/٢٣٩ ، ومجمع الأمثال ، للميداني (تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مط ٠ السنة المحمدية ـ القاهرة ـ ١٣٧٤ ـ ١٩٥٥) : ١/٣٨٠ ، وفي جمهرة الأمثال للعسكري ، (تح : محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطامش ـ ط ٠ المؤسسة العربية الحديثة ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤) : ١/٥٥٧ ، والمستقصى ، للزمخشري (ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٩٧ـ١٩٧٧) : ١/١٨١ « خُميرة » ٠

٣٤ ـ انساب الخيـل لابن الكلبي : ٤٥ ٠ ولعل الصواب أن (الخذواء) من خيل غني ، انظـر أسماء الخيل للغندجاني : ٨٥ ، والحلبة : ٧ ٠

٣٥ ـ كذا هو عند الغندجاني : ٩١ ، لابن النعمان بن قريع ٠ ولعله فرس النعمان نفسه ، انظـر النقائض : ٤٥٤ ، وشعر الأخطل : ١/١٢١ ، والتكمـلة ، للصغـاني ، (تح : عبد العليم الطحاوي وعبد الحميد حسن ـ مط ٠ دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٧٠) : ١/١١٣ ، والقـاموس المحيط ، وتاج العروس : (خرب) ٠

٣٦ ـ انساب الخيل لابن الكلبي : ٨٥ ، والغندجاني : ١١٨ والحلبة : ٨٤ ، والانوار : ١/٢٧٦ ، والتكملة ، للصغـاني : ٦/٤٩ ٠
وجعله ابن الأعرابي (أسماء خيل العرب ـ تح : د٠ محمد عبد القادر أحمد ـ دار النضهة ـ القاهرة ـ ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤) : ١٥٢، وابن سيده في المخصص (ط ٠ دار الفكر ـ ؟) : ٦/١٩٧ ، لجابر بن حني التغلبي ، وكذلك في اللسان (زيم) ، وفي المحيط والتاج (زيم) تنسب الى جابر بن حني مع الاشارة الى نسبته الى الأخنس بن شهاب ٠

٣٧ ـ انساب الخيل لابن الكلبي : ٨٤ ، والغندجاني : ١٢٣ ، والحلبة : ٩٢ ٠

٣٨ ـ القاموس المحيط ، والتاج : (شقر) ٠

٣٩ ـ انساب الخيل لابن الكلبي : ١٢١ ، والخيل لأبي عبيدة : ٦٧ ٠ والغندجاني : ١٥٤ ، والعمدة : ٢/٢٣٥ ، ونهاية الأرب: ١٠/٤٧ ٠

٤٠ ـ الخيل ، للأصمعي (مجلة المورد) : ٢٢٠ ، والغندجاني: ١٦٩ ، والأنوار : ١/٢٧٦ ، والحلبة : ١٠٨ ، وتاج العروس: (عصـا) ٠

٤١ ـ أسماء الخيل للغندجاني (المستدرك) : ١٩٠ ٠

٤٢ ـ المصدر السابق : ١٩٩ ، والخيـل للاصمعي : ٢١٩ ، والأنوار : ١/٢٧٥ ، والحلبة : ١١٦ ، ونهاية الأرب : ١٠/٤٠، واللسان ، والمحيط ، والتاج : (قيد) ٠

٤٣ ـ القاموس المحيط ، والتاج : (شهر) ٠ وفي أسماء الخيل لابن الأعرابي : ١٥٤ ، والتكملة للصغاني : ٣/٦٢ : « المشهر » ٠

٤٤ ـ انساب الخيل لابن الكلبي : ٨٥ ٠

٤٥ ـ المصدر السابق : ٤٢ و ٨٧ ، والغندجاني : ٢٤٦ ، والأنوار : ١/٢٧١ ، والتكملة : ٥/٢٤١ ، والقاموس المحيط ، والتاج : (تبك) ٠

٤٦ ـ التكملة : ٥/٢٤١ ٠

٤٧ ـ أسماء الخيل للغندجاني : ٢٦٤ ، واللسان ، والقاموس المحيط ، والتاج : (هجس) ٠ وانظر انساب الخيل لابن الكلبي: ١٥/١٩ ، والحلبة : ٧٣ ٠

٤٨ ـ أسماء الخيل للغندجاني : ٢٥٣ ، والتكملة : ٢/٣٥٨ ٠

٤٩ ـ أسماء الخيل للغندجاني : ٢٥٦ ، والتكملة : ٢/٣٥٩ ٠

٥٠ ـ التكملـة : ٢/٣٥٩ ، والقاموس المحيط ، والتاج : (ورد) ٠

ظاهرة الانتماء والانعتاق في القصيدة الجاهلية

حسين سلمان جمعة

لا بد من الاشارة الى أننا حين نتحدث عن الانتماء في القصيدة الجاهلية لا يمكن أن نطلب من الجاهلي أن يفهم الوطن والانتماء له كما نفهمه اليوم ، بل علينا أن نستوعب ما أراده • فلو عدنا ــ مثلاً ــ الى كتاب (المخصص) لابن سِيدَة وعددنا الأفعال التي تدل على الاقامة في الأرض لوجدناها نحو ستة وسبعين فعلاً • فالانتماء عند الجاهلي انتماء للمجتمع والأرض (الماء والكلأ) ...

أما المجتمع فقد اكتسب صفة القدسيَّة عندهم وصار النظام القبلي لديهم دستورهم الأصيل • وقد نجد أفراداً من العرب فهموا الانتماء المشار اليه فهماً مشوشاً ، فاعتقدوا أن هذا النوع من الارتباط يكبل حريتهم ، ويحد من طموحاتهم فحاولوا ايجاد الانتماء البديل • وحاول بعض الجاهليين اظهار المكاره التي يلقاها المرء بين أهله على أنها عبء لا يطاق ــ وأقسى ما يلقاه المرء أن يجد الظلم من ذويه فكأنه غريب بينهم ــ وأضرب من شعر أوس بن حجر مثلاً على هذا النوع من التفكير عند الجاهليين ــ ولكنه يغفر الزلات أحياناً ــ (١) :

ألا أعتِب ابن العم ان كان ظالماً   وأغفر عنه الجهل ان كان أجهلا

بيد أن الظلم اذا ازداد بين الأقرباء انقلب الانتماء الى القبيلة حبلاً واهناً فيقول أوس متابعاً :

أقيم بدار الحزم ما دام حزمها   وأحر اذا حالت بأن اتحولا

فما دامت الاقامة في الوطن حزماً فأخلق به أن يعمق انتماءه اليه ، أما اذا انقلبت الى ظلم فما أجدره أن يتحول عنه • فالوطن يمثل الكرامة والاخلاص له ، والحفاظ على انتماء

أبنـائه ··· وما عـدا ذلك يغدو المرء فيـه غريباً ؛ وتبـدأ النفس بالوسوسة مـن أجـل الانعتاق والتحرر من قيد الانتماء الظالم الى انتماء لا ظلم فيـه · وهـذا يذكرنا بأغربة العرب وهم سودانهم · ومنهم عنترة العبسي والسليك بن السلكة وتأبط شراً وخفاف بن ندبة والشنفرى وحاجز الأزدي ··· وغيرهم ··· وقـد حرص بعض هؤلاء الأغربة على الوطن وحاولوا تثبيت انتمائهم فوق أرض لا تحمـل الا السادة مـن الشرفاء والبيض ؛ فسعوا الى تعميق ارتباطهم بها وبقبيلتهم ،وأرادوا التعويض عـن وضاعة لونهـم ببيض فعالهم · وأن المرء بفعله الكريم ، وهو قادر ـ وان كان اسود ـ على أن يقوم بما لا يستطيع السيد الوفي أن يؤديه · وما قصـة الانعتاق وحب الانتماء عند عنترة الا واحدة من قصص كثيرة نتجت من الظلم الاجتماعي نتيجة فارق اللون الذي خلقـه الله عليـه · وكان عنترة يعتمد في الوصول الى حريته وانهاء عبوديته على الحجـة والمنطق دون أن يشوه انتمـاءه الذي يؤمن به السادة الشرفاء ، قال(٢) :

عجبت عبيلـة مـن فتى متبـذل عاري الأشاجـع شاحب كالمنصـل

شعث المفـارق منهـج سربالـه لـم يـدهـن حـولا ولـم يترجـل

ويتجلى عمق الانتماء عند عنترة بصدق الدفاع عنه ، ولم يفعل ما فعله خفاف بن ندبة حـين قـال(٣) :

كـلانـا يسـوده قـومـه علـى ذلـك النسـب المظلـم

فأم خفاف بن ندبة تجلب العار لابنها بسواد لونها بينما تجد عنترة يفتخر بسواد لونه ولون أمه ويدافع عن أرومته تلك التي أتتـه من جانب (حـام) ·

وينتهي لونه الأسود الى الأصالة ؛ ولاعار فيه مثل اللون الأبيض تماماً فقال(٤) :

وأنا المجـرب في المواطـن كلهـا مـن آل عبس منصبي وفعـالي

منهـم ابي حقـاً فهـم لي والـد والأم مـن حـام فهـم أخـوالي

وقـال أيضـاً(٥) :

فـان تـك امـي غـرابيـة مـن أبنـاء حـام بهـا عبتنـي

فانـي لطيـف ببيـض الظبـا وسـمـر العـوالي اذا جئتنـي

هكذا سيحمي لونه بحد السيف ولن يترك لأحد ـ مهما يكن ـ أن يعيبه به ، ويفسد عليـه انتماءه قال(٦) :

اني امرؤ مـن خـير عبس منصبـا شطري ، وأحمي سائري بالمنصـل

فحرية عنترة تتوطن في قدرته على اثبات انتمائه مثله مثـل بقيـة أفراد المجتمع ، فالحرية الانتماء هي الغاية الأولى والأخيرة · وفي اعتقادنا أن عنترة لم يصل الى الانتماء

الأصيل الا بعد تضحيات جمة انتزع بها الاعتراف من جميع أفراد عبس بانتمائه على قدم المساواة مع الشرفاء البيض ... ونظرة فاحصة واعية ومتأملة لهذه القصة وأمثالها تؤكد ان المجتمع الجاهلي يقدس القوة ولا يؤمن البتة بالتمييز العنصري بين أبيض وأسود ... فابن السوداء الذي حمى الناس في أكثر من معركة(٧) ـ كما قال قيس بن زهير ـ مثل على ثائرة التحدي للعنصرية . فقد دفعته فروسيته وأنفته الى تثبيت انتمائه بحد السيف .

واذا كان عنترة يمثل العنصر الايجابي في ظاهرة الانتماء والانعتاق فان آخرين مثلوا العنصر الانفعالي فيها ، وأرادوا تأكيد فرديتهم دون الارتباط بقبيلتهم لا كما كان يفعل عنترة ؟ فاصبحوا كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . وان وصل بعضهم الى حريته فانما ظل انعتاقه فردياً ؛ يسوس الأمور بمنطق فردي وجودي ، وأبرز من يمثله طرفة بن العبد . أما بعضهم الآخر فقد كون لنفسه جماعة مارست نوعاً من الانتماء الجماعي لشيء جديد غير ما عرف عند الجاهليين مثل الخلعاء والصعاليك . فطرفة ابن العبد يتمرد على مفاهيم مجتمعه (التقاليد والعادات) دون أن ينكر انتماءه الى قبيلته بكر . ويعلن صيحته عالية فيقول : انه ينتمي بكل كيانه الى مجتمعه الا أن ظلم قومه لاخوته الصغار ولأمه جعله يعيد النظر بمفهوم الانتماء ـ وأقسى أنواع الظلم أن يكون من الأقرباء ـ (٨) :

فمالي أراني وابن عمي مالكاً ... متى أدن منه ينأ عني ويبعد ؟
يلوم وما أدري علام يلومني ... كما لامني في الحي قرط بن معبد ؟
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

لهذا يظهر اللوم عند طرفة ظلماً صريحاً أمضه وأثر في نفسه ، وهيج فيها الأحزان والغضب وكأنه الحد القاطع . فكيف به اذا امتد هذا الظلم الى أمه (وردة) ؟ يقول(٩):

ما تنظرون بحق وردة فيكم ؟ ... صَغُرَ البنون ورهط وردة غيَّبُ
والظلم فرَّق بين حيَّيْ وائل ... بكر تساقيها المنايا تغلبُ
والاثم داء ليس يرجى برؤه ... والبر برء ليس فيه معطبُ
والصدق يألفه اللبيب المرتجى ... والكذب يألفه الدنيء الأخيبُ
أدوا الحقوق تفر لكم أعراضكم ... ان الكريم اذا يحرَّب يغضبُ

وعلى الرغم من ذلك فالمجتمع رحيم بأبنائه رؤوف على الأدنى والأبعد لا يحرمهم انتماءهم الا اذا جرؤوا الجرائر على أفراده ... وطرفة مثَّل بسلوكه تعطيل قدسية الانتماء ، لأنه يعتقد أن حياته ليست جديرة بأن تعاش ان لم يعب منها ما استطاع ؛ من المجد والشهرة والمرأة والخمرة قال(١٠) :

فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكري اذا نادى المضاف محنّبا ... كسِيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة تحت الطراف الممدد

ووسط هذا الجو المفعم بالتحدي والصراع بين طرفة ذي السلوك الذي هدد انتماءه وبين مفاهيم القبيلة أعلن المجتمع صراحة على لسان أفراده أن طرفة غدا خطراً على أبنائهم فأفردوه كالجمل الأجرب عله يدرك خطورة سلوكه، لأنه يقطع أواصر انتمائه بيديه(١١):

وما زال تشرابي الخمور ولذتي ... وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي
الى أن تحامتني العشيرة كلها ... وأفردت افراد البعير المعبّد

هذه هي ضريبة تحدي المفاهيم الاجتماعية ؛ انها انذار له ولكنه لا يلبث أن يصبح خلعاً من الأرض وتهجيراً عن القبيلة ٠٠٠ وحاول طرفة أن يثبت خطأ القرار الذي أصدرته قبيلته فركب ناقته – وأرض الله واسعة – لا يلوي على شيء ٠٠٠ غير أنه سرعان ما أحس بحب الانتماء لقبيلته بكر وأرضها حين فصلت الصحراء بينهما ٠٠٠ فبدأ يتخيل وطناً له وبيتاً يتحمل المكاره ولا يعبأ بالريح الهوجاء ، فينام فيه قرير العين ٠٠٠ وينتقل الى ذلك من خلال وصف الناقة مصوراً العلاقة بين ما يحلم به وبين تلك الناقة التي تقله في رحلته٠ فيغدو فخذا الناقة كأنهما باباً منيف، أو قنطرة رومية مشيدة بالجص والحجارة ٠ ومن هنا فهذه الناقة التي تتعاطف مع شاعرنا وتشاركه همومه – وقد جعلها طرفة المعادل الموضوعي لوطنه وأهله – لا تعوضه عن انتمائه لهما مهما تخفف من الأوجاع التي يحملها فوق كاهله فيقول(١٢) :

واني لأمضي السهم عند احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
لها فخذان أكمل النحض فيهما ... كأنهما بابا منيف ممرد
لها مرفقان أفتلان كأنها ... تمر بسلمي دالج متشدد
كقنطرة الرومي اقسم ربها ... لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

اذن لا شكل للظلم ولا لون له فكيفما وجد يهدد الانسان في انتمائه ووجوده ٠ ولا يرضى به الا من فقد قدرته على الانتماء الواعي العميق ، أو من فقد شعوره بالعزة والكرامة كقول المتلمس(١٣) :

ان الهوان حمار القوم يعرفه ... والحر ينكره والرسلة الأجد
ولن يقيم على خسف يسام به ... الا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فما يرثي له أحد

لهذا كله يبقى طرفة أقل ايجابية في دفاعه عن انتمائه من عنترة العبسي على الرغم من الفارق الطبقي في المنبت الاجتماعي ؛ وعنترة والفتى البكري لم يهددا قبيلتيهما ولم يعتديا على أحد ٠ وان أساء طرفة الى المفهوم الاجتماعي القبلي فان كثيرين جروا الويلات على قبائلهم فأساؤوا الى انتمائهم ، ولم تتخلص منهم الا حين قطعت الحبل الذي يصل بينهم وبينها ٠ فاصدرت القانون المتعارف عليه من القبائل كلها ، آلا وهو (قانون الخلع) ٠ فكل فرد في القبيلة عضو فاعل من أجل خيرها لا شرها ٠٠٠ وبهذا وجدت ظاهرة الخلعاء في العصر الجاهلي – وهي ظاهرة أشبه ما تكون هذه الأيام بظاهرة النفي – ٠ ولم توجد هذه الظاهرة ولا قانونها الا ليؤكد مبدأ الانتماء الصالح للأفراد ، بل انها ظاهرة تقديس الانتماء ذاته ٠٠٠ وكل امرىء يسيء اليه يصبح خليعاً منبتّ الجذور ، مهدور الدم ، – لا تأخذ القبيلة بدمه ان قتل – ولا تتحمل وزره ان قتل – ممنوعاً من التزويج باحدى نساء قبيلته ٠٠٠ وهذا من أقسى ما يهدد الانتماء لدى العربي في الجاهلية ٠ ومن هنا يحاول الخليع أن يبرهن للملأ أن خلعه كان بسبب رغبته في الانعتاق من ظلم القبيلة أو الدفاع عن حرمة من حرماتها ٠٠٠ ويسعى الخليع الى تقوية ارتباطه بالقبيلة التي رضيت أن تغفر له ذنبه لأمر أو لآخر ، فيعمد الى مدحها ، والدفاع عنها بسيفه ولسانه ويذم قبيلته التي أنكرت عليه انتماءه ٠ فان لم تقبل به أي قبيلة ظل مطروداً كالذئب مكوناً مع أمثاله شراذم في أرض الله الواسعة ٠٠٠

ويبقى العربي شديد الوله بانتمائه ولا يستعيض عنه بأي ولاء آخر ٠ لهذا يحاول الخليع المنتمي الى قبيلة أخرى أن يعوض بانتمائه هذا عن سابقه فيخلص ما استطاع له ٠ وأبرز من يمثل هذا الجانب من ظاهرة الانتماء والانعتاق قيس بن الحدادية ٠ وكانت قبيلته خزاعة قد خلعته بسوق عكاظ ، وأشهدت على أنفسها بخلعها أياه فلا تحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه ، ونزل عند قوم يقال لهم بنو عدي بن عمرو ابن خالد فآووه وأحسنوا اليه فمدحهم قائلاً(١٤) :

جزى الله خيراً عن خليع مطرد	رجالاً حموه آل عمرو بن خالد
فليس كمن يغزو الصديق بنوكه	وهمته في الغزو كسب المزاود
وقد حدبت عمرو عليَّ بعزها	وأبناؤها من كل أروع ماجد

وسخر من قبيلته لأنها تحولت عنه ، وأنكرت انتماءه اليها ، ووصفها بعدم رعاية العهد ٠ وهذا دليل على تأثير هذا القرار على العربي ونفسيته ؛ كما ندرك مدى التندم الذي يشعر به الخليع ، فيتابع قيس :

عليكم بعرصات الديار فانني	سواكم عديد حين تبلى مشاهدي
تجنّى عليَّ المازنان كلاهما	فلا أنا بالمفضي ولا بالمساعد

ويحاول الخليع أن يصل ما انقطع بينه وبين مجتمعه ٠٠٠ ولكنه غالباً ما يخفق لانه يظن أنه امتلك ناصية حريته فتكون عين عليها وعين على قبيلته ٠ ويسقط في امتحان

عـودة الانتماء وينتصر بانطوائه تحت زمرة مـن الخلعاء المتشرذمين ليهددوا أمن الأفراد وانتماءهم وليشكلوا جماعات من الصعاليك اللصوص الذين يقـوم مـذهبهـم على السلب والنهب ·

وتبرز ظاهرة الصعلكة من بين الفقراء والخلعاء الذين عجزوا عـن مواجهة واقعهم وعدم تغيير النظام السائد آنذاك ··· وبهذا اتخذ الصعاليك من الهرب وكسر طوق الانتماء الذي يحمي وجودهم مبدأ، فقطعوا كل أواشج القربى بينهم وبين ذويهم ، واعتقدوا بأنهم قادرون على بناء نظام اجتماعي واقتصادي جديـد ـ ولكن ما يبنى على خطأ لا بـد أن ينتهي الى الانقـراض ـ · فالنظـام ـ أي نظـام ـ لا يقوم على أنقـاض الموتى ومال المسروقين سواء كانوا أغنياء أم فقراء ، بل لا بـد من توزيع عادل لهذا المال يقوم على أساس من المجهد لا الاغتصاب والسلب· وهذا السبب أدى بالصعاليك الى وصفهم بالذؤبان، ـ والذئب لا يبغي الا الشـر ـ فضـربوا في الآفاق متربصين بالقبائل الدوائر · واذا وجد بينهم أمثال عروة بن الورد الذي اهتم بغزو الأغنياء لحساب الفقراء ـ وكاد يكوّن تياراً اجتماعياً ـ فلا يعني أن الصعاليك كفرقـة جماعية كانوا قادرين على تكوين انتماء جديد كبديل من الانتماء السابق لكل فرد منهم ·وأيا كان تمرد الصعاليك والخلعـاء فانـما يؤكد قضية واحـدة لا ثاني لهـا هي ظاهرة الانتماء واثبـات مظهر الانعتاق مـن خلالها ـ وان بدا بشكله السلبي لا الايجابي ـ · ويظهر عروة بن الورد ممثلاً لظاهرة الانعتاق الايجابيـة في حيـاة الصعاليك ـ وهو مظهر فردي ـ ويبرز مفهومه للانتماء بـين الماضي والحاضر دون أن يهدد حاضره ماضيه في بني عبس ، فقـال(١٥) :

اذا المرء لم يبعث سـواماً ولم يـرح عليـه ، ولم تعطف عليـه أقاربـه
فللموت خير للفتى مـن حياتـه فقيراً ومن مولى تـدب عقاربـه
وسائلة : أين الرحيـل ؟ وسـائل ، ومـن يسأل الصعلوك : أين مذاهبـه
مـذاهبـه أن الفجـاج عريضـة اذا ضـنّ عنـه بالفعـال أقاربـه

ويبرز العجز في اظهار الانتماء الجديد من خلال قلة الأمن والطمأنينة فالصعلوك يعيش في خوف دائم وقلق مستمر ، ويتمثل رعبـه في الفقر والتشـرد اللذين سيطاردان أطفـاله وذويـه ·

وما ضريبة الجوع والتشرد والأذى الا أولى النتائج التي تفرزها حركة التمرد على الانتماء والخروج عنه · قال أبو كبير الهذلي يخاطب ابنته زهيرة موطناً اياها على الصبر وبأنها ليست أول فتاة تفقد أباها(١٦) :

أزهيرَ هـل مـن شيبة مـن مصرف أم لا خلـود لبـاذل متكلـف ؟
أزهـيرَ ان أخـا لنـا ذا مـرّةٍ جلـد القـوى في كل سـاعة محرف
فـارقتـه يومـاً بجـانب نخلـةٍ سـبق الحمـام بـه زهيـرَ تلهّفي
تعـوي الذئاب مـن المجاعـة حـوله إهـلال ركـب اليـامـن المتطـوف

لهذا يتبري الصعلوك نادماً فيحن الى وطنه وذويه متلفهاً على ذكرياته التي انتهت بكل لحظات الفرح التي ذهبت • قال قيس بن عيزارة(١٧) :

سقى الله ذات الغمر وبلاً وديمةً ... وجادت عليها البارقات اللوامعُ
بما هي مقناة أنيق نباتها ... مِربّ فترعاها المخاض النوازعُ
لها هجلات سهلة ونجادة ... دكادكُ لا تُوبى بهن المراتعُ
كأن يلنجوجا ومسكاً وعنبراً ... بأشرافه طلّت عليه المرابعُ

وليست ظاهرة الانتماء والانعتاق واحدة الاتجاه عند الصعاليك جميعاً ، فاننا نجد من آكد انتماءه بصور تبدو غريبة الأطوار • فالشنفرى مثلاً ـ قطع العلاقة القديمة بينه وبين مجتمعه وأرضه ليستبدل بهما أرضاً يجد فيها الأمن والطمأنينة ـ كما يعتقد ـ ومجتمعاً لا يعرف الكذب والخداع وافشاء السر والغدر والظلم • فأرضه الجديدة هي كل أرض تطؤها قدمه لا خوف فيها ولا قلق ، ومجتمعه الجديد الذي انتمى اليه هو عالم الحيوان وهو يمتاز بالصدق والوفاء والأنس، ويحرص على كرامته فيقول(١٨) :

أقيموا بني امي صدور مطيّكم ... فاني الى أهل سواكم لأميَلُ
وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القِلى متعزّلُ
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرىءٍ ... سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ
ولي دونكم أهلون سِيْدٌ عملّسٌ ... وأرقطُ زهلولٌ وعرفاء جيألُ
همُ الرهط لا مستودعُ السرِّ شائعٌ ... لديهم ولا الجاني بما جرَّ يخذلُ

والبيت الأخير بخاصة يبين علة الخلع والنفي ؛ كما يكشف أيضاً أنه لا يوجد أغلى من الوطن (المجتمع والأرض) فيه عزته وحريته ، وفيه يعلي كرامته • فالانتماء والانعتاق صنوان لظاهرة واحدة لا يعيش المرء الا بهما معاً فاذا فُقد أحدهما انتهى الآخر • فالحرية لا تتجزأ عند العربي فاذا هددها خطر ولا سيما الأسر أو السجن ثار لكرامته لأنه يدرك أنه سيلقى ذل الأسر وهوان السجن • ولن تهدأ نفسية العربي الأسير أو السجين حتى يعود الى وطنه ليحس بدفء انتمائه • وأعود الى قيس بن عيزارة الصعلوك مرة أخرى وكان وقع في أسر تأبط شراً وقبيلة (فَهْم) فقال(١٩) :

لعمرك أنسى روعتي يوم أقتُدٍ ... وهلْ تتركن نفس الأسيرِ الروائعُ

ويظهر حزيناً على فراق أهله ونسائه وأرضه وأن بناته وأهله سيبكون عليه

وقال نساءٌ لو قتلت لساءنا ... سواكنُ ذو الشجوِ الذي انا فاجعُ
رجال ونسوان بأكناف رايةٍ ... الى حُثُنٍ ثمَّ العيونُ الدوامعُ

وقصة عبد يغوث بن وقّاص الحارثي تعد النموذج الانتمائي للوطن وابداء التعلق به يوم وقع أسيراً بيد (تميم) في يوم الكُلاب الثاني ورفضت تميم أن تفديه بالنعمان بن جساس وطلبت منه أن يختار ميتته ، فطفق ينشد قصيدته المعروفة(٢٠) :

الا لا تلوماني كفى اللومَ ما بيا ... وما لكما في اللوم خير ولا ليا

ويبعث رسالة الى وطنه مخبراً ذويه أنه لا لقاء له معهم بعد اليوم فيقول متابعاً :

فيا راكباً إما عرضت فبلغن ... نداماي من نجران أن لا تلاقيا

أحقاً عباد الله أن لست سامعاً ... نشيد الرعاء المُعزِبين المتاليا

ان الحسرة تقتله لأنه لن تكتحل عينه برؤية وطنه ولن يسمع نشيد الرعاة الجميل الذي يطرب الوديان فتتراقص أغصان الشجر على نغماته ٠٠ وانه يلفظ أنفاسه في أرض غريبة يزفرها أنّة تلو الأخرى ، فلن يلقى اهله بعد يومه هذا في عامه هذا ٠

أخيراً أقف عند عدي بن زيد الذي يمثل ظاهرة الانعتاق من السجن ؛ اذ سجن في بلاد فارس بعيداً عن دياره وأرضه ٠٠ فالأميال تفصل ما بينهما ، وهيهات أن يطمئن باله ويهدأ لأنه سجن ظلماً ؛ فهو يحس بالألم الممض الذي يبري عظامه ، بل ان حزنه لا يعدله حزن فهو يغصُّ بالماء القَراح ٠٠ ولهذا كله بعث رسالة الى النعمان بن المنذر يوضح فيها ما يجري له ، وما وقع ، ويتمنى أن تشفع قصيدته له بايضاح الحقيقة ليعود الى وطنه الحبيب بعد نأي وبعاد(٢١) :

أبلغ النعمان عني مالكاً ... أنه قد طال حبسي وانتظاري

لو بغير الماء حلقي شرقٌ ... كنت كالغصّان بالماء اعتصاري

ليت شعري عن دخيل يفتري ... حيثما أدرك ليلي ونهاري

وقال في قصيدة أخرى مظهراً الأسى الذي سيصيب ذويه(٢٢) :

أتاك بأنني قد طال حبسي ... ولم تسأم بمسجونٍ حريبِ

وبيتي مقفر الأرجاء فيه ... أراملُ قد هلكنَ من النحيبِ

يبادرن الدموع على عديٍّ ... كشنٍّ خانه خرزُ الربيبِ

ان ما عرضت له صور من ظاهرة الانتماء والانعتاق في القصيدة الجاهلية وكل صورة تمثل النزوع الوطني للعرب في الجاهلية ، بل كل صورة توحي بالتفكير المتقدم الذي وصلوا اليه ، ويتجلى فيها فيض الحس ورقته وهو يمتلىء بالعزة والكبرياء ولا شيء أقدس منها عند العربي الا الانتماء الى الوطن ٠

الحـواشي :

١ ـ أوس بن حجر : ديوان أوس بن حجر (بـيروت ـ دارصادر ـ تحقيق د٠ محمد يوسف نجم) ص ٨٣ ٠

٢ ـ عنترة : ديوان عنترة بن شداد (دمشق ـ المكتب الاسلامي ـ تحقيق محمد سعيد مولوي) ص ٢٥٣ وبعد ٠

٣ ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء (القاهرة ـ دار المعارف ـ تحقيق وشرح احمد محمد شاكر) ج ١ ص ٢٤١ ٠

٤ ـ عنترة : ديوان عنترة ص ٣٣٦ ٠

٥ ـ المصدر السابق : ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ٠

٦ ـ المصدر السابق : ص ٢٤٨ ٠

٧ ـ الأصفهاني : الأغاني (القاهرة ـ نسخة مصورة عن دار الكتب ـ المؤسسة المصرية العامة) ج ٨ ص ٢٤١ ٠ وديوان عنترة ص ٤٢ ٠

٨ ـ طرفة بن العبد : ديوان طرفة بن العبد (بيروت ـ دار صادر ـ كرم البستاني) ص ٣٦ ـ ٣٨ ٠
ديوان طرفة بن العبد (دمشق ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية) تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ـ ص ٢٧ ـ ٤٠ ، وفيه قرط بن أعبد والتصحيح من النسخة السابقة٠

٩ ـ المصدر السابق ص ١١ ـ ١٢ (صادر) ، والديوان ص١٠٧ ٠

١٠ـ المصدر السابق ص ٣٢ ـ ٣٣ (صادر) ، والديوان ص٣٢ ـ ٣٤ ٠

١١ـ المصدر السابق ص ٣١ (صادر) ، والديوان ص ٣١ ٠

١٢ـ المصدر السابق ص ٢٢ ـ ٢٥ (صادر) والديوان ص ١٢ـ ١٨ ٠

١٣ـ شيخو ، لويس : شعراء النصرانية (بيروت ـ مطبعـة الآباء اليسوعيين) ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ٠

١٤ـ الأصفهاني : الأغاني (القاهرة ـ نسخة مصورة عن دارالكتب) وزارة الثقافة والارشاد القومي ٠ المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر) ج ١٤ ص ١٥٢ ٠

١٥ـ عروة بن الورد : ديوانا عروة بن الورد والسموأل (بيروت ـ دار صادر ودار بيروت) ص ١٩ ٠

١٦ـ الهذليون : ديوان الهذليين (القاهرة ـ الدار القوميـة للطباعة والنشر) ج ٢ ص ١٠٤ ٠

١٧ـ المصدر السابق : ج ٣ ص ٧٩ ـ ٨٠ ٠

١٨ـ القالي ، أبو علي : ذيل الأمالي والنوادر (بيروت ـ دار الكتاب العربي) ص ٢٠٣ ٠

١٩ـ المصدر الأسبق ج ٣ ص ٧٦ ـ ٧٨ ، وأعجب العجب في شرح لامية العرب ص ١٨ ـ ١٩ ٠

٢٠ـ المفضل الضبي : المفضليات (القاهرة ـ دار المعارف ـ ط ٥ ـ تحقيق أحمد محمد شاكر) ص ١٥٥ ـ ق ٣٠ ٠

٢١ـ الأصفهاني : الاغاني ج ٢ ص ١١٤ وشعراء النصرانية ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ ٠

٢٢ـ الأصفهاني : الاغاني ج ٢ ص ١١١ ـ ١١٢ ، وشـعراء النصرانية ص ٤٥٢ ٠

المصادر والمراجع :

١ ـ الأصفهاني : الأغاني (القاهرة ـ نسخة مصورة عن طبعةدار الكتب ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر) ـالجزء الثاني ، والثامن ، والرابع عشر ٠

٢ ـ اوس بن حجر : ـديوان اوس بن حجر (بيروت ـ دارصادر) تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم ـ الطبعة الثالثة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ٠

٣ ـ الزمخشري ، جار الله ابو القاسم (دار الوراقة) الطبعةالأولى ـ ١٣٩٢ هـ ٠

٤ ـ شيخو ، لويس : شعراء النصرانية (بيروت ـ مطبعـةالآباء اليسوعيين) ١٨٩٠ م ٠

٥ ـ طرفة بن العبد : ديوان طرفة بن العبد (بيروت ـ دارصادر) ـ تحقيق كرم البستاني د/ت ٠
ديوان طرفة بن العبد (دمشق ـ مطبوعات مجمع اللغـةالعربية) تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ـ ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م ـ وعليه اعتمدنا ٠

٦ ـ عروة بن الورد : ديوان عروة بن الورد والسموأل (بيروت ـ دار صادر ، ودار بيروت) تحقيق كـرم البستاني ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م ٠

٧ ـ عنترة بن شداد : ديوان عنترة بن شداد (دمشق ـ المكتبالاسلامي) تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي ـ ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ٠

٨ ـ القالي ، ابو علي : ذيل الأمالي والنوادر (بيروت ـ دارالكتاب العربي) بلا تاريخ ٠

٩ ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء (القاهرة ـ دار المعارف)تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، الطبعة الثانية ـ ١٩٦٦ م ٠

١٠ـ المفضل الضبي : المفضليات (القاهرة ـ دار المعارف ـالطبعة الخامسة) تحقيق وشرح احمد محمد شاكر وعبدالسلام هـارون ـ ١٩٧٦ م ٠

١١ـ الهذليون : ديوان الهذليين (القاهرة ـ نسخة مصـورةعن طبعة دار الكتب ـ نشر الدار القومية للطباعة والنشر)٠ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م٠

★ ★ ★

سوق ساروجا

بدايات نشوء حيّ بدمشق

خلال القرن السادس الهجري

عبد الرزاق معاذ

لقد حظيت مسألة دراسة المدينة العربية الاسلامية منذ حوالي عشرين عاماً باهتمام واضح ، نلمسه بعدد الندوات والمؤتمرات التي تعقد دورياً ، والكتب التي تصدر سنوياً في الدول العربية والأجنبية وتتناول هذا الموضوع ، سواء من قبل المؤرخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع من جهة أم من قبل مهندسي العمارة وتخطيط المدن من جهة أخرى .

وبالنسبة لدراسة تطور مدينة دمشق عبر العصور التاريخية ، فما زلنا نرتكز بهذا الشأن على دراسة مختصرة تعود لعام ١٩٣٤ ، قام بها الباحث الفرنسي جان سوفاجيه(١) ، هذه الدراسة على الرغم من أهميتها وكون الكثير من عناصرها ما زال صالحاً حتى يومنا هذا الا أن ظهور العديد من المعطيات الجديدة ونشر الكثير من المخطوطات التي تتناول تاريخ دمشق ، بعد ظهور هذا البحث ، جعلت مسألة اعادة النظر في هذا المقال حتمية على ضوء هذه الوثائق والمعلومات الجديدة(٢) .

من جهة أخرى تعد مسألة دراسة الأحياء سواء من الناحية التاريخية أم الجغرافية أم العمرانية ، ذات أهمية خاصة ، لكون الحي هو عبارة عن مدينة مصغرة ـ كما يقول سوفاجيه ـ فيه مسجد ومصدر للمياه (طالع ـ سبيل) وحمام وسويقة(٣) .

ولعل سويقة صاروجا أو مايسمى اليوم بسوق ساروجا يعد مثالا نموذجياً لهذه الأحياء التقليدية ، من ناحية التخطيط والعمارة ولما فيه من أوابد تحمل أهمية تاريخية وفنية كبيرة .

ونظراً لما يثار حول هذا الحي اليوم من قضايا ومشكلات تتعلق بحمايته والحفاظ عليه واعادة الاعتبار اليه ، فقد رأينا أن نحاول تسليط الأضواء على فترة هامة من تاريخ

هذا الحي وهي فترة نشوئه وبداياته وذلك قبل أن تعمر السويقة في العهد المملوكي • فقد بنيت في هذه المنطقة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أبنية كانت هي الأوتاد التي نسج عليها النسيج العمراني لهذا الحي •

وسويقة صاروجا (سوق ساروجا) كان يعد ربضاً من أرباض المدينة، ونتيجة من نتائج التوسع العمراني والنشاط المعماري الكبير الذي شهدته دمشق خلال العهدين الأيوبي والمملوكي، هذا النشاط والتوسع بدأ منذ العهد السلجوقي، فمنذ أن تغلب السلاجقة على الفاطميين وطردوهم من البلاد ، استقرت الأمور وانبسطت الرعية وعندها بدؤوا بالخروج من المدينة، وظهرت الأرباض ومنها العقيبة والشاغور • وظهر ميدانان بدمشق وهما الميدان الأخضر في غرب المدينة ، وميدان الحصى في جنوب المدينة ، وكلاهما يمثلان الحياة العسكرية التي كانت تعيشها هذه المدينة نتيجة الحروب الصليبية حيث كان الحكام والأمراء يلعبون الأكرة على الخيل Polo وميدان الحصى كان يؤدي وظيفة أخرى سكنية، تخص : فئات الحكام والسفراء ، والقوافل المهمة ، هذا بالاضافة لكون كليهما مكانين للنزهة بالنسبة لأهل دمشق(٤) •

وفي بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي بدأ ظهور منطقة في الجهة الشرقية من سوق ساروجة اليوم عرفت بالعوينة أو عوينة الحمى ، وكانت وقتها مقبرة صغيرة تحيط بها البساتين ، ثم أنشئت عدة أوابد وقباب هناك مثل التربة النجمية والتربة المعينية وتربة علاء الدين بن زين الدين ، وأسست ست الشام أخت صلاح الدين مدرسة كبيرة هناك ، وتوسعت المقبرة وعرفت بمقبرة النجمية أو مقبرة الأكراد، لأنها خصصت للقادة والجنود الأكراد • وقد ذكر صاحب تاريخ دمشق الكبير ابن عساكر عدة مبان كانت موجودة هناك • أهمها ذكره لمسجد كبير بمنارة(٥) ، وحمام قال بأنه قرب عوينة الحمى ، ومسجد لطيف ، عند عين القصارين التي عند عوينة الحمى ، ومسجد شرقي عين القصارين ، قبل أن يصعد الى عوينة الحمى(٦) •

كذلك كان في هذه البقعة مكان يصنع فيه الورق (ورّاقة) ، فقد ورد في جملة ما أوقف على المدرسة النورية الكبرى : « الوراقة بعوينة الحمى » • وفي هذه البقعة عين تسمى عين علي ، لعلها هي العوينة • [المنجد : خطط دمشق ص ١١١ — ١١٢] •

كما أنشئت هناك دار لبيع الفاكهة تعرف عادة بدار البطيخ ، ولا شك في أن انشاء القلعة في تلك الفترة كان له دور فعال في تلك الفترة في توسع العمران في تلك المنطقة(٧) •

أما في الجهة الغربية من هذه المنطقة (عند جوزة الحدباء اليوم) ، فقد أسس مسجد كبير بمئذنة وهو مسجد الوزير ، ثم أسس قربه حمام حسن •

وفي عام ٦٢٣ هـ فتح شبل الدولة كافور الحسامي خادم حسام الدين لاجين ابن ست الشام طريقاً من عند مقبرة العوينة للصالحية، ولم يكن لها طريق الا من جهة مقبرة باب الفراديس(٨) •

ولا شك في أن في وجود مسجد وحمام في كلا البقعتين يدل على وجود آهلة سكانية هناك ، وعلى بداية ظهور حي سيأخذ اسم سويقة صاروجا في العصر المملوكي نسبة الى صارم الدين صاروجا المظفري (المتوفى عام ٧٤٣ هـ) وكان أميراً بدمشق أيام نائب الشام تنكز ، وهو الذي عمر هذه السويقة(٩) ٠

وسنتعرض فيما يلي للأبنية التي بنيت في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي في تلك المنطقة :

١ ـ مسجد الوزير :

عند رأس زقاق الأرزة(١٠) ، مدخل نزلة جوزة الحدباء ٠

بناه الوزير أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني وزير أمير دمشق ظهير الدين طغتكين الذي حكم دمشق بين عامي (٤٩٨ ـ ٥٢٢ هـ) ، وقد أصبح بعد وفاة طغتكين وزير التاج الملوك بوري بن طغتكين ، وهو الذي أمر بقتله عام ٥٢٣ هـ « لتواطئه مع الباطنيين »(١١) ٠

قال ابن عساكر (المتوفى عام ٥٧١هـ): « مسجد الوزير المزدقاني ، عند رأس زقاق أرزة ٠ كبير ، له منارة وامام ، وفيه سقاية وبركة ، وعلى بابه سقاية »(١٢) ٠

ولا تذكر المصادر شيئاً عن تاريخ بناء هذا المسجد الذي لم يبق منه اليوم سوى كتابة بالخط الكوفي موجودة هناك ، وهذا نصها :

[(١) بسم الله الرحمن الرحيم عمل هذا المسجد المبارك في أيام مولانا الأمير(٢) الاسفهسلار الأجل السيد الكبير ظهير الدين عضد الاسلام ومعتمد الدولة(٣) وشرف الملة وفخر الأمة قوام الملوك عماد الأمراء أمير الجيوش ناصر(٤) المجاهدين قتلغ أتابك أبي منصور طغتكين سيف أمير المؤمنين(٥) فرحم الله من صلا [هكذا] فيه ودعا له بالتأييد والنصر ٠٠٠ أعز الاسلام وأذل الشرك(٦) ورحم الله عبده الوزير الفقير الى رحمة الله تعالى أبا علي طاهر بن سعد(٧) بن علي المزدقاني ٠٠٠ بناه وفي سبيل الله أنفق عليه من خالص ماله] ٠

٢ ـ التربة النجمية :

في العوينة ، جوار المدرسة الشامية البرانية ٠

تنسب الى نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين ، الذي سكن دمشق عام ٥٤٢ هـ ، ولكنه لم يدفن في هذه التربة ، لأنه توفي ودفن بمصر ثم نقل الى المدينة المنورة(١٣)

وكان أول من دفن في هذه التربة ابنه شاهنشاه وذلك في سنة ٥٤٣ هـ(١٤) ، ثم دفن فيها عام ٥٧٥ هـ الملك المنصور حسن ابن السلطان صلاح الدين [كما يدل على ذلك الكتابة التي في البناء] ، وقبره القبر القبلي من القبور الأربعة الموجودة في هذه التربة ،

لأنه سيضاف الى هذه القبور الثلاثة قبر رابع ربما يكون قبر تاج الملوك بوري بن أيوب أخي صلاح الدين الذي توفي عام ٥٧٩ هـ ودفن في حلب ثم نقله صلاح الدين الى دمشق(١٦) .

صفات البناء ومميزاته : بناء حجري عليه قبة محززة على رقبتين الأولى مثمنة والثانية ذات ستة عشر ضلعاً ، وهو أسلوب اشتهر بدمشق في عمارة الترب . وعلى الجدران زخارف جصية . والتربة بحالة سيئة منذ فترة طويلة .

٣ ــ التربة المعينية :

موقعها كما تذكر المصادر : في محلة العوينة ، بين دار البطيخ والمدرسة الشامية البرانية ، أو شمالي دار البطيخ وقبلي المدرسة الشامية(١٧) . وقد هدمت هذه التربة في زمننا .

وهي تربة أتابك معين الدين أنر الأمير الاسفسهلار مقدم عسكر دمشق ، والحاكم الفعلي لدمشق في أيام « أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين الذي كان صغير السن عندما توفي والده تاركاً له حكم دمشق سنة ٥٣٤ (١٨) . وهو والد زوجة نور الدين محمود بن زنكي المدعوة عصمت الدين خاتون ، والتي تزوجها السلطان صلاح الدين عقب وفاة نور الدين . ومعين الدين أنر هذا بنى المدرسة المعينية غرب الجامع الأموي(١٩) .

صفات هذه التربة ومميزاتها : كانت مبنية بحجارة بازلتية ضخمة ، وتماثل في أسلوب عمارتها الترب التي عمرت في تلك الفترة مثل النجمية .

وكان على باب التربة كتابة بالخط النسخي ، وهي الآن في المتحف الوطني ، وهذا نصها :

(١) بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا

(٢) ولا يغرنكم بالله الغرور عملت هذه القبة على قبر الأمير الاسفسهلار الكبير .

(٣) أتابك معين الدين الفقير الى رحمة الله الشهيد السعيد أنر رحمه الله توفي يوم الأحد

(٤) سابع عشر ربيع الأول سنة أربع وأربعين وخمسمائة وأوقفت الخاتون الكبيرة اسار [هكذا] رحمهما(٥) الله على هذه القبة البستان الذي بجهات الفندق واثنا عشر دكان وثلثة عشر بيت وقف عليها .

٤ ــ تربة الأمير علاء الدين بن زين الدين :

في العوينة ، غربي المدرسة الشامية وشرقي التربة النجمية .

هي تربة الأمير الشاب الشهيد علاء الدين بن الأمير زين الدين وقد استشهد عام ٥٦٨ هـ والتي بنتها والدته ، كما يدل على ذلك نص النقش الكتابي على المدخل ، وهو بخط نسخي .

وقد اتبع في عمارتها اسلوب يختلف عن الاسلوب المتبع في النجمية لكون القبة هنـــا قائمة على رقبتين مثمنتين . وفي داخل التربة قبران .

٥ ـ حمام الجوزة :

يقع اليوم في وسط سوق ساروجا .

يرجع تاريخه الى النصف الثاني من القرن السادس الهجري وذلك تبعاً لشكله المعماري، لأننا لا نملك نصاً يذكر لنـا تاريخ الانشاء أو اسم الباني .

القسم الجواني من الحمام لا يزال يحتفظ بشكله الأصلي ومعالمه خلا بعض التعديلات الضرورية ، أما القسم البراني فيعتبر حديثاً . ويعد هذا الحمام من أحسن وأنظف وأنزه حمامات دمشق ، وانما أثرت قلة اقبال الناس عليه على وضعه .

٦ ـ دار البطيـخ :

لم يبق له أثر اليوم .

أطلق اسم دار البطيخ على المكان الذي يباع فيه البطيخ، في بادىء الأمر ، ثم توسع مفهوم هذا المكان ليشمل الموضع الذي تباع فيه الفواكه عامة .

وكانوا يسمون هذه الأماكن باسم ضرب من ضروب الثمار . ففي دمشـق كانت دار البطيخ وفي بغداد مثلها ، أما في القاهرة فكانت دار التفاح .

ويعتقد أن موقـع دار البطيخ يتغـير بتغير الدول وما توالى على المدينة من الحريق والخراب والهدم والبنـاء ، أو لضرورات اجتماعية(٢٠) . ونستطيع تحديد موقعها هنا من نص عند أبي شامة عند كلامه عن معـين الدين أنر « أن قبره في قبته بمقابر العوينة شمالي دار البطيخ الآن » الروضتين ١/ ٦٤ .

٧ ـ المدرسة الشامية الكبرى :

في محلة العوينة ، وتعرف هذه المدرسة أيضاً بالحسامية نسبة الى حسام الدين لاجين ابن ست الشام ، الذي دفنته بها(٢١) . ويدعوها العامة بجامع الشامية اليوم .

أنشأت هذه المدرسة ست الشام بنت أيوب ، أخت السلطان صلاح الدين عام ٥٨٢ هـ وقد توفيت عام ٦١٦ هـ [نستدل على ذلك من الكتابة التي على الضريح الأول داخـل التربة] ، وقد أوقفتها للشافعية .

وقد كانت هذه المدرسة من أكبر المدارس واعظمها ، وأكثرها فقهـاء ، وأكثرهـا أوقافاً . والمدرسـة القائمة اليوم ليست الاجزاء من المدرسة الأصلية . ولهـذا البنـاء مئذنة حجرية مربعة ، وفي وسط الصحن تقوم بحرة مستطيلة تشبه البحرات التي كانت في ذلك العهد . وتضم المدرسة تربة مسقوفـة بعقود متقاطعة بدلا مـن القبة مثلها مثـل

مدرسة الصاحبة وتربة مثقال في الصالحيـة وكلاهما من نفس العهـد • وعلى الجدران الداخلية للتربة نشاهد زخارف جصية تعـدمن أروع الزخارف الجصية بدمشق ، والتي تتجلى فيها العناصر الزخرفية النباتية والزخارف الكتابية البديعة • وتحت هذه العقود ثلاثة أضرحة في الأول دفن الملك المعظم توران شاه أخو صلاح الدين ، صاحب اليمن المتوفى عام ٥٧٦ هـ وقد نقل الى هذه التربة عـام ٥٨٢ هـ كما تدل على ذلك الكتابة التي على الضريح وهي بخط نسخي بديع • وفي الضريح الثاني دفن الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركـوه صاحب حمص ابن عم سـت الشام وزوجها الثاني وقد توفي عام ٥٨١ هـ في حمص(٢٢) ، ونقلته الى هذه التربة ، وعلى الضريح كتابة بخط نسخي أيضاً •

أما الضريح الثالث فهو ضريح ابنهـا حسام الدين عمر بن لاجين من زوجها الأول توفي عام ٥٨٧ هـ ، وقـد دفنت هي بالقبر الذي هو فيه(٢٣) وعلى القبر كتابة •

وفي الجانب الشرقي للمدرسة ملاصق للتربة المصلى وهو مجدد •

أخيراً نرى أن مرحلة البدايات التي تكلمنا عنها ، قد أرسيت دعائمها بواسطـة مبان عديدة ذات أهمية كبيرة ، عمرهـا ولاة الأمر وأفراد أسرهم وأمراء الجيوش ، والذين مازال العديد من تربهم وقبورهم باقيات في الحي حتى يومنا هذا •

ونستنتج أن عمليـة الدفع الحضاري التي شهدتها دمشق منذ بداية العهد السلجوقي وبلغت شأواً بعيداً في العهدين الزنكي والأيوبي ، وتمثلت في توسـع العمـران والنشـاط المعماري ، قـد وضعت الأسس لظهور حـي سيكون لـه شأن كبير في العهدين المملوكـي والعثماني •

ففي العهد المملوكي ، وهو العهد الذي عمرت فيه السويقة ، بنيت منشآت عديدة في هذا الحي وبشكل خاص ترب وقباب مثل تربة صاروجـا ـ وتربـة بتخاص السودوني (التربة البلباتية الثانية) ـ التربة الكـركية الأياسية (في حارة الورد) ـ وتربـة مملوكية (مسجد بندق) ـ التربة البلبانية (تربة سيف الدين بلبان) ـ تربة مملوكية (هدمت حديثاً وتقع تجاه المدرسة الشامية) ـ التربة الدوادارية (هدمت حديثاً ، في جوزة الحدباء) •

وقد بني في ذلك العهد أيضاً مسجد جامع هو جامع الحاجب برسباي (جامع الورد) ـ حمام الورد ـ وجامع ابن المنبري (دثر) بالاضافة لبيوت ذات أهمية وسبلان •

ولا شك في أن اجتياح المغول وتيمورلنك أثر على تطور هذا الحي ، وعلينـا أن ننتظر العهـد العثماني حتى يستعيد هـــذا الحي أهميته ويبلغ أوج تألقه ، ويصبح من أرقى أحياء دمشق ويطلق عليه اسم استانبول الصغيرة » • من ذلك العهد ورثنـا مباني عديدة مثل حمام ومسجد القرماني ومساجد عديدة ، وبيوت تعد من أجمل وأهم بيوت دمشق مثل بيت المرادي الذي هدم في زمننا الحالي ، وبيت سبح الذي هدم أيضاً ، وبيت العظم (متحف دمشق التاريخي اليوم) •

□ الحواشي :

- استفدت لانجاز هذا البحث من المجموعة الوثائقية التي يملكها والدي الباحث والمؤرخ خالد معاذ .

1 — J. Sauvaget : « Esquisse d'une histoire de la ville de Damas », Revue des Études Islamique, IV, 1934.

2 — N. Élisséeff : « Damas à la lumière de théories de Jean Sauvaget », in The Islamic City, Bruno Cassirer Oxford and University of Pensylvania Press, 1970, pp. 157-177.

٣ ـ السويقة هي عبارة عن سوق غير متخصص ، تختص بـالأحياء السكنية ويباع فيه ما يحتاج اليه كل حي من لوازم ضرورية وغذائية بشكل خاص . J. Sauvaget : « Esquisse », p. 452-453 .

٤ ـ Ibid, p. 460 وراجع بحثنا اسهام المرأة في العمارةبدمشق خلال العهد الأيوبي ، التراث العربي ، العدد ٢٩ ، تشرين اول ١٩٨٧ ، ص ٢١٦ ـ ٢٢٥ .

٥ ـ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الثانية القسم الأول ـ خطط دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ص ٨٧ .

٦ ـ المصدر السابق ص ١٦٤ .

٧ ـ صلاح الدين المنجد : خطط دمشق ، بيروت ، ١٩٤٩ ، ص ١٠٦ ـ ١٠٨ .

٨ ـ أبو شامة : ذيل على الروضتين ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص١٥٠ .

٩ ـ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ، بدون تاريخ ، ١٣٨/٦ .

١٠ ـ أرزة : محلة مكانها اليوم حي الشهداء في طريق الصالحية . ابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، القسم الأول ، ص ١٨ مقدمة المحقق .

١١ ـ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق : آمدروز ، ليدن ، ١٩٠٨ ، ص ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ .

١٢ ـ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (خطط دمشق) ص٨٨ ، وانظر أيضا ابن شداد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق : سامي الدهـان ، دمشق ،سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ ، ص ١٢٨ ، ١٤٧ .

١٣ ـ ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ،بدون تاريخ ، ٢٧٢/١٢ . ابن ابراهيم الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق : ناظم رشيد ، بغـداد ، ١٩٧٨ ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

١٤ ـ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، بـيروت ،بدون تاريخ ، ١ / ٥٥ .

١٥ ـ المصدر السابق ١ / ١٤١ .

١٦ ـ ابن كثير : البداية ١٢ / ٣١٣ .

١٧ ـ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٦ ـ أبو شامة :الروضتين ١ / ٦٤ .

١٨ ـ أبو شامة : المصدر السابق ، نفس الصفحة . ابن خلكان : وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، بدون تاريخ ، ٤ / ٩٧ .

١٩ ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفرالحسني ، دمشق ، ١٩٤٨ ، ١ / ٥٨٨ .
٢٠ ـ المنجد : خطط دمشق ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .
٢١ ـ أبو شامة : ذيل على الروضتين ، ١ / ١١٩ .
٢٢ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢ / ٤٨٠ .
٢٣ ـ أبو شامة : ذيل على الروضتين : ١ / ١١٩ .

التعاون الثقافي الإسباني العربي

راشد الكيلاني

تبذل اسبانيا جهودا كبيرة من أجل نشر لغتها والتعريف على حضارتها العريقة في مختلف أرجاء العالم، وعلى الأخص في بلدان أمريكا اللاتينية والعالم العربي ، فشعوب أمريكا اللاتينية يعتبرون اسبانيا هي الوطن الأم ، فثقافتهم من ثقافتها ، وحضارتهم من حضارتها ، ولغة معظمهم هي لغتها نفسها •

أما في العالم العربي فقد يكون الأمر مختلفاً • فالثقافة العربية هي أحد الروافد الرئيسة للحضارة الاسبانية ، اذ امتزجت هاتان الحضارتان في الماضي وتفاعلتا طوال ثمانية قرون ، لينتج عن ذلك حضارة خاصة • فموقع اسبانيا الجغرافي جعلها صلة وصل بين أوروبا والعالم العربي ، وقد قامت اسبانيا برسالة حضارية بناءة في هذا الصدد. ويقوم المعهد الاسباني العربي بمدريد الذي كان يرأسه السيد سفير اسبانيا بدمشق حالياً خيسوس ديو ساليدو بنشاطات ملحوظة وأعمال كبيرة ، هدفها احياء التراث العربي الاسباني ، كاصدار الكتب والمؤلفات والقاء المحاضرات وطبع المخطوطات واقامة الندوات ، كندوة عبد الرحمن الأول صقر قريش التي استضافتها دمشق منذ عهد قريب • هذا بالاضافة الى المراكز الثقافية الاسبانية المنتشرة في معظم العواصم العربية ، والتي تقوم بجهود مشكورة ، وأخص بالذكر هذا المركز الذي نحن برحابه ، والذي يقوم بنشاط واسع ، بفضل عمل رئيسه السيد خوان ماركو سانشيس وباشراف وتوجيه السفارة الاسبانية بدمشق •

علت صيحات في الماضي في اسبانيا تطلب طمس كل أثر عربي ، وتقول بوجوب محو الحقبة العربية من تاريخ اسبانيا • وقد انجر بادىء الأمر الى اعتناق هذا التفكير كثيرون ، خاصة خلال فورة الانتصار حيث كان يسود شعور الكراهية ، لهؤلاء الذين كانوا يحكمونهم باسم دين غير دينهم ، وباسم قومية غير قوميتهم • غير أن العقل والمنطق ما عتما

أن تغلبا ، فأوقفوا تبديل معالم الآثار والأوابد العربية ، بل وباشروا بترميم ما أصابه التلف منها ، فهذه المعالم هي الآن ملك لهم وتشكل جزءاً من تاريخهم ، فعليهم أن يحافظوا عليها دون تبديل أو تغيير ، فهي ليست ثروة عمرانية وحضارية فحسب ، لكنها مصدر هام لجذب السياح من كل حدب وصوب ، وهكذا أصبحت السياحة في اسبانيا من أكبر الصناعات التي تدر عليها الربح الوفير • فتطوّر التفكير واعتبرت حقبة الحكم العربي جزءاً من تاريخ اسبانيا مثله مثل باقي العهود ، الروماني والجيرماني والقوطي ، فحضارة الأمة هي محصلة لمختلف الحضارات المتعاقبة عليها عبر تاريخها • والحقيقة فان هذه الحضارة التي سطع نجمها في اسبانيا ، لم تكن قائمة على أكتاف العرب وحدهم ، بل اشترك في انشائها جميع سكان الأندلس من عرب واسبان وبربر • وقد اعتنق الاسلام أعداد كبيرة من سكان شبه الجزيرة الايبرية ، ومع مرور الزمن أصبحت لغتهم هي العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم ، بالاضافة الى أن السكان الذين فضلوا الاحتفاظ بدينهم ، قد تعربوا كذلك، فصار قسم كبير منهم مبرزين في مختلف العلوم والآداب والفنون • ان هذا التعاون الحضاري الذي جرى في اسبانيا بين الشرق والغرب قد أعطى البشرية خيراً كبيراً، وكانت له ثمار يانعة القطاف ، فتبادل الثقافات بين الشعوب مع الاحترام المتبادل والمعاملة العادلة قد أدى الى تفتق العبقريات وتفتح العقول في الماضي ، ويجب أن يؤدي الى نفس هذه النتائج في هذا العصر •

لم يكن من عادة العرب اكراه الشعوب التي يحكمونها على اعتناق الاسلام ، بل تترك لهم الحرية بعد أن تبين وتشرح لهم أصول الشريعة الاسلامية وأحكامها ، فمن يعتنق الاسلام يصبح متساويا مع بقية العرب المسلمين في الحقوق والواجبات ، له ما لهم وعليه ما عليهم « لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى » • أما من يبقى على دينه فهو حر في عباداته وطقوسه وعاداته ، ولا فرق في المعاملة بينه وبين المسلم الا في دفع الجزية مقابل اعفائه من تادية الخدمة العسكرية • هذه هي أوامر القرآن « لا اكراه في الدين »•

وقد مهد العرب لجميع الشعوب التي حكموها الطريق للاندماج في مجتمعهم ، وافسحوا لهم المجال لتقلد جميع الوظائف والقيام بجميع الأعمال التي يرغبون القيام بها •

لم يجد طارق بن زياد وموسى بن نصير صعوبة كبيرة في احتلال شبه الجزيرة عام ٧١١ م • ذلك أن الأوضاع فيها كانت سيئة للغاية ، فالهوة كبيرة بين الحكام وأفراد الشعب الذين كانوا يعيشون في حالة بؤس ، ويلاقون صنوف الاضطهاد والتفرقة الاجتماعية والاقتصادية ، لذلك رحبوا بالفاتحين الجدد واطمأنوا لعدالتهم وحسن معاملتهم • غير أن عهد الفتوحات الأولى الذي يدعى بعهد الولاة والذي دام ١٤ عاماً ، لم يكن سوى عهد تثبيت للحكم ، فعهد الازدهار قد بدأ مع عبدالرحمن الأول صقر قريش ، الذي فرّ من دمشق متخفياً خوفاً من بطش العباسيين اثر سقوط الدولة الأموية • وكان أن أصبح هذا الشاب الأموي المغامر والطموح ، بعد اجتيازه مضيق جبل طارق بوقت قصير سيد

الأندلس بلا منازع ، فجلب اليها الاستقرارخلال حكمه الذي دام زهاء ثلث قرن ،وأخذت في أيامه تتفتح أكمام الثقافة والأدب والفن،وتتقدم مختلف العلوم ، وتطرق الحضارة القادمة من المشرق العربي أبواب الأندلس ،فتفتح أمامها هذه الأبواب مشرعة على مصراعيها لتلجهاالرفاهية والتقدموالازدهار ٠

ان الحديث عن الحضارة الأندلسية اوحضارة اسبانيا المسلمة يبقى مبتوراً مهما كان عميقاً ، ذلك لأن تاريخ هذه الحضارة لم يكتب بعد بشكل صحيح ، ويجد الباحث متفرقات عن هذا التاريخ مبعثرة هناوهناك.وقد وصلت هذه الحضارة الى ذروتها في وقت من الأوقات عمقاً وشمولية وعطاء ٠ ولم تشهد قط شبه جزيرة ايبريا نظير ما شهدته خلال الحقبة العربية الاسلامية٠ وعلى الرغم من أن العديد من معالم هذه الحضارة قد ضاع ، فان ما نجا من الدمار قد قدم للعالم معلومات وثروات لا ينضب معينها ، تشهد على أن هذه الحضارة قد كانت أساساً لعهدالنهضة في أوربا [رونيسانس] ٠

تقول الباحثة الألمانية الدكتورة سيجفريد هونيكيه في كتابها « فضل العرب على أوروبا » « ان العرب قد حملوا رسالةعالميةوان الدين الذي في عنق العالم للعرب كبير ٠ ان العرب أصحاب نهضة علمية فاقت كثيراًما تركه اليونان أو الرومان ، فقد بقوا ثمانية قرون يشعون على العالم علماً وأدباوفناً ، وهم الذين أخرجوا أوربا من الظلمات الى النور ٠ وتضيف قائلة : ان المثل الاسباني هو أكبر دليل على ما أقول ٠ فقد أصبحت في غضون مائتي عام من الوجود العربي فيها ،بلداً غنياً متقدماً ، ارتفع مستوى حياةشعبه، وانتشر فيه التعليم وازدهرت الثقافة بين سائر طبقاته ، فأضحت اسبانيا علمياً وفنياً أرقى من سائر الدول الأوربية ، وصارت مثلاً يحتذى وهدفاً يقصده طلاب المعرفة من كل فج ، وظلت تحمل لواء العلم والمعرفة خمسمائة عام ٠ وقد عرفت اسبانيا كيف تتلقى وتنقل الثقافة العربية التي ورثت الثقافات القديمة اليونانية والفارسية والهندية عرفت كيف تنقلها الى أوروبا ،كانت هذه الرسالة التي نهضت بها اسبانيا تستحق التقدير والاعجاب ٠ ان القول بأن دور العرب لم يتعد دور ساعي البريد الذي اقتصر على نقل التراث القديم الى أوروبا عن طريق اسبانيا ولم يأت من عنده بجديد هو افتراء٠ فان ماوجده العرب عند الأمم الأخرى لم يكن كافياً لسدحاجاتهم وارضاءطموحاتهم فأقبلوا على البحث والتنقيب الذاتي ،فكان لهم انتاج وافر في مختلف النواحي العلمية والأدبية والفنية والفلسفية ، وهذا الانتاج وان اعتمد على تراث من سبقهم الا أنه كان نتاجاً خاصاً بهم ، أغنوا به العالم وقدموا ثروات لا تقدر بثمن لأسس الحضارة الانسانية ٠ ا هـ » ٠

خطت الأندلس خلال العهد الأموي الذي دام ثلاثة أضعاف حكم أجدادهم في دمشق ، خطوات جبارة في مختلف نواحي الحياة ٠فتقدمت الزراعة تقدماً ملحوظاً ، بحيث أصبحت اسبانيا مزرعة كبرى ٠ واستخدموا فيها وسائل تقنية متقدمة كما جلبوا اليها أنواعاً جديدة من المزروعات والخضار والفواكه من المشرق ، كالنخيل والوردة الدمشقية والمشمش

الذي يدعى بالاسبانية دمشق وغير ذلك كثير. فعندما يقصد أحد الأوربيين اليوم صيدلية أو حانوت ترياق ، ويطلب شراء جوزة الطيب والقرفة والجنزبيل والكمون والطرخون والعنبر فانما يتكلم بمفردات عربية ، جاءت معرفتها عن طريق العرب ، وأضفت على حياة الأوروبي الكثير من المتعة والرفاه ،

أما العمران فقد خطا خطوات جبارة في العهد الأموي وما بعده ، بدأه عبدالرحمن الأول واستمر به خلفاؤه فيما بعد ، فبنوا المدن والقصور والمساجد والمدارس والمستشفيات ، وأقاموا السدود لجمع المياه وتقلوها بواسطة القناطر والأقنية من أماكن بعيدة .

ويعد جامع قرطبة آية في الفن ، يقوم على ١٨٠٠ عمود من المرمر ، موزعة بطريقة تخلب الألباب ، وكان المصلون يدخلونه من ٢١ باباً مزينة بأجمل النقوش . كما أقيمت في قرطبة منشآت عمرانية آية في الروعة ، أشهرها ضاحية الزهراء التي أنشئت على طبقات متدرجة ، على منحدر جبلي ، ففي الطبقة السفلى انبسطت الحدائق والبساتين ، وفي الطبقة الوسطى قامت منازل موظفي البلاط ، أما قصر الخليفة فكان يشرف على كل ذلك ، وهو آية في الروعة والفخامة . زينت قاعته الكبرى بالذهب والرخام ، وأشرقت في وسطها جوهرة كبيرة أهداها امبراطور القسطنطينية للخليفة . وكان للقصر ١٥٠٠ باب وفيه ٤٣٠٠ عمود . أما قرطبة عاصمة الخلافة فقد أصبحت مدينة عظيمة ، بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة في مقتبل القرن العاشر ، وكان بجوارها ٢٨ ضاحية وفيها ١١٣ ألف مسكن بينما لم يكن في أوربا مدينة عدا القسطنطينية لديها أكثر من ٣٠ ألف مسكن ، كما كان في قرطبة (٦٠٠) مسجد و (٣٠٠) حمام و (٥٠) مستشفى و (٨٠) مدرسة عامة و (١٧) معهداً تربوياً و (٢٠) مكتبة عامة . أما عدد سكان الأندلس فقد بلغ في القرن العاشر (٣٠) مليون نسمة . وكانت قرطبة مركزاً تجارياً كبيراً يعيش معظم سكانها عيشة رافهة . وقد بلغ دخل الدولة من الضرائب أكثر من ستة ملايين دينار في العام ، كان يرصد ثلثه لتغطية نفقات الدولة الجارية ، وثلثه على مشروعات العمران ، ويدخر الثلث المتبقي كاحتياط في خزانة الدولة . وقد اضطر تجار قرطبة في احدى السنين ، الى حرق كميات كبيرة من القمح لعدم تدني الأسعار .

غير أن أعظم آثار الحضارة الأندلسية أو اسبانيا المسلمة هي الانجازات العلمية والثقافية ، وهي التي كونت حضارة الأندلس ، ورسخت جذورها ، وجعلت تأثيراتها عظيمة على البلاد التي حولها ، فأصبحت مركز اشعاع للعلم والمعرفة ومحجة يقصدها طلاب العلم من كل حدب وصوب . ولم يقتصر هذا الاهتمام بنشر العلم على عهود القوة أيام الدولة الأموية ، بل سار على هذا المنوال ملوك الطوائف أيضاً ، حين انفرط عقد الخلافة ، وأصبحت الدولة دويلات متعددة . أما خلال العهد الثاني للقوة ، أيام حكم المرابطين والموحدين ، فعلى الرغم من انصراف هؤلاء الى حياة الخشونة والزهد ، جرياً على طريقتهم الدينية المتزمتة ، فان خلفاءهم ما عتموا أن عادوا فاندمجوا في حياة الأندلس

الراقية ، وجذبتهم ثقافتها وحضارتها ،فأكملوا رسالة أسلافهم في رفع راية العلم والأدب والفن ، وأطلاق حرية الفكر ٠

ولا شك بأن الاقبال على الثقافة والعلم يتطلب العناية بالكتب والحصول عليها ،لذا فقد شُغف الأندلسيون عامة وأهل قرطبة بشكل خاص باقتناء الكتب ٠ ففي ضاحية قرطبة الغربية فقط ، كانت /١٧٠/ امرأة تكسبن عيشهن من نسخ الكتب ٠ وكان ينشر في قرطبة كل عام /٦٠/ ألف كتاب ، كما كان في مكتبة الحكم الثاني /٥٠٠/ ألف كتاب وقد علق على هوامش الكثير منها ، كما كان يحمل مكتبته معه على ثلاثين جملا أينما ارتحل. ويقال بأن فريدريك الثاني ملك صقلية النورماني قد اقتدى به بحمل مكتبته معه في ترحاله ٠ وقد قلد الأندلسيون ملوكهم ورؤساءهم ، فكان وجود مكتبة في كل منزل ، من مستلزمات الحياة الاجتماعية والثقافية ٠

يذكر المؤرخون بأن محمد بن اسحق الذي كان سفيراً لدى بلاط بيزنطة ، علم أنه يوجد في الأناضول مكتبة يونانية عظيمة الشان ، في أحد المعابد اليونانية القديمة المغلقة، فطلب الحصول على هذا الكنز الثمين ، لكن الامبراطور رفض فتح المعبد الذي أغلق منذ أن اعتنق البيزنطيون المسيحية ، الا ان السفير العربي أصر والحف بالرجاء ،وأخيراً أذن الامبراطور له فحمل من المعبد ألفاً من المخطوطات ، كان بعضها ممزقاً وبعضها الآخر قد أتلفته القوارض ٠ وقد قدم إنقاذ هذه المكتبة خدمة كبرى للحضارة الانسانية ٠

بينما نجد الدولة المنتصرة اليوم تطلب من الدولة المهزومة تسليمها ما بحوزتها من سلاح وعتاد ، نسمع أن الحكام العرب كانوا يطلبون من خصومهم عند انتصارهم بالمعارك تسليمهم المخطوطات التي لم تترجم الى العربية بعد ، كما فعل كل من هرون الرشيد والمأمون، فهذه الكتب ، كما قال المأمون ، هي الأسلحة العقلية التي يُتسلح بها في سبيل السلام ٠

قامت لجنة اسبانية بالكشف على التراث العربي الذي أمكن انقاذه ، والموجود في المكتبات الاسبانية ، فتبين لها أن هناك ثروة من المخطوطات العربية لا تقدر بثمن ٠

كان في قرطبة سوق لبيع وشراء الكتب،وكان يقال اذا أراد اشبيلي أن يبيع كتبه أتى بها الى قرطبة ، واذا أراد قرطبي أن يبيع آلاته الموسيقية أتى بها الى اشبيلية ٠

أما المدارس والمعاهد التعليمية فقد كانت منتشرة في كل مكان ، وكان الطلاب يقطنون فيها ، كما يتناولون في معظم الأحيان مرتبات شهرية ، لسد حاجاتهم ونفقاتهم الخاصة ٠ أما الطريقة العادية لطلب العلم فهي التوجه الى الجامع ، فالمساجد ليست للعبادة فحسب ، بل هي دور للعلم أيضاً ٠

ازدهرت الجامعات في الأندلس منذ القرن التاسع م ، وصارت تجذب المتعطشين للعلم من سكان أوروبا ، ومن أشهر الذين تخرجوا منها جيربر تودي أوفرنيا الذي جلس على كرسي البابوية فيما بعد باسم البابا سيلفستري الثاني ٠ أما حركة الترجمة فقد

نشطت نشاطاً كبيراً ، وكانت تجري باتجاهين، أولهما ترجمة أمهات الكتب الى العربية وثانيهما ترجمتها الى اللاتينية ، وأهم مركز للترجمة كان في طليطلة ، ويرجع فضل كبير لمطران طليطلة ريموندو بتنشيط حركة الترجمة الى اللاتينية ، وكان من أشهر المترجمين الشماس دومينجو كونسالفو وخوان بن داود، اللذين ترجما كتب ابن سينا والغزالي وابن جبرول ، وقام يوحنا الاسباني بترجمة كتب الخوارزمي · كما قام اليهود والاسبان المستعربون بالتأليف أيضاً ، فقد وضع ابن عزرا عدة مؤلفات في الفلك والطب والفلسفة. أما ابن ميمون الذي تولى التدريس في جامعة اشبيلية ، فقد وضع مؤلفات في الفلسفة والطب ، ثم رحل الى المشرق وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين الأيوبي · ولكننا نستطيع القول بأن أشهر المتحدرين من أصول اسبانية من بين علماء الأندلس هما : ابن رشد وابن حزم · فقد وضع ابن حزم مؤلفه الشهير « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وهو كتاب لم يسبق له نظير في الأدب العالمي · يحوي دراسة مقارنة بين مختلف الديانات والنحل اليهودية والمسيحية والاسلامية · كما ألف كتاب « طوق الحمامة » وهو مقطوعات غنائية نثرية وشعرية في الحب والعشق ، وقد كان له تأثير كبير في ادخال فكرة الحب العذري في الأدب الأوروبي · ويقال بأن شعره هذا كان من الأسس التي قامت عليها أناشيد التروبادور أي شعراء الطرب الجوالين ·

وصل طليطلة جورد فون كريموناموفداً من قبل ملك صقلية ، لترجمة كتاب الماجسطي المشهور لبطليموس ، ولكن ما ان حل هذا الرجل في اندلس ، حتى استولت عليه الدهشة ، من علو شأن هذه الثقافة التي أصبحت بمتناول يده ، فبقي مدة عشرين عاماً في الأندلس ، ترجم خلالها أكثر من ثمانين كتاباً الى اللاتينية ·

وما كادت أوروبا تتسلم هذه الثروات القيمة من العلوم والمعارف ، حتى تفتحت العقول فيها وجاءت بنتائج خيرة ، فبدىء بانشاء الجامعات العلمية وكان أولها جامعة سالرنو الطبية في ايطاليا ، ثم تدفقت هذه الينابيع الثرة الى مونبلييه وبولونيا وباريس واوكسفورد وغيرها ، وكانت هذه الجامعات تستخدم الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية ·

والطبيب الذي يبرز اسمه في هذا المجال هو الرازي وكتابه « الحاوي » الذي هو دائرة معارف طبية كبرى ·

كانت نسخة من هذا الكتاب موجودة في مكتبة كلية الطب بباريس ، وعندما أراد استعارتها ملك فرنسا لويس الحادي عشر طُلب اليه دفع تأمين باهظ ، نظراً لحرص الكلية الكبير على هذا الكتاب ·

والرازي هو الذي استطاع القضاء على شهرة جالينوس بالطب ، وكان ممن اقتدى به العالم الاسباني آرنولدو في القرن الثالث عشر ، الذي أتقن العربية وتعمق في دراسة التراث العربي ·

ويلي الرازي ابن سينا الذي عرف بكتابه « القانون في الطب » ·

وكذلك الزهراوي الأندلسي مؤلف كتاب« الجراحة والآلات الجراحية » الذي اشتهر بعلاج الأورام السرطانية وبتحضير الأدوية .

أما ابن رشد الأندلسي فهو صاحب الرأي القائل بأن أسباب الأمراض والأوبئة يجب التحري عنها خارج جسم المريض ،وهذه اشارة الى نقل الأمراض والأوبئة الى الانسان من قبل الجراثيم . ولابن رشد سبعة كتب طبية تسمى الكليات Colget ، هي شروح لكتاب القانون لابن سينا . هذا اضافة الى مؤلفاته الأخرى في باقي العلوم .

وبقيت هذه الكتب عمدة دراسة الطب في العالم لعدة قرون . وكان الطب يعتبر في بلاطات الأندلس أرفع العلوم شأناً .

ومن جملة اكتشافات الأندلسيين الطبية جرثومة الجرب ، التي اكتشفها ابن زهر ، كما وضعوا قواعد التشخيص ، معتمدين على النبض والبول . ويجب ألا ننسى ابن البيطار الذي كان أكبر عالم نباتي لا في الأندلس وحدها بل في العالم . فقد ألف كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » الذي حوى بين دفتيه جميع المواد الصيدلية في عصره . ثم تابع العلماء الاسبان وغيرهم من الأوربيين ، فوضع كوفيير تصنيفاً للنباتات الطبية على شكل قاموس يشبه تصنيفات العصر الحديث.

جاء في كتاب « فضل العرب على أوروبا» ، الخطاب التالي المرسل من أحد نزلاء مستشفى عربي في الأندلس الى والده منذ عشرة قرون . وهو يظهر مدى التقدم الطبي والرعاية الصحية في تلك العصور ، سواء كان هذا الخطاب حقيقياً أم وهمياً تصورياً :

والدي العزيز : « لا تحضر الي نقوداً عند زيارتك لي ، لأنه سيصرف لي عند مغادرتي المستشفى خمس قطع نقود ذهبية وكسوة جديدة ، لئلا أضطر للعمل خلال النقاهة . انني أقيم في القاعة الخارجية قرب المصحة الشعبية حيث يكشف فيها على المريض القادم مجدداً الأطباء وبرفقتهم الطلبة . وقد يعرض المريض اذا لزم الأمر على كبير الأطباء ، ومن ثم يحمله الممرض الى قسم الرجال بعد أن يحممه ويلبسه ملابس المرضى. نحن نتناول كشف الأدوية من صيدلية المستشفى ، وعلى يمين قاعتي يوجد قسم الجراحة ثم قسم النساء وبعده المكتبة فقاعة المحاضرات فالقاعة النهارية التي يرتاح فيها المرضى ويستمعون للموسيقى » ا. هـ «وكان في قرطبة وحدها خمسون مستشفى شبيهاً بهذا المستشفى .

قام في القرن الثاني عشر نفر من الحجاج الأوروبيين بزيارة قبر الرسول يعقوب في شمال اسبانيا، فعادوا ومعهم أول ورقة دخلت أوروبا ، فتهافت القوم على استيراد الورق من الأندلس . وهكذا انتشر الورق في العالم فقُضي بذلك على احتكار العلم والمعرفة . فقد نقل العرب صناعة الورق عن الصينيين، ولكن الصينيين يقرون بأنهم اقتبسوا استخدام البوصلة عن العرب ؟ والأندلسيون هم أول من استخدم البارود في أوروبا ، فقد أحدثت مدفعيتهم في القرن الرابع عشر الذعر الشديد في المعارك حتى اعتُقد وقتذاك أن الساعة قد اقتربت وأن الدنيا قد آذنت بالزوال .

ان ما يسمى بالفن المدجن Arte mudejar في العمارة هو في الواقع من عمل المدجنين ، أي العرب الذين بقوا في اسبانيا بعد زوال الدولة العربية • وقد أثبت لامبير الأساس الأندلسي لطراز عقد القناطر في الهندسة القوطية التي انتقلت من جامع قرطبة الى قناطر الكنائس في فرنسا وانكلترا.

أما الزخرفة فتأثيرها أقوى ، وكان في مقدمتها الزخرفة بالخط الكوفي الذي هو أجمل خط عرفه الانسان • وقد زخرفت به واجهات بعض الكنائس ، حيث وجد بينها تحميدات اسلامية نقلها الفنانون دون أن يتثبتوا من معانيها •

وضع الأندلسيون مؤلفات قيمة في علم الجغرافيا ، أهمها السفر الضخم للشريف الادريسي ، وضعه في القرن الثالث عشر بناء على طلب ملك صقلية روجر الثاني النورماني وسماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وأرفقه بكرة أرضية صنعها من الفضة ، قطرها متران • وكان الادريسي قد أكمل علومه في قرطبة ، وقام في سبيل وضع كتابه هذا برحلات استكشافية طويلة ، الى القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا دامت ربع قرن •

كما يدين العالم في الرياضيات بكثير من الفضل للعلماء الأندلسيين • ومن المعلوم أن كلمة الجبر Algebra هي عربية وتعني جبر الكسور • كما أن علم اللوغاريتمات قد وضعه العالم العربي الخوارزمي وسمي باسمه المحرف • أما الأرقام فقد اقتبسها العرب عن الهنود وانتقلت الى أوروبا من الأندلس ، وأطلق الأوروبيون لفظة الصفر على هذه الأرقام Chiffre لأنهم اعتبروا الصفر هو أبو الترقيم وهو كذلك في الواقع •

وكان الفلك من العلوم المحبوبة عند الأندلسيين وكان برج مئذنة اشبيلية الذي دعي فيما بعد الخيرالدا Algeralda يستخدم مرصداً ، ومن المعروف أنه كان يصعد الى هذا البرج أو هذه المئذنة على ظهر الدابة لأن طريقها ذو سطح مائل وهي ذات بناء هائل• وقد صنع عباس بن فرناس المشهور بأنه أول من طار بالأندلس ، صنع قبة تشبه قبة السماء الطبيعية ، وأبدع في تمثيل الأفلاك فيها ، حتى كان يخيل الى الناظر اليها ، أنه يرى النجوم والغيوم والبرق والرعد بشكلها الحقيقي • وقد أنشأ الملك ألفونسو العاشر ملك كاستيبا (قشتالة) مرصداً في مدينة بورغوس بواسطة مستشار يهودي درس في الأندلس •

كان البيروني أول من قال بأن الشمس هي مركز الكون عام ١٠٠٠ م وذلك قبل أن ينادي كوبيرنيك بذلك •

وطبق الأندلسيون الرياضيات في دراسة الموسيقى كما عرفوا الأنغام المسجلة (النوتات) قبل أن يعرفها الايطالي جويدو دي أريتسو الذي عزي اليه اكتشافها • كما أن معظم الآلات الموسيقية الحديثة هي تطوير للآلات التي كان يستخدمها العرب ، مثل القيثارة والطنبور والرباب والبوق والناي • ومن المعروف أن البيانو هو ابن القانون • ويعتبر

المغني الأندلسي زرياب أعجوبة زمانه ، وهوالذي طور العود فجعله أخف وزناً بثلثالعود القديم ، وأضاف الى أوتاره وتراً خامساًكذلك ·

عندما يسمع الانسان الموسيقى الاسبانية الأصلية والغناء الفتان المسمى فلامنكو، يشعر بالحال بالعلاقة الوثيقة بينه وبين الموسيقى والغناء العربي · فقد تأثر كل منهما بالآخر ، وظهر فن جديد بين هذا وذاك ·

ان ما نلمسه في شعر الأندلسيين من رقةفي الأحاسيس وعمق بالعواطف ، ومناستجابة لمفاتن الطبيعة ، انما هو ارث اسباني ، كماأن شعر الزجل والأرجوزة والموشحات ما هي الا فن أندلسي تأثر بالشعر الاسبانيوأدخلالى العربية · كما أصبح شائعاً في أوروبا ولكن بطريقة أخرى ، على ألسنة شعراءالغناء الجوالة التروبادور وهذه الكلمةأصلها عربي من الطرب · فقد اجترأ شاعران مولدان من أصول اسبانية هما الأعمى ابن معافى وابن قزمان ، مبتكرا الزجل والأرجوزة ،علىتحطيم وحدة الشكل الروتينية التي تمتاز بها القصيدة العربية ، فجزءاها الى أسماطمتعددة ، مقلدين في ذلك الشعر الاسباني ·

يعتبر ابن رشد القرطبي Averros من اشهر فلاسفة الأندلس الذين مهدوا بواسطة مؤلفاتهم وشروحهم لدراسة الفلسفةاليونانية عامة وفلسفة أرسطو خاصة · وقد وُجد في مكتبة الاسكوريال بمدريد /٨٧/مؤلفاً لابنرشد في الطب والفلسفة وغير ذلك. وكان لآرائه تأثير كبير على الفكر الفلسفيالأوروبي ، فنشأ تفكير أو طريقة فلسفية تدعى بالرشدية ، توافر لها أنصار في أوروباطوال قرنين · أخذ عنها القديس توما فكرة ضرورة الوحي الالهي ، وأخذ عنها سيجرمسالة قدم العالم ، أي أن هذا العالم ليس مخلوقاً في الزمان ، بل هو قديم قدم الباري نفسه ، وأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات · غير أن هذه الأفكار الجريئة قد جلبت عليه نقمة الفقهاء بالأندلس التي أدت الى محنته وكراهية الكنيسة التي حرّمت نظرياته ·

أما ابن خلدون الاشبيلي فقد حاول فيمقدمته التيجعلها مدخلا لكتاب تاريخعصره، أن يرسم الخطوط الكبرىلأولفلسفة تاريخيةعرفها الفكر الانساني ، وتوصل الى مجموعة من الأفكار والاستنتاجات الثاقبة بتجربته العملية ، نتيجة لتنقلاته وخدماته الكبرى لحكام عصره في المشرق والمغرب العربي ،كوزير ودبلوماسي وقاض ومفاوض ،فيحقبة تاريخية مضطربة · ويعتبر ابن خلدونالمؤسس لعلم الاجتماع · وقد أخذ عنه الغربيون الكثير من نظرياته وقوانينه فيهذاالعلم ، وكان له تأثير على العالم لعدة قرون·

كان بسكال يقول لمن يريد أنيحثهم علىالاعتقاد بوجود الآخرة : اذا كسبتم كسبتم كل شيء ، واذا خسرتم لم تخسروا شيئاً ·وكانتأثير الغزاليعلى بسكال ظاهراًفالغزالي قد أورد في حجته عن نفس الموضوع قولعليبن أبي طالب لمن يماري بوجود الآخرة : ان كان الأمر على ما زعمت تخلصنا جميعاً ،وانكان كما قلتُ هلكتَ ونجوتُ ·

أما دانتي الشاعر الايطالي الكبير فقدتأثر بكتب محي الدين بن عربي وبقصة المعراج ، فتصويره للجحيم والجنة في رائعته الكوميديا الالهية ، يشابه تشابهاً تطابقياً في بعض الأحيان ، ما جاء في قصة المعراج مع تفصيلاته الدقيقة .

أما الطبيب والفيلسوف ابن الطفيل الاشبيلي ، أستاذ ابن رشد ، فقد وضع قصته الفلسفية (حي بن يقظان) التي استعار اسم بطلها ، من رسالة رمزية صوفية لابن سينا . فقد تخيل ابن الطفيل أن حي ابن يقظان هذا هو صبي يتيم ، تُرك ليعيش وحده في جزيرة منعزلة ، فاستطاع بواسطة التأمل ، أن يقوده تفكيره الى وجود الخالق ، كما اكتشف بطريق الاتصال بالطبيعة الأسس الضرورية لقوانين هذه الطبيعة . وقد ترجمت هذه الرسالة الى مختلف اللغات وحازت اعجاب المفكرين . وقد أوحت هذه القصة الى ديفو بقصة روبنسون كروزو الشبيهة بها .

ترك رحالتان عربيان للتراث الانساني والثقافة العالمية صورتين زاهيتين عن الحضارة الشرقية في عصرهما . وهما ابن جبير المولود في بلنسية عام ١١٤٥ م وابن بطوطة ، المولود في طنجة عام ١٣٢٥ م أبحر ابن جبير عام ١١٨٣ لأداء فريضة الحج ، وما ان انتهى من حجه حتى بدأ رحلته الأولى الى بغداد فالموصل فحلب فدمشق فعكا ، ومنها الى صقلية ، ووصل غرناطة عام ١١٨٥ م أي أن رحلته دامت ثلاثة أعوام . غير أن الحنين الى الأسفار لم يلبث أن جذبه بعد أربع سنوات ، فولى وجهه مرة أخرى قِبَل المشرق ، حيث قضى عامين آخرين . وعندما بلغ سن الثالثة والسبعين غامر برحلة أخيرة الى الشرق أيضاً ، ولكن المنية أدركته قبل أن يصل الى الاسكندرية . وكان قد دون قبل ذلك مشاهداته بأسلوب بارع خال من تصنع المحترفين .

والخلاصة أن الشعب العربي والشعب الاسباني قد تعاونا أثناء أحقاب زمنية متطاولة في انشاء حضارة متألقة ، على ربوع شبه الجزيرة الايبيرية . رسخت معالمها في تاريخ الشعبين العريقين ، وعلى مختلف الميادين ، وأمدت أوروبا بينابيع المعارف والعلوم . ونأمل أن يبقى هذا التعاون عميقاً ، بل أن يزداد ، وذلك في سبيل ازدهار حضارة البحر الأبيض المتوسط ، وتقدم الحضارة العالمية وفي سبيل توطيد السلام العالمي والأخوة الانسانية .

★ ★ ★

الطواف حول البحر الأحمر

«القسم الثاني»

ابراهيم خوري

الفصل الأول

بندر ميوس أورمس(١) المصري أول البنادر المنشأة على البحر الأحمر ، وأعظم الأسواق حوله • ومن يبحر منه ، يصل الى بندر برنيكي(٢) على اليمين بعد قطع١٨٠٠ ستاديون(٣) • ويقع هذان البندران على تخوم مصر في خليجين من البحر الأحمر •

الفصل الثاني

وتمتد أرض البربر(٤) على اليمين أيضاً ، وتجاور برنيكي • ويقطن بجانب البحر أكلة السمك(٥) الذين يسكنون مسوّرات ، تتوزع هنا وهناك في الأجوان الضيقة • ويستوطن البربر في الداخل ، ويأتي خلفهم أكلة الوحوش(٦) وأكلة الأعشاب البرية(٧) الخاضعون لسلطة زعمائهم • وتقوم مدينة كبيرة تدعى ميروبي(٨) وراءهم في الداخل لجهة الغرب •

الفصل الثالث

وتلي سوق صغيرة قريبة من البحر أرض أكلة الأعشاب ، وتبعد حوالي ٨٠٠٠ ستاديون عنها ، وتدعى بتوليمايس الصيد(٩) التي كان صيادو الملك يتخذونها قاعدة لهم في عهود البطالسة • ويعرض في هذه السوق ذبل سلاحف بحرية صحيح ، وذبل سلاحف برية صغيرة أبيض وأصفر • ويعثر هنا أيضاً على قليل من العاج ، الشبيه بعاج أذولي(١٠) • ولا بندر لهذه السوق ، ولا يوصل اليها من البحر الا بزوارق صغيرة •

الفصل الرابع

وتلي سوق أذولي العادية سوق بتوليمايس الصيد ، على مسافة حوالي ٣٠٠٠ ستاديون عنها ، في خليج عميق يتجه الى الجنوب • وتقابلها جزيرة أوريني(١١) ، التي تبعد ٢٠٠ ستاديون في عرض البحر عن طرف الخليج الأقصى ، وتوازي ساحلي البر الرئيس من جهتيها ، وترسو فيها السفن الداخلة الخليج هرباً من هجمات أهل البر ، في حين كانت في الماضي تطرح في وسط الخليج بالذات ، في الجزيرة المسماة ديدورس(١٢) التي تقترب من البر ويصلها به معبر يسلكه البربر المنطلقون من أرضهم ليهاجموها • وأذولي على البر مقابل أوريني ، وعلى مسافة عشرين ستاديون عن البحر ، وهي قرية متوسطة الحجم على مسيرة ثلاثة أيام من كلويي(١٣) ، المدينة الداخلية وسوق العاج الأولى • ومن كلويي الى أكسوم(١٤) مسيرة خمسة أيام • وأكسوم مدينة كبيرة يجلب اليها جميع العاج من وراء النيل عبر المقاطعة المدعوة كينيون(١٥) ، ومن ثم الى أذولي • ذلك أن جميع الفيلة والكركدنات التي تصاد ، ترعى في الداخل ، وان كانت تسرح أحياناً قرب البحر بنواحي أذولي • وتتناثر جزيرات رملية عديدة تسمى ألا لايو(١٦) في عرض البحر بعد هذه السوق الى جهة اليمين ، ويعثر فيها على ذبل السلاحف البحرية ، الذي ينقله أكلة السمك الى أذولي •

الفصل الخامس

وينفتح في البر خليج طويل آخر ، على بعد ٨٠٠ ستاديون تقريباً • ويمتد على يمين مدخله رق رملي كبير ، يرسّب في قعره حجر السبج (أبسيدين) الذي لا يعثر عليه الا في هذا المكان وحده • ويحكم زوسكليس هذه الأنحاء من أرض أكلة الوحوش حتى أرض البربر • وله عليهم أسباب حياته ، ويتحين فرصها • وهو سامي المبادىء ، **وضليع بالآداب اليونانية** •

الفصل السادس

وتُجلب لجميع هذه الأماكن قطع الثياب البربرية غير المقصّرة من مصر ، وأردية أرسينويي (١٧) ، والمعاطف الفضفاضة الملونة المقلدة ، والملابس الكتانية ، والمعاطف المهدّبة ، والعديد من أنواع الأواني الزجاجية ، وأواني المورّين (العقيق) المصنوعة في ديوسبولس(١٨) وخلائط الشبه التي تستعمل في الحلي وسك العملة ، ومادة تسمى « الشبه المسقي بالعسل» لصنع قدور الطبخ وأساور النساء وخلاخلهن ، وحديد الرماح لصيد الفيلة وسائر الوحوش وللحرب ، والفؤوس ، والحداء ، والسيوف ، وكؤوس الشرب الكبيرة المدورة المصنوعة من البرونز ، وبعض دنانير الغرباء المقيمين في تلك الأماكن ، **وخمور اللاذقية** وايطالية لكن بكميات ضئيلة •

وتُجلب للملك الأواني الذهبية والفضية المصنوعة على طراز البلد ، وأقمشة المعاطف الفضفاضة ، وأكسية غير مبطنة لا قيمة كبيرة لها .

كذلك يُجلب من الأنحاء الداخلية من أريكي(١٩) الحديد والفولاذ الهنديان ، والأثواب الهندية الفضفاضة المسماة «قفطان»، ومعاطف « سغماتوجيني » ، والمناطق ، والأكسية المسماة غفناكي ، وأكسية ألياف الخبّازة ، وقليل من الثياب الموصلية ، واللك الملوّن .

ويصدّر من هذه الأماكن العاج ، والذبل ، وقرن الكركدن (وحيد القرن) .

وتُجلب معظم هذه السلع من مصر الى **السوق بين شهري كانون الثاني وايلول ،نعني شهري توبي وتوت . وأفضل أوقات الاتجار مع مصر حوالي شهر أيلول .**

الفصل السابع

ومن هنا يتجه الخليج العربي الى الشرق ويضيق الى الحد الأقصى عند أفاليتس . ويلاقي الذين يبحرون شرقاً على طول الساحل الافريقي ذاته ، بعد **حوالي ٤٠٠٠ ستاديون،** الأسواق البربرية الأخرى ، التي تسمى « أسواق ما وراء الباب » ، **وتتوالى الواحدة اثر الأولى . وفيها جميعاً بنادر مزودة بمراسي ومرابط يمكن استخدامها في الأوقات المناسبة . وتدعى السوق الأولى منها أفاليتس(٢٠) وبقربها أقصر معبر من جزيرة العرب الى الشاطىء الآخر . وتقع في هذا المكان سوق أفاليتس الصغيرة التي يوصل اليها بالأرماث والزوارق الصغيرة فقط .**

وتُجلب اليها شتى الأواني الزجاجية، والزيتون الأخضر من ديوبولس(١٨) والثياب البربرية المتنوعة والذرة الصفراء ،والخمور، وقليل من القصدير .

ويحمل منها البربر أنفسهم أحياناً على الأطواف الى أوكليز(٢١) وموزا(٢٢) التوابل ، وقليلا من العاج ، والذبل ، وقليلا جداً من المر ، وهو أجود من سواه .

والبربر القاطنون في هذا المكان عنُد .

الفصل الثامن

وتأتي سوق أخرى بعد أفاليتس ، تختلف عنها ، وتدعى ملاوو(٢٣) ، وتبعد عنها حوالي ٨٠٠ ستاديون بحراً . وبندرها مفتوح من جهة البحر ، لكن يحميه نتوء بري يندفع من جهة الشرق . وأهلها أميل الى المسالمة .

وتجلب اليها الأصناف التي تحمل الى أفاليتس ، يضاف اليها أيضاً كثير من الجلابيب

القصار المعدّة في أرسينوبي والمصبوغة فيها ،وكؤوس الشرب ، وقليل من « الشبه المسقي بالعسل » ، والحديد ، والدنانير لكن بمقادير قليلة ، والذهب والفضة ٠

ويُحمل من جهاتها المرّ ، وقليل من البخور المسمى « بخور ما وراء الباب» ،والقرفة القاسية ،والدواكة ، والقرفة العادية ،والمكر الذي يصدّر الى جزيرة العرب ، والرقيق بين الفينة والأخرى ٠

الفصل التاسع

والمسافة مسيرة يومين من ملاوو الى سوق موندو (٢٤) حيث ترسو السفن بمزيد من الأمان في جزيرة قريبة جداً من البر ٠ وتُجلب اليها وتُحمل منها الأصناف ذاتها والتي ذكرناها من قبل ، يضاف اليها الصمغ العطر المسمى موكروتو ٠ والسكان الذين يتاجرون هنا أشد عناداً من سواهم ٠

الفصل العاشر

وتجري السفن بعد موندو باتجاه الشرق أيضاً مسيرة يومين أو نحو ثلاثة أيام لتصل الى موسلن(٢٥) ، الواقعة على شاطيء خال من البنادر ٠ وتجلب اليها السلع المذكورة من قبل ، يضاف اليها أوان فضية ، وقليل من الحديد ، وحجارة كريمة ٠ وتحمل من نواحيها مقادير كبيرة من قرفة الكاسيا ، التي تحتاج كمياتها الى وجود سفن كبيرة في سوقها٠ ومن صادراتها أيضاً الصموغ العطرة والتوابل وقليل من السلاحف الصغيرة ، والصمغ العطر المسمى موكروتو الذي تقل جودته عن جودة صمغ موندو ، و « بخور ما وراء الباب» وأحياناً العاج والمر ٠

الفصل الحادي عشر

وتتوالى بعد جري يومين في البحر من موسلن، الأسواق التي تسمى نيلوبتوليماو (٢٦) وتبتيجي (٢٧) ، وغيضة الغار الصغيرة (٢٨) ورأس الفيل (٢٩) ، وغيضة الغار الكبيرة المسماة أكاني (٣٠) التي تنتج وحدها أكبر كمية من أجود « بخور ما وراء الباب » ٠

الفصل الثاني عشر

ينعطف البر بعد ذلك نحو الجنوب ، وتظهر « سوق التوابل » (٣١) والرأس الشديد الانحدار (٣٢) الذي يمثل الطرف الشرقي من بر البربر الرئيس ٠ ويفتح هذا البندر على البحر ، ويعد خطراً في بعض الأوقات ، لأن الرياح الشمالية تهب عليه ٠ ومن العلامات المحلية لاقتراب هبوب العاصفة ، ازدياد الهيجان في أعماق البحر ، وتغيُّر لون مائه ٠ وعندما يحدث ذلك ، يحتمي الجميع قرب الرأس الكبير في مكان يدعى تابي (٣٣) ٠ وتجلب الى هذه السوق السلع التي ذكرت من قبل ٠ وتنتج هنا قرفة الكاسيا ، ويزير وأسفي ، والتوابل ، ومغلا ، ومتو ، واللبان٠

الفصل الثالث عشر

وتجري السفن بعد تابي على طول شبه الجزيرة ٤٠٠ ستاديون ، يدفعها تيار الماء، فتصل الى سوق أخرى، اسمها أبوني(٣٤) تُجلب اليها السلع المذكورة من قبل ٠وتنتج فيها مقادير كبير من قرفة الكاسيا والتوابل والمتو ٠ وفيها رقيق مرغوب يرسل معظمه الى مصر ٠ وتُحمل منها مقادير كبيرة من الذبل الذي يفوق غيره جودة ٠

الفصل الرابع عشر

وموسم السفر من مصر الى جميع هذه الأسواق الواقعة وراء الباب ، في شهر تموز أي أبيب ٠ وجرت العادة أن يؤتى بالمحاصيل والسلع المحلية من الأنحاء الداخلية من أزيكي(٣٥) وبريغازة(٣٦) الى هذه الأسواق، وهي القمح ، والأرز ، وسمن البقر ، وزيت السمسم ، والأكسية المسماة قفطانات وسغماتوغيني ، والمناطق ، وقصب العسل المسمى « السكري » ٠

ويبحر بعض التجار رأساً الى هذه الأسواق ، ويجاري بعضهم الآخر الساحل ويقايضون سلعهم ٠ ولا تخضع هذه البلاد لزعيم واحد، بل لكل سوق شهبندرها ٠

الفصل الخامس عشر

ويمتد السيف بعد أبوني بعيداً الى الجنوب ، وأوله ما يسمى بأجرف أزنياس(٣٧) الصغرى وأجرفها الكبرى ، التي تحوي مراسي ، وتستمر مسيرة ستة أيام باتجاه الجنوب الغربي ٠ وتليها الشواطىء المكشوفة الصغرى والكبرى على مسيرة ستة أيام أخرى ٠ ثم تأتي مجاري أزنياس ، وفي طليعتها مجرى سرابيونس(٣٨) وثانيها مجرى نيكنس(٣٩) ٠ وتعقبه عدة أنهار ومكلآت أخرى مفصولة بمطارح كثيرة وبمجاري يوم واحد عددها الاجمالي سبعة حتى جزر بيرلاون(٤٠) وما يسمى ب « القناة »(٤١) ٠وتلاقى جزيرة مينوثيس(٤٢) بميلة ضئيلة الى الجنوب الغربي ، بعد جري يومين ليلا نهاراً على ساحل أزنياس ، وعلى بعد حوالي ٣٠٠٠ ستاديون من البر الرئيس ٠ وجزيرة مينوثيس منخفضة ومكسوة بالأشجار ، وتجري فيها الأنهار ٠ وفيها أنواع كثيرة من الطيور ، والسلاحف الجبلية ٠ ولا وحوش فيها سوى التماسيح التي لا تؤذي البشر ٠ وفيها زوارق صغيرة مخيطة بالألياف أو مصنوعة من خشبة واحدة(٤٣)، تستعمل لصيد السمك والسلاحف البحرية ٠ ويصطادون السمك بالسلال المفخخة عوضاً عن الشباك ، ويضعونها في عرض تفريضات الشاطىء ٠

الفصل السادس عشر

وتقع آخر سوق في أزنياس بعد مسيرة يومين عن البر ٠ وتسمى رابتا(٤٤) ٠ويشتق اسمها من المراكب المخيطة المذكورة من قبل ٠وفيها مقادير كبير من العاج والذبل ٠وأبدان

أهل هذه البلاد ضخمة جداً ، ويمتهنون القرصنة . ولكل مكان فيها زعيم خاص به. ويحكمها ملك المعافر استناداً الى اتفاق قديم وضعها تحت سلطة مملكته التي أصبحت الأولى في جزيرة العرب . ويتولى أهل موزا شؤونها لقاء دفع ضريبة له . ويرسلون سفنهم اليها، وفيها ربابين وعملاء أكثرهم عرب ، أقاموا وتزاوجوا فيها مع أهلها ، فأصبحوا خبراء في طبيعة محالها ولغتها .

الفصل السابع عشر

وتُجلب الى تلك الأسواق سلع تصنع في موزا بالذات ، منها الرماح ، والفؤوس ، والسيوف القصيرة ، والمخارز ، وأنواع عديدة من الأواني الزجاجية .

وتُحمل الى بعض الأماكن الخمر وقليل من القمح لا للتجارة ، بل لتوزيعهما لكسب الأصدقاء بين البربر . وتُحمل من تلك الأسواق مقادير كبيرة من العاج ، وان كان أقل جودة من عاج أذولي ، وقرون الكركدن ، والذبل الذي يأتي الطلب عليه بعد ذبل الهند الأجود منه ، وقليل من جوز الهند .

الفصل الثامن عشر

وتكاد هذه الأسواق تكون آخر أسواق أزنياس على يمين القادم من بر برنيكي . ذلك أن المحيط لم يُستكشف بعد هذه الأسواق ، وينعطف مستديراً الى الغرب . ويمتد نحو الجنوب باتجاه يعاكس اتجاه اثيوبيا وليبية وافريقية ، ويمتزج بمياه البحر الغربي .

★ ★ ★

الفصل التاسع عشر

ويقع بندر لفكي كومي(٤٥) على يسار برنيكي ، وفيه حصن . وتصل اليه السفن بعد جري يومين أو ثلاثة ، اذا أطلقت من ميوس أورمس ، وعبرت البحر باتجاه الشرق. وتذهب منه طريق برية الى مدينة البتراء(٤٦) الى مملكة مالخس(٤٧) ملك الأنباط . وتشتهر بسفنها ، مع انها ليست كبيرة ، وتأتي محملة من جزيرة العرب . لذلك يقيم فيها جابي ضرائب الربع على السلع المستوردة ، وقائدمائة وحامية لحفظ الأمن .

الفصل العشرون

ويجاور بر العرب لفكي كومي مباشرة، ويمتد معظمه على طول البحر الأحمر . وتقطن فيه قبائل شتى ، تتباين لغاتها، بعضها جزئياً وبعضها كلياً . وتنتشر مسورات آكلة السمك على ساحله على غرار الساحل الافريقي . وتتوزع على المرتفعات الداخلية القرى وخيم البدو التي تضم أوغاداً يتكلمون لغتين . واذا ضلت بعض السفن وحادت عن المجرى الأوسط ، ووقعت بين أيديهم ، فاما أن يسلبوا ركابها أو أن يأخذوهم رقيقاً ان بقوا على قيد الحياة بين حطامها . لذلك تقع السفن دوماً في أسر زعماء جزيرة العرب

وملوكها . ويسمون كنرايبتي (المقذوفين؟). وهكذا يتضح أن مجاراة ساحل جزيرة العرب خطرة اجمالا ، لأنه خال من البنادر ، وسيء المراسي ، ووسخ الشاطىء ، تحول الصخور دون الاقتراب منه ، فهو رهيب من جميع النواحي . لذلك ، عندما تقترب السفن منه تبقى في المجرى الأوسط ، وتسرع الى أقصى حد حتى الجزيرة « المحروقة »(٤٨) التي تليها مناطق متصلة يقطنها سكان متحضرون يمتلكون قطعانا سارحة من الماشية والابل .

الفصل الحادي والعشرون

وتقع موزا ، السوق القائمة قرب البحر، بعد المناطق المذكورة ، في أقصى جون على شاطىء البحر الأيسر . وتبعد عن برنيكي ١٢٠٠٠ ستاديون(٤٩) في الحد الأدنى . بالنسبة الى الذين يبحرون باتجاه الجنوب. وتعج هذه السوق بالعرب ، من ربابنة وبحارة، وبالنشاط التجاري الشديد ، لأن أهلها يستخدمون ما يملكون من سفن في تجارتهم مع الساحل المقابل ومع بريغازة .

الفصل الثاني والعشرون

والمسافة ثلاثة أيام بين سوق موزا وبين مدينة سفي(٥٠) في البلاد المسماة بلاد المعافر. ويسمى حاكمها المستبد المقيم فيها خليبس(٥١) .

الفصل الثالث والعشرون

وبعد مسيرة تسعة أيام أخرى ، تأتي مدينة سفار(٥٢) الكبيرة التي يعيش فيها كرب آل(٥٣) الملك الشرعي على قبيلتي حمير وجارتها سبأ . ويدعى « صديق الأباطرة » بسبب سفاراته المتواصلة اليهم وهداياه لهم .

الفصل الرابع والعشرون

وليس لسوق موزا (٥٣مكرر) بندر ، الا أن لها مطارح جيدة بعيدة عنها في البحر بفضل الرقوق التي تتوفر فيها المراسي . وتُجلب الى هذه السوق الثياب الأرجوانية النفيسة والعادية ، والعباءات العربية غير المبطنة والعادية ، المخططة مربعات والمقصبة بالذهب، والزعفران ، والسعد ، والثياب القطنية ، والمعاطف الفضفاضة ، وقليل من الأغطية المفردة والمحلية، والنطاقات المقلمة ، ومقادير متوسطة من العطور ، ومقادير كافية من العملات ، وخمر ، وقليل من القمح لأن البلاد تنتج مقادير متوسطة منه وكثيراً من الخمر .

ويهدى الملك وزعيم موزا الخيول وبغال الحمل وسبائك الذهب والأواني المرصعة بالفضة والأكسية النفيسة ، وأدوات الشبه.

وتحمل منها المنتجات المحلية ، كالمر الممتاز ، وزيت المر الأبيري والمعيني معاً ، والرخام ، وجميع السلع التي ذكرنا انها تأتي من أذولي على الجانب الآخر من البحر . وأفضل أوقات السفر من مصر الى موزا حوالي شهر أيلول أي توت ، لكن لا شيء يمنع السفر اليها قبل هذا التاريخ .

الفصل الخامس والعشرون

وبعد مجاراة الشاطىء نحواً من ٣٠٠ ستاديون ، يتقارب بر جزيرة العرب وساحل بربرة المقابل له ، قرب أفاليتس · وهناك قناة ليست طويلة جداً ، تمزج مياه البحر بعضها ببعض وتدفعها في مضيق ضيق · وتعترض جزيرة ذيوذورس(٥٥) هذه القناة ، في وسط المضيق(٥٦) الذي يبلغ طوله ٦٠ ستاديون · لذلك يعد المرور فيه عسيراً ، لأن الرياح الهابة من التلال المجاورة ، تهيج البحر · وتقع في هذا المضيق أوكلس(٥٧) ، وهي قرية عربية قرب الماء ، تخضع لسلطة ملك موزا · وليست سوقاً ، بل مرسى ومركز استعذاب ، وأول بر يراه المسافرون في السفن في الخليج ·

الفصل السادس والعشرون

ويعرض البحر مجدداً من الجهة الشرقية بعد أوكلس · ولا تلبث الجمة أن ترى · وتقع قرية « العربية السعيدة » (٥٨) بجانب البحر · وتتبع الملك كرب آل ذاته ، وبها مرسى مناسب واستعذاب أفضل من استعذاب أوكلس · وهي الآن في مدخل جون يبدأ البر يتراجع فيه · وسميت « العربية السعيدة » سعيدة ، عندما كانت مدينة في غابر الزمان ، وكان أهل الهند لا يسافرون من الهند مباشرة الى مصر ، ولا يغامر أهل مصر بركوب البحر الى أماكن تتجاوز بنادر المر البحري الداخلية ، بل يجيؤون الى هنا بحمولات سفنهم من الهند ومصر ، مثلما تأتي الى الاسكندرية الحمولات من وراء البحر ومن مصر ذاتها · الا أن قيصر أخضعها منذ وقت قصير(٥٩) ، ليس بعيداً عن أيامنا الحاضرة ·

الفصل السابع والعشرون

ويلي سيف طويل من الشواطىء الرملية المتصلة ، وخليج ، يمتدان على ٢٠٠٠ ستاديون أو أكثر ، يقطن فيهما البدو وأكلة السمك المقيمون في القرى الساحلية ، قرية « العربية السعيدة » · وترى سوق أخرى بعد رأس يندفع في البحر ، تدعى قنا(٦٠) · وتتبع مملكة اليازوس(٦١) أي مملكة البخور · وتقابلها في البحر جزيرتان قفرتان احداهما جزيرة الطيور(٦٢) والأخرى ترولاس(٦٣) · وتبعدان ١٢٠ ستاديون عن قنا ، التي تشرف عليها من الداخل مدينة سفباثا(٦٤) مقر الملك ·

ويُجلب الى هنا كل البخور الذي تنتجه البلاد ، كما لو كان ينقل الى مستودع ، على ظهور الابل ، أو على أطواف مصنوعة محلياً من جلد يطفو على قرب منفوخة ، أو على مراكب · وترتبط منطقة قنا بعلاقات تجارية مع أسواق تقع على الجانب الآخر في بريغاز وسكيثية وعُمانه وأنحاء فارس القريبة منها ·

الفصــل الثامــن والعشــرون

كذلك يجلب الى قنا من مصر قليل من الحنطة والخمر كما يجلب الى مـوزا ، والعباءات العربية غير المبطنة والعادية وأكثرها مقلد ، والشبه ، والقصدير ، والمرجـان ، والميعة ، وسائر السلع كما يجلب الى موزا ·

لكن يهدى الملك كثيراً مـن الأواني الفضية المرصعة والعملات، والخيول والتماثيل والثياب النفيسة غير المبطنة · وتحمل مـن قنا المنتجات المحلية ، كاللبان والصبر والسلع الأخرى المعروفة في سائر الأسواق · وأفضل أوقات السفر اليها في موسم السفر الى موزا ذاتـه أو قبلـه ·

الفصــل التاســع والعشــرون

وينكفيء البحر بعد قنا الى الوراء انكفاءاً هائلا · ويتشكل خليج آخر يتوغل في البر يسمى سخليتس(٦٥) · وتدعى تلك البـلاد بلاد اللبان (البخور) ، وهي جبلية ووعرة، جوها ثقيل وغائم بسبب أشجار اللبان ·ولايعرض هذا الشجر كثيراً ولا يطول ، ويحمل البخور الصلب على لحائـه ، تماماً **مثلمايتقطر الصمغ من بعض الأشجار عندنا في مصر.** ويجمع البخور رقيق الملك ومن يرسل لهـذا العمل قصاصاً له · والمكان غير صحي الى حد رهيب ، ووبيء حتى بالنسبة لمن يمر مـروراً في السفن أمامه · ويقضي على الذين يعملون فيه · اضافة الى ذلك يموتون من جراء نقص الغذاء كلياً ·

الفصــل الثلاثــون

ويقع هنا أكبر رأس في الخليج ،ويتجه الى الشرق ، ويسمى سيغرس(٦٦) · وقد بني فيه حصن البلاد وبندر ومستودع البخور الذي يجمـع وتقابلـه في البحـر جزيرة تسمـى ذيوسكوريذو(٦٧) ، عـلى منتصف الطـريق بينه وبين رأس التوابل على الشاطيء(٦٨)، لكنهـا أقرب الى سيغرس · وهـذه الجزيرة كبيرة جداً ، ومعظم أرضها مقفرة ورطبة ، وفيها أنهار وتماسيح وأفاعي كثـيرة جداً ،وعظاءات ضخمة يأكلون لحمها ويذيبون شحمها ويستعملونه عوضاً عـن الزيت · ولا تنتـج لا خمراً ولا حبوباً · وأهلها خليط من العرب والهنود وقليل مـن اليونانيين الذين أبحروا اليها للتجارة · ولديها كثير من السلاحف ، البحرية والبرية والبيض ، الجيدة والمفيدة، لضخامة ذبلها · وعندها سلاحف جبلية أيضاً، ذبلها ضخم وسميك · ولا يمكن قص بطونها لثخنها · لكن تفصَّل ظهورها صناديق وصحوناً وصحون حلوى وما يشاكلها ·

الفصــل الحـادي والثلاثــون

وتخضع جزيرة ذيوسكوريذو لسلطة ملك بلاد اللبان ، تماماً كما تخضع أزيناس لكرب آل ولزعيم المعافر · وكانت تقوم علاقـات تجارية بينها وبين بعض التجار مـن سـوق

موزا ، وبعض التجار الذين يبحرون مـــن ليميريكـي(٦٩) وبريغازة ، ويرسون فيهـا صدفة • ويقايضون الأرز والقمح والثيـاب الهندية والرقيق الاناث ـ اللواتي يندر أن تجلب اليها ـ بمقادير كبيرة مـن الذبـل • تشحن بسفنهم عند مغادرتهم • أمـا الآن في عهد الملوك ، فقد أصبح الساحـل مزروعـاً ومحروساً •

الفصـل الثـاني والثلاثـون

ويستمر الخليج بعد سيغرس ، ويتوغل عميقاً في بر عمانه الرئيس ، ويفتح فيـه ممراً طولـه ٦٠٠ ستاديون ، تليه على طول ٥٠٠ ستاديون أخرى ، جبال عالية صخرية شديدة الانحدار يقطن أهلها في الكهوف • ثم يجيء بندر يسمى موسخا(٧٠) يختص بشحن اللبان من خليج سخليتس • وتأتي اليه بانتظام بعض السفن قادمة من قنا • وتمضي فيـه بعض السفن التي تجاري الساحل مقبلة اليه من ليميريكي أو بريغازة ، فصـل الشتاء في مواسم السفر المتأخرة ، ويقايضون الثيـاب والقمح والزيت مع عملاء الملك ، بحمولة عودة لسفنهم من اللبان ـ الذي ينتج عامة في منطقة سخليتس ـ من على مكسر خرب وغير محروس لأن الآلهة تحمي هـذا المكان وتحرسـه ، ولا يمكن أن يحمـل على سفينـة ، لا سراً ولا علناً ، بلا اذن من الملك • واذا أخذ أحد ولو ذرة من اللبان ، لا تستطيع السفينة أن تجري، لأن مثل هذا الابحار يخالف ارادة الآلهة •

الفصـل الثالـث والثلاثـون

وتنتصب سلسلة جبال على البر من بندر موسخا الى أسيخنس(٧١) ، وتمتد على طول ١٥٠٠ ستاديون ، وتقع في أقصاها سبع جزر متصلة ، تسمى جزر زينوبيوس(٧٢) ، التي تليها على الساحل أرض أهماج لا تتبع المملكة السابقة ، بل تدخل في مملكة فارس • واذا جارت السفينة الشاطيء نحو ٢٠٠٠ ستاديون وراء جزر زينوبيوس ، تصل الى جزيرة تدعى سرابس(٧٣) التي تبعد ١٢٠ ستاديون عـن البر ويتجمع سكانها في ثلاث قرى ، وهم من أكلة السمك ومقدسون، ويتكلمون اللغة العربية ويسترون عورتهم بأوراق النخيل • وفي هذه الجزيرة ذبل جيد وكاف • وتعد قنا بانتظام مراكب خفيفة أو مقطورة، وتجريها الى جزيرة سرابس •

الفصـل الرابـع والثلاثـون

واذا دارت السفينة حـول الخليج ، وجارت البر المجاور ، الذي يتجه الآن الى الشمال نحو مدخل الخليـج العربي الحالي ، تلقـى عدة جزر تدعى جزر كلايو(٧٤) التي توازي البر على طول حوالي ٢٠٠٠ ستاديون • وسكانها مصابون بمرض في أعينهم(٧٥) •

الفصـل الخامـس والثلاثـون

ويبدأ الخليج العربي الحالي على مقربة مـن أقصى رأس جزر كلايو ومـن الجبـل المسمى كالن(٧٦) • وعلى مسافة ليست بعيدة وراءهما • وتقع فيه مصايد اللؤلؤ • وعلى

يسار هذا المدخل ، تنتصب جبال أسبون(٧٧) العظيمة جداً ، ويشاهد جبل آخر يسمى سمير أميس على يمينه مباشرة وعلى مد النظر • ويبلغ عرض وسط هذا الممر عند مدخله حوالي ٦٠ ستاديون ، يعظم البحر جداً بعده ويعرض كثيراً ، ويمتد حتى أقصى أطرافه • وتقوم عند نهايته القصوى سوق تدعى أبولوغو، وتقع قرب بسينوخاركس(٧٨) ونهر الفرات •

الفصل السادس والثلاثون

واذا جارت السفينة الشاطىء عبر مدخل هذا الخليج ، تصل الى سوق فارسية تدعى عمانة(٧٩) بعد جري ستة أيام •

وتجيء السفن اليها عادة من بريغازة والى السوقين الفارسيتين ـ أي عُمانة وأبولوغو ـ وهي سفن كبيرة محملة بالشبه وخشب الصندل، والعوارض الخشبية ، وخشب الفرمن ، وجذوع شيشم ، وأعواد الأبنوس •

ويحمل اللبان من قنا الى عمانة أيضاً • وتحمل من عمانة الى جزيرة العرب السفن المحلية المخيطة المسماة مذرات(٨٠) •

ويحمل من سوق عمانة وأبولوغو الى بريغازة وجزيرة العرب كثير من اللؤلؤ وان كان أقل جودة من اللؤلؤ الهندي والصباغ الأرجواني والثياب المحلية والخمر ، ومقادير من التمور والذهب والرقيق •

* * *

الفصل السابع والثلاثون

كذلك تقع بلاد برسيده ، وهي تابعة لمملكة أخرى ، بعد منطقة عمانة ، وتمتد متوازية مع خليج واسع يسمى خليج الجيدروزيين ، يندفع رأس من وسطه ، ويقع بجواره نهر تدخل فيه السفن ، وتقوم السوق المسماة حورية(٨١) على مسافة قريبة من مصبه • وخلفها مدينة داخلية ، تبعد مسيرة سبعة أيام عن البحر ، وفيها المملكة المسماة رمبكية(٨٢) • وتنتج هذه البلاد كثيراً من القمح ، والخمر والأرز والتمور أما البر الرئيس ، فلا ينتج شيئاً سوى صمغ نبات البذيليون •

الفصل الثامن والثلاثون

ويختفي البر الرئيس بعد هذه المنطقة في الأفق القصي من جهة الشرق ، بسبب عمق الخلجان • وتتتابع أجزاء ساحل سكيثية(٨٣) التي تمتد نحو الشمال ، وتنخفض جداً • ويأتي منها نهر سينثس(٨٤) **الذي يعد أعظم الأنهار المنتهية الى البحر الأحمر ،** ويصب فيه مقادير كبيرة جداً من المياه حتى ان البحر يبيض بعيداً جداً عن الشاطىء وقبل أن يرى البر • ومن علامات قرب هذا البر للقادمين اليه من البحر ، رؤية الحيات التي

تطلع من الأعماق لملاقاتهم · وتشاهد علامة مماثلة مقابل ساحل فارس ، يظهر فيها ما يسمى بسرطانات البحر · ولهذا النهر سبع أذرع مصبّات ضيقة ، مليئة بالضحال، لا يصلح منها للملاحة الا الفرع الأوسط الذي تقوم عليه سوق قرب البحر ، تدعى بربريكون(٨٥) · وتقابلها في البحر جزيرة صغيرة ، وخلفها في البر منفاة(٨٦) وهي مدينة سكيثية الكبيرة · ويحكم البارثيون هذه البلاد ويطردون بعضهم بعضاً ·

الفصل التاسع والثلاثون

اذن تأتي السفن الى مرسى أمين في بربريكون · وتصعد في النهر جميعها محمّلة وقاصدة ملك سكيثية · وتُجلب الى سوق بربريكون كمية كبيرة من الثياب غير المبطنة وقليل من الثياب المقلدة والمطرزات ، والزبرجد ، والمرجان ، والميعة ، واللبان ، والأواني الزجاجية ، وسبائك الفضة ، والعملات ، والخمر بكميات قليلة ·

وتشمل حمولة السفن المخصصة للتبادل جذور القسط ، والبديلة ، والزعرور (ليكيون) والناردين والفيروزج ، واللازورد ، والجلود الصينية ، والثياب ، والغزول الصينية ، والحبر الهندي (الصيني) ·

ويخرج الذين يبحرون بالرياح الهندية (الموسمية) في شهر تموز وهو أبيب · والسفر خطر لكنه مباشر وأقصر ·

الفصل الأربعون

ويقع خور آخر بعد نهر سينش ، ويتجه الى الشمال ، لكنه لم يُستكشف بعد · ويدعى برينون(٨٧) · ويمكن القول انه خوران ، أحدهما صغير والآخر كبير · والبحر ضحل في كليهما ، وفيه دوّارات تتبدل أماكنها باستمرار ، وتبعد عن البر حتى ان السفن تصطدم بقعر البحر في الغالب ، ولو كان الساحل لا يُرى بعد · واذا دفعها تيار الماء الى أبعد من ذلك ، تغرق · وبعد خور يرينون ينعطف رأس من البر يستدير متجهاً الى الشرق ، ثم الى الجنوب فالغرب ، فيحصر الخور المسمى خور براكي(٨٨) الذي يحوي سبع جزر · فالسفن التي تعلق في أول خور براكي ، تنجو اذا رجعت الى الوراء وأغزرت قليلا · أما السفن التي تحتجز في بطنه ، فتغرق في النهاية لأن الأمواج كبيرة وثقيلة جداً ، والبحر هائج وعكر وبه دوامات سريعة وتيارات عنيفة ، وينحدر قعره بشدة في بعض الأماكن ، ويصير صخرياً وحاداً في أماكن أخرى ، مما يؤدي الى تقطيع سلاسل أناجر السفن على جوانبها ، أو عندما ترمي لتقاوم السفينة التيار ، أو عند احتكاكها بالقعر · ومما يدل على أن الملاحين يقتربون من هذين النوعين من قعر البحر ، ظهور حيّات سود كبيرة جداً تخرج لملاقاتهم · وتصغر الحيات في الأرجاء التالية وحول بريغازة ويضرب لونها الى الصفرة والشهبة ·

الفصل الحادي والأربعون

بعد خور براكي ، على استقامة واحدة، يقع خليج بريغازة وبر بلاد أريكي الرئيس وبداية مملكة منبانوس(٨٩) وأرض الهند بأجمعها · ويسمى داخل كل هذا البر على امتداد سكيثية ، أبيرية ، ويدعى ساحله سيرستريني(٩٠) ، التي تنتج كثيراً من القمح والأرز ، وزيت السمسم ، والسمن البقري، وثياب الكتان ، والأكسية الهندية البسيطة المصنوعة منه · وفيها قطعان كبيرة من المواشي ، وأجسام أهلها ضخمة جداًوبشرتهم سوداء · ومنغارة(٩١) المدينة الكبيرة في هذه البلاد · وتحمل منها كميات كبيرة من الثياب الى بريغازة · ومـا تزال في تلك الأرجاء آثار حملة الاسكندر مثل الهياكل القديمة ، ومواقع المعسكرات والآبار الواسعة جداً ·وتقطع السفينة ٣٠٠٠ ستاديون ، اذا جارت الشاطىء من بربريكي باتجاه استكابرة(٩٢) مقابل بريغازة والرأس المسمى ببيكي(٩٣) ·

الفصل الثاني والأربعون

يأتي بعد ذلك خور آخر على هذا الجانب من البحر ، يتجه الى الشمال ، وتقع في مدخله جزيرة تدعى بيونس(٩٤) ، وفي نهيته بدقة ، نهر كبير جداً يسمى مايس(٩٥) ·ومن يركب البحر الى بريغازة ، يقطع هذا الخور الذي يبلغ عرضه حوالي ٣٠٠ ستاديون، ويترك خلفه وعلى اليسار ، جزيرة بيونس التي يشاهد أعلاها بوضوح ، ثم يتجه شرقاًالى مصب نهر بريغازة الذي يسمى لمنيوس(٩٦) ·

الفصل الثالث والأربعون

ويذهب الى بريغازة خور ضيق ، يصعب دخوله على القادمين من البحر ، سـواء سلكوا المر الواقع على يمينهم أو الممر الواقع على يسارهم ، وان كان ولوج الممر الأيسر أسلم· ذلك ان في الممر الأيمن عند مدخل الخور شريطاً أرضياً وعراً وصخرياً يدعى هيروني(٩٧) مقابل قرية كموني(٩٨) · أما الممر الأيسر ازاءه فيتقدمه رأس ببيكي أمام أستكابرة · وفيه مرسى سيء لأن تيار الماء يشتد حوله ، ولأن قعر البحر الصخري الوعر يقطع سلاسل الأناجر · وحتى لـو تمكنت السفينة أن تلج الخور ، يصعب عليها العثور على مصب النهر قرب بريغازة ، لأن الأرض منخفضة ، ولا يمكن معاينة شيء على وجه اليقين الا عند الاقتراب منه · وحتى لو اهتدي الى مصب النهر ، يبقى دخوله خطراً بسبب الضحال المنتشرة حوالي مصبه ·

الفصل الرابع والأربعون

لجميع هذه الأسباب ، يصعد صيادو الملك في هذه المقاطعة ، الواقعة قرب المصب ، في سفن طويلة يجدفونها بمجاديفهم ، وتسمى ترابغة وكوتمبة، ويصلون بها الى سيرستريني،

ليلاقوا السفن القادمة ، ويقوموا بارشادهــاحتى بريغازة· ذلك أن ملاحي سفنهم يقودونها بأنفسهم مباشرة من مدخل الخور عبر الضحال ، ويربطونها في مطارح مجهزة من قبل لهذه الغاية ، ثم يأخذونهــا منها عندما يبدأ المــدبالارتفاع ، ويرسونها في أثناء المد العالي في مطارحهم هم وأحواضهم · وأحواضهم أعمق الأماكن في النهر حتى بريغازة ، وتقع في مجراه صعداً على مسافة ٣٠٠ ستاديون من مصبــه

الفصــل الخامس والأربعون

والأنهار كثيرة وكبيرة في كل بر الهنــد· وبهــا جزر ومد· كبيران · ويرتفع المــد ثلاثة أيام في غرة الشهر وفي ليلة البدر ، ثم ينسحب الجزر في الفترات الواقعــة بينهما · ويتعاظم تناوب المد والجزر كثيراً في بريغازةحتى ان قعر البحر يُرى فجأة ، وتجف بعض أنحاء البر التي كانت السفن تجري فيها منذوقت قريب · وعندما يرجع المد من البحر ، يدفع مياه الأنهار الى الوراء بقوة تفوق قوةالجريان العادي ، على مسافة عدةستاديونات·

الفصــل الســادس والأربعــون

لذلك يعد دخول السفن الى سوق بريغازةوخروجها منها خطراً بالنسبة للملاحين لا خبرة لهم يأتون اليها للمرة الأولى · ففي أثناء مدالمياه ، لا يسع السفــن أن تقاوم حركتهــا العنيفة ، ولا تعلق أناجرها ، فتتلقى صدمةقوية ، ويقلبهــا عنف التيــار ، ويجرها الى الضحال ، ويغرقها · وتنقلب السفن الصغيرة· أمــا السفن التي تلجــأ الى الأجوان في آثنــاء الجزر ، فتمتلىء ماءاً اذا لم تُسحب الى مكان مرتفع ، منذ وصول أول تيار المد العالي عند عودته فجأة · ذلك ان مياه البحر تدخل الخور بعنف شديــد جداً في أول الشهر القمري ، خاصة اذا حدث ارتفاع المد في الليل·وحتى لو بدأت السفينة بولوج الخور عندما يكــون البحر ما يزال هادئاً ، ينبعث على حيــن غرةهدير مــن مدخل الخور يشبــه هتاف جيش يُسمع من بعيد ، وفوراً يندفع البحر في الخور ويغمر الضحال باعثاً صوتاً مثل زئير الأسد·

الفصــل السابــع والأربعــون

وتستقر قبائل عــديدة وراء بريغازة ،منها قبيلة ارتربي ، وقبيلة ارخوسيي ، وقبيلة غندرايي ، وقبائل مقاطعــة بروكلايس(٩٩)التي تقــع فيهــا اسكندريــة بوكيفلس(١٠٠) ويقطن البلخيون وراء هذه القبائل ، ولهــم ملكهم الخاص بهم · وقد انطلق الاسكندر من هذه الأرجاء ، ووصل الى نهر الغانج ،وترك على أحــد جانبيه ليميريكي والأقسام الجنوبية من الهند· ويتداولون حتى الآن في بريغازةنقوداً قديمة منقوشة عليهــا حروف يونانيــة وعليها نقوش أبولودوتوس ومينندر اللذيــن ملكا بعد الاسكندر(١٠١) ·

الفصــل الثامــــن والأربعــون

وتقع مدينة تسمى أزيني(١٠٢) في هذه المنطقة الى شرقي بريغازة · وكانت في الماضي مقر حكومة · ويحمل منها الى بريغــازة كل ما هو لخير البلاد وصالح تجارتنا ، كالعقيق

الأحمر ، وأواني المرّين وموصليّات الهند ،وثياب ألياف الخبازة ، وكثير من الثياب العادية • ويأتي أيضاً بواسطتها الى بريغازةمن الجبال عبر بروكلايس ، أنواع الناردين المسماة كتبوريني ، وبتروبلبيجي ، وكبليتي(١٠٣) ، وناردين من بلاد سكيثية المجاورة ، وجذور القسط والبذيلة •

الفصل التاسع والأربعون

ويُجلب الى سوق بريغازة الخمر خاصة من ايطالية ومن **اللاذقية** وجزيرة العرب أيضاً، والشبه ، والقصدير ، والرصاص ،والمرجان، والزبرجد الأخضر ، والثياب غير المبطنة وزيوف الثياب من جميع الأنواع ، وسيوردمشقية طولها ذراع ، والميعة ، والنفل الحلو، والزجاج غير المصقول ، والرهج الأصفر ،والاثمد ، والنقود الفضية والذهبية التي يمكن صرفها بنقود محلية بأرباح طائلة ،وعطور رخيصة وبمقادير غير كبيرة •

ويهدى الملك بهذه المناسبات الأواني الفضية النفيسة ، والعازفين المحترفين ، والجواري الحسان لحرمه ، والخمرة الممتازة،وثياباً غير مبطنة نفيسة ، ومجموعة عطور •

ويحمل من بريغازة الناردين وجذور القسط والبديلة والعاج والعقيق الأخضر والمر وليكيون وجميع أنواع الثياب ،والحراير، وثياب الياف الخبازة ، وغزول الحرير ، والفلفل الطويل ، وسلع محمولة اليها من الأسواق الأخرى ، وفي موسم السفر ، يخرج **الملاحون من مصر الى سوق بريغازة حوالي**شهر تموز أي أبيب •

الفصل الخمسون

ويمتد بر الهند الذي يجاور بريغازة من الشمال الى الجنوب • لذلك تسمى البلاد ذخينباذس(١٠٤) ، اذ ان ذخينا تعني الجنوب في لغتهم • ويضم داخلها أراضي كثيرة وصحاري وجبالا عالية ووحوشاً متنوعة ،كالفهودوالأسود والفيلة والحيات العظيمةجداً والضباع والرُباح (بابون) وفيها قبائل كثيرة وكبيرة تنتشر حتى نهر الغانج •

الفصل الحادي والخمسون

وفي ذخينباذس ذاتها ، سوقان شهيرتان جداً ، أولاهما بيثانة على عشرين يوماًجنوبي بريغازة ، والثانية مدينة تغارة(١٠٥) الكبيرةجداً على بعد عشرة أيام شرقيها • ويُجلب منهما الى بريغازة في عربات تسير في أرجاء واسعة خالية من الطرقات ، مقادير كبيرة من العقيق الأخضر من بيثانة ، ومن تغارة كثير من الثياب العادية ، وجميع أنواع الموصليات، وثياب ألياف الخبازة ، وبعض السلع الأخرى التي تأتي اليها من أماكن واقعة على طول الساحل • ويبلغ طول الرحلة الساحلية ٧٠٠٠ ستاديون حتى ليميريكي ، لكن يزداد هذا الطول حتى السيف(١٠٦) •

الفصل الثاني والخمسون

وتتوالى الأسواق هنا الواحدة اثر الأخرى، وتضم أكبارو ، وسوبارة ، ومدينة كلّيانة التي صارت سوقاً شرعية في عهد سرغنيس الأكبر · لكن تعرقلت التجارة كثيراً في عهد سندنيس(١٠٧) وأصبحت **السفن اليونانية** تُرسَل مخفورة الى بريغازة عندما تدخل صدفة الى تلك الأسواق ·

الفصل الثالث والخمسون

وتتتابع أسواق محلية أخرى بعد سوق كليانة ، وهي سيملة ، ومندغورة ، وبالي باتمي ، ومليزيغارة ، وبيزانتيون ،وتوبارون، وايرانوبواس · ثم تجيء الجزر المسماة سيسكريبيني، وجزر ايجذيون ، وجزركينيتون مقابل ما يدعى بشبه الجزيرة – وهي جزر فيها قراصنة – وتلي آخر جزيرة منها الجزيرة البيضاء ، ثم ناورة وتندس ، وهما السوقان الأوليان في ليميريكي ، وبعدهما موزرس ونلكيندة اللتان تحولتا الآن الى سوقين نشيطتين(١٠٨) ·

الفصل الرابع والخمسون

وتقع تندس في مملكة كيبيروبوتس(١٠٩)، وهي قرية شهيرة على مقربة من البحر · وموزرس(١١٠) سوق مزدهرة في المملكة ذاتها ،تأتي اليها السفن من أريكي ، **وتقصدها السفن اليونانية** أيضاً · وتقع على أحد الأنهار ،وتبعد ٥٠٠ ستاديون عن تندس بالنهر أو بالبحر وتبعد ٢٠ ستاديون عن مصب نهرها·(١١١) · والمسافة ٥٠٠ ستاديون بين نلكيندة وبين موزرس تقريباً بالبر أو النهر أو البحر ·وتتبع نلكندة مملكة أخرى اسمها بنذيون ، وتقع على نهر أيضاً وتبعد حوالي ١٢٠ ستاديون عن البحر ·

الفصل الخامس والخمسون

وتقوم قرية أخرى تسمى بكري(١١٢)على النهر ذاته · وترسل اليها السفن من نلكندة قبل أن تخرج الى البحر ، وتبقى في المكلأ لكي تشحن حمولتها ، لأن النهر مليء بمنبسطات الطين ، والممرات بينها ضحلة · ويقيم ملكا السوقين في الداخل · وتدل القادمين اليها من عرض البحر على اقتراب البر ، رؤية حيات سود وقصيرة – أقصر من حيات نواحي براكي – لها رؤوس التنانين وعيون حمراء كالدم ،تذهب لملاقاتهم ·

الفصل السادس والخمسون

وتبحر السفن الكبيرة الى هذه البنادر ،لأن فيها كميات كبيرة من الفلفل والتنبول وتحمل الى ليميريكي على وجه العموم كميات كبيرة من النقود والعقيق الأخضر وقليل من الثياب غير المبطنة ، والمطرزات الدمشقية ،والاثمد ، والمرجان ، والزجاج غير المصقول، والشبه والقصدير ، والرصاص ، وقليل من الخمر حسب توفره في بريغازة ، والرهج الأحمر ، والرهج الأصفر (الزرنيخ) ،وقمح يكفي طاقم السفينة لأن التجار لا يختزنونه·

ويحمل منها الفلفل ، الذي يزرع بمقادير كبيرة في مكان واحد فقط يسمى كوتانريكي، والعاج ، والثياب الصينية ، وناردين الغانج، وتنبول الداخل المجلوب الى البندر ذاته ، وجميع أنواع الحجارة الكريمة ، والماس ،والياقوت ، والذبل من خريسي ومن الجزر الواقعة مقابل ليميريكي نفسها وموسم السفر الى هنا من مصر حوالي شهر تموز ، أي أبيب·

الفصل السابع والخمسون

كانت دورة البحر كلها ، الموصوفة من قنا ومن « العربية السعيدة » · تتم في الماضي في سفن صغار تتبع شواطيء الخلجان · الا أن هيبالس(١١٤) كان أول ملاح راقب موقع الأسواق وصفة البحر ، فاكتشف طريقاً تقطع المحيط · ومنذ ذلك الحين ، صارت الرياح تسمى رياح هيبالس ، نسبة الى الرجل الذي اكتشف الطريق عبر الباحة ، عندما تهب محلياً من المحيط وفق الموسم ، كما هي الحال معنا عندما تصبح الموسميات في بحر الهند جنوبية غربية · ومن ذلك التاريخ حتى الآن، أخذ بعض الملاحين يقطعون البحر مباشرة من قنا ، وبعضهم الآخر من رأس التوابل · ومن يقصد ليميريكي ، يدير مقدمة السفينة ضد هبوب الرياح ، ومن يذهب الى بريغازة أوسكيثية يمسك العكس ثلاثة أيام لا أكثر · ثم يحافظ على مجاريه بعيدة عن البرلباقي الرحلة ، ويسير في محاذاة الأخوار التي ذكرناها من قبل ·

الفصل الثامن والخمسون

ويقع ما يسمى الجبل الأحمر(١١٥) بعد بكري ، وتمتد بلاد أخرى ··· تسمى برلية باتجاه الجنوب · ويدعى أول مكان فيها بالتة وهي بندار جيد ، وله قرية قرب البحر · وخلفه مكان آخر يدعى كمار ، فيه حصن وبندر يجيء اليه الطاهرون الذين ينذرون حياتهم لخدمة الآلهة من رجال ونساء ،ويبقون عازبين · ذلك انه يقال بأن الآلهة أقامت هنا في الماضي ، وان المكان طاهر دينياً ·

الفصل التاسع والخمسون

وتمتد البلاد من كمار نحو كولخي التي يصاد فيها اللؤلؤ ويقوم به المجرمون ·وتقع كولخي في مملكة بنذيون ، ويليها ساحل يدور حول خور وراءه منطقة داخلية تسمى أرغلو(١١٦) · ويجلب اللؤلؤ الى أحد الأمكنة هنا ، ويجمع من هذه الأنحاء الغنية ·وتحمل منها الموصليات المسماة أرغلوية ·

الفصل الستون

ويبحر الملاخون من ليميريكي ومن الشمال الى أسواق وبنادر واقعة في هذه المنطقة ، أهمها كمارة ، وبوذوكي ،وسوباتمة (١١٧) تملك سفناً محلية تبحر الى ليميريكي مجارية الشاطيء ، وسفناً أخرى كبيرة جداً تصنع من عوارض مفردة يضم بعضها الى بعض وتسمى سانغرة ، والسفن التي تذهب الى خريسي والغانج ، وتسمى كولنديوفونتة،

وهي أضخمها • ويجلب الى هذه الأماكن كلما يصنع في ليميريكي ، وجميع ما يأتي من مصر من النقود سنوياً تقريباً • وتأتيها عبرالبر الساحلي كل الأصناف التي تنتج في ليميريكي •

الفصل الحادي والستون

وينعطف البر الى الشرق بعد ذلك ، وتقابله في البحر ، باتجاه الغرب ، جزيرة تدعى باليسيموندويعرفها أهل البلادالقدامى باسم تبروباني ، شماليها متحضر ، والعبور اليها طويل • وهي كبيرة جداً حتى انها تكادتصل الى ساحل أزنياس مقابلها(١١٨) •ولديها لآلىء وحجارة كريمة وذبل سلاحف وموصليات •

الفصل الثاني والستون

وتقع أرض مسالية(١١٩) بجوار هذه الأماكن ، وتمتد بعيداً في الداخل وبعض الشيء على الساحل وتنتج كثيراً من الموصليات ، وتليها بلاد ذيسريني(١٢٠) من الجهة الشرقية ، وتتوغل في الخور المجاور ،وعندهاالعاج المسمى بوسري • وينثني الشاطىء بعدها الى الشمال ، وتنزل وراءه قبائل متوحشة عديدة منها أهماج كرادي بأنوفهم الفطس ، وقبيلة برغيسي ، وقبيلة هيبيوبروسوبي(١٢١) ويقال انهم أكلة لحوم البشر •

الفصل الثالث والستون

وينعطف البر الى الشرق بعد هذه القبائل ، ويصبح المحيط على يمين السفينة المبحرة ، وأجزاء البر الأخرى على يسارها• وتبدو سوق مدينة الغانج على مدّ النظر ، وخلفها خريسي ، آخر البر الرئيس من جهة الشرق • ويدعى النهر القريب من مدينة الغانج الغانج أيضاً • ويفيض وينخفض مستواه مثل النيل • وهو أعظم أنهار الهند • وتقوم عليه سوق اسمها الغانج أيضاً ، يحمل منها التنبول ، وناردين الغانج واللؤلؤ ، والموصليات النفيسة جداً المسماة الغانجية •ويقال بأن المنطقة تحوي مناجم ذهب ونقداً ذهبياً يسمى كلتس • وتقع جزيرة قرب النهر ، في المحيط ، تعتبر آخر الأرض المعمورة من جهة الشرق ، وتسمى خريسي ،وفيها أفضل ذبل معروف في جميع الأماكن على سواحل البحر الأحمر(١٢٢) •

الفصل الرابع والستون

وينتهي البحر في مكان ما وراء تلك الجزيرة ، في أقصى الشمال ، وهنالك تقوم مدينة داخلية كبيرة تدعى الصين(١٢٣) ،يحمل منها الحرير الخام وغزوله والثياب الصينية براً الى بريغازة ، عبر بلاد بلخ ثم الى ليميريكي بنهر الغانج • ولا يسهل الوصول الى

الصين · ونادراً ما يأتي الناس منهـا ، ولايذهب اليها كثيرون · وتقع هذه البلاد تحت الدب الأصغر ، ويقال أنها تجاور أنحاء بحربنطس وبحـر الخزر حيث يبـدل الساحـل اتجاهه ، وبحيرة ميوتس(١٢٤) القريبة التي تصب في المحيط ·

الفصـل الخامس والستون

وتذهب في كل عام الى تخوم الصين قبيلة أناس قصار القامة ، عراض الوجوه ، فطس الأنـوف تماماً بيض البشرة ، متوحشـين ، يسمون سيساتـي · ويأتون هم ونساؤهـم وأولادهم حاملين صرراً كبيرة وسلالا مضفورة، مليئة بما يبدو وكأنه أوراق كرمة طازجة· ويمكثون في أحد الأماكن على الحدود بـين قومهم وقوم الصين ، ويحيون عيداً يدوم عدة أيام ، ويفرغون ما في سلالهم أمامهـم ، ثم ينسحبون الى جانبهم · ويراقبهم الشارون ، ويتقدمون مجتمعين الى ذلك المكان ،ويجمعون مانثر ويأخذون قطعاً من ألياف القصب تسمى بيترس ، ويطوون الأوراق برفق ،ويعملونها رزماً مستديرة ، ويربطونها بألياف القصب · والرزم على ثلاثة أنواع رزم أعرض الأوراق وتسمى رزم التنبول العريض ، ورزم الأوراق المتوسطة ، وتسمى رزم التنبول المتوسط ،ورزم الأوراق الصغيرة وتسمى رزم التنبول الصغـير · بهـذه الطريقة تصنف أنـواع التنبول الثلاثة، ويحملها مصنفوها الى الهند·

الفصـل السادس والستون

ولم تستكشف الأراضي الواقعة وراء هذه الأماكن،لقساوة فصول شتائها ،والتجمد فيها ، وربما أيضاً تنفيذاً لمشيئة الآلهة ·

الحـواشي :

١ ـ يقع بندر ميوس أورمس أو « بندر بلح البحر » قرب مرفا القصير ، عند « أبو شـرم » القبلي ، على بعد ٣٠٠ ميـل جنوبي السويس ·

٢ ـ برنيكي : أسسها بطليموس الثـاني فيلاذلفس ، ملك مصر (٢٨٢ ـ ٢٤٦ ق·م) وسماها باسم والدته · وما تزال خرائبها معروفة قرب « أم الكتف » ·

٣ ـ الستاديون وحدة قياس طول يونانية فرومانية ، تساوي ١٤٧ الى ١٩٢ م حسب أنواعها ·

٤ ـ قد يقصد بهذا اللفظ جنس من البشر أو البرابرة بمعنى متخلفين حضاريا ·

٥ ـ قوم غذاؤهم الأساسي سمك يصيدونه من البحر ، ويشترط هـذا النمط من الحيـاة مهـارة في صنـع الزوارق والسفن والملاحـة ·

٦ ـ قوم يعيشون من القنص على الأرجح ، اشارة الى مستواهم الحضاري ·

٧ ـ قوم يعيشون من القطف اشارة الى مستواهم الحضاري

٨ ـ ميرويي : مروى عاصمة النوبة في مطلـع القرن الرابـع قبل الميلاد ·

٩ ـ لايعرف مكانها ، ويظن بعضهم أنها العقيق ، ويقتـرح آخرون سواكن ·

١٠ ـ بندر اثيوبي قديم يعود الى ما قبل الميلاد ، ذكره كوزماانديكوبلوستس ·

١١ ـ يظن أنها جزيرة ديسّيي ، وان كانت لا تتحقق فيهاجميع الأوصاف ·

١٢ ـ ما يزال الغموض يكتنف تحديد هذه الجزيرة ·

١٣ ـ فهيتو الحديثة ، وتنتشر خرائبها على مساحة واسعة ·

١٤ ـ عاصمة اثيوبية قديمة ·

١٥ ـ منطقة سنار على الأرجح ·

١٦ ـ أرخبيل دهلك ·

١٧ ـ ارسينوبي قرب السويس ·

١٨ ـ ذيوسبولس أو ذيوبولس بين ابيدس وتنتيرة في ثبيابيد ·

١٩ ـ اريكي المنطقة الواقعة وراء بريغازة (بروج) ·

٢٠ ـ زيلع ·

٢١ ـ الشيخ سعيد ·

٢٢ ـ موسى على بعد ٢٥ ميلا شمالي مخا ، وان كانت اليوميليست على البحر ·

٢٣ ـ بربرة ·

٢٤ ـ مونذو : الأرجح ميط ·

٢٥ ـ بندر قاسم ·

٢٦ ـ بتوليمايس النيل : تشير هذه التسمية الى الاعتقاد القديم بان النيل ينبع عند موسلتن (بندر قاسم) ·

٢٧ ـ لم تتفق الآراء بشانها ، قيل « الكسارات » وقيل نبع تابا ، وقيل نبع غزة ·

٢٨ ـ مشكوك بوجودها ·

٢٩ ـ رأس فيلك ·

٣٠ ـ أكاني : بندر هالولة ·

٣١ ـ لم يتعرف أحد على اسم هذه السوق حتى الآن ، ويظن ظننا انها قرية أولوك الحالية على مسافة ميل واحد غربي رأس جردفون · ويسمي بطليموس رأس جردفون « رأس التوابل » · وتجارة التوابل قديمة بدأت قرونا عديدة قبل الميلاد. ويروى أن ارخبيس ـ وهو اما يوناني أو من أصل غيريوناني يحمل اسما يونانيا ـ اقرض ، حوالي ١٥٠ ق·م ، خمسة رجال ليسافروا الى رأس التوابل ويشتروها من هناك ·

٣٢ ـ لم يرد في النص اسم الرأس ، لكن يظن أنه رأس عسير المسمى رأس جردفون أيضا ·

٣٣ ـ يرجح انه توهن ، عند مصب نهر صغير يبعد خمسة أميال جنوبي منارة جردفون ·

٣٤ ـ ابوني : اشتق هذا الاسم مـن اسمها المصري القـديم« بنت » · وما تزال هذه التسمية باقية في رأس حافون · وقد أرسلت الملكة المصرية الشهيرة حتشسبوت من السلالة ١٨. بعثة الى ابوني. أخبارها مدونة على جدران معبد دير البحري في طيبة (ثيبة) ·

٣٥ ـ انظر الحاشية ١٩ ·

٣٦ ـ بريغازة : مدينة بروج الهندية ·

٣٧ ـ ازنياس : قيل ان هذا الاسم تحريف لفظ عجم العـربي بلا اثبات · وقيل انه مشتق من فعل يوناني يعني جف نظرا لجفاف المنطقة المعنية · واللفظ وارد في أناشيد هوميرس · مهما يكن يعتبر الطـواف ان هذه البلاد تبدأ قـرب رأس حافوني ·

٣٨ ـ مقدشوه ·

٣٩ ـ براوة ·

٤٠ ـ جزر بيت ، مندة ، لامو ٠

٤١ ـ قناة سيو ٠

٤٢ ـ مينوثيس : زنجبار أو بمبا ٠

٤٣ ـ يحتمل النص الاصلي الأداء بالسفن المنقورة في جذوع الشجر ، أو المنقورة والمضاف اليها خشب مخيط بالأليـاف علـى جوانبهـا ٠

٤٤ ـ في دلتا نهر روفيجي على الارجح ، في تنزانية ، خلف جزيرة منفية ، والجدل مستمر لتحديدها بدقة ٠

٤٥ ـ معنى لفكي كومي « القرية البيضاء » ، وتبعد ٢٠٠ ميل عن برنيكي ٠ ربما كانت ينبع البحـر التي تبعد ٥٠٠ ميـل عـن البتـراء ٠

٤٦ ـ مدينة اثرية ادومية هي سلع القديمة أو الصخرة ، سماها اليونان البتراء ، وحولوها الى مستودع حبوب ومؤن ، جعلها الأنباط عاصمتهم الى أن احتلها الامبراطور تراجان ٠

٤٧ ـ مالخس ، لقب ملوك الأنباط وليس اسم ملك بالذات فيما يظن ٠

٤٨ ـ الجزيرة المحروقة أي البركانية : يقصد بها الزبير على بعد ١٢٠ ميلا شمالي غربي موزا ٠

٤٩ ـ المسافة الحقيقية ٩٠ ميلا تقريبا ٠

٥٠ ـ يرجح أنها اذين على بعد حوالي ٥٠ ميلاد عن موزا ٠

٥١ ـ الآراء متباينة بشان خليبس ٠

٥٢ ـ كانت سفار قرب بريم على بعد ٩٠ ميلا شمال شرقي موزا ٠

٥٣ ـ كرب آل : أحد ملوك سبأ ، ملك حمير وسبأ وقتبان معا فيما يظن ٠

٥٣ مكرر ـ موزا (أو موسى أو متجر موزا عند بطلميس) موشج في رأي ر٠ ب٠ سرجنت ٠

٥٤ ـ نسبة الى ابيرية (ابهيرة عند الهنود) : جوزرات الشمالية شمالي بروج مع شبه جزيرة كاثياوار ٠

٥٥ ـ جزيرة بريم في مضيق باب المندب ٠

٥٦ ـ المقصود باب المندب أو المندم ٠

٥٧ ـ أوكلس : الشيخ سعيد مقابل بريم والمسافة بينهمـا أربعة أميال ٠

٥٨ ـ القرية السعيدة : عدن ٠

٥٩ ـ لا بد من وجود خطا في كتابة فيصر ٠ يرى ماك كرندال ان اليسار هو الصواب ٠

٦٠ ـ قنا : حصن غراب عند عرض ١٩ ١٤° شمالا وطـول ١٩ ٤٨° شرقا ٠ والرأس رأس عصيدة ٠

٦١ ـ اليازوس : العزيلط ملك حضرموت ٠

٦٢ ـ جزيرة الطيور : جزيرة سيخا حاليا ٠

٦٣ ـ جزيرة ترولاس : جزيرة حلنية اليوم ٠

٦٤ ـ سفباثا : شبوة على بعد ١٢٠ ميلا شمالي غربي قنا ٠

٦٥ ـ يقع هذا الخليج بين قنا وبين سيغرس ، ويحوي مكلا والشحر ٠

٦٦ ـ رأس سيغرس : رأس فرتك على بعد ٥٥٠ ميلا شرقي شمالي شرقي عدن ٠

٦٧ ـ ذيوسكوريذو : جزيرة سقطرة ٠ وليس في الواقع منتصف الطريق بين رأس سيغرس ورأس التوابل ، بل تبعد ١٥٠ ميلا عن رأس التوابـل و ٢٥٠ ميـلا عن سيغرس ٠ وليس اسمها يونانيا بل سنسكريتيا معناه جزيرة السعادة أو النعيم ٠

٦٨ ـ المقصود شاطىء رأس التوابل ٠

٦٩ ـ ليميريكي : الصواب زميريكي أي بلاد التاميل ٠
٧٠ ـ موسخا : يرجح أنها سلالة الحديثة ٠
٧١ ـ اسيخنس : جبال خلف رأس فرتك ٠
٧٢ ـ زينوبيوس : خوريا موريا ، والاسم يوناني ماخوذ من قبيلة بني جنابي ٠
٧٣ ـ سرابس : مصيرة على بعد ٢٥٠ ميلا شمالي شرقي خوريا موريا ، على ٧ الى ١٠ أميال عن البر ٠
٧٤ ـ كلايو : مجموعة جزر غربي مسقط (فل ، ديمانيات ، جازجون ، سوادي) ٠
٧٥ ـ المقصود انهم لا يبصرون جيدا في الميل على الاغنب ٠
٧٦ ـ كالن : لم يتفق على ما يقابل هذا الجبل ٠
٧٧ ـ اسبون : جبال عصب حسب ماك كرندل ٠
٧٨ ـ سمير أميس : في جزيرة لارك على الأرجح ٠ أبولوغو : الابلة قرب البصرة ٠ بسينوخاركس : مدينة قديمة قرب القرنة عند التقاء دجلة أو الفرات ٠
٧٩ ـ عمانة : غير عمانة (= عمان) الفصل ٣٢ ٠ وهي على ساحل فارس ، ولم يتفق لا على موقعها ولا على ما يقابلها ٠
٨٠ ـ مذرات : المدرعات أي المربوطة بحبال ألياف نخيل ٠
٨١ ـ خليج الجيدروزين : ساحل مكران وبيلوشستان ٠ حوربة : النهر المقصود بورالي أو العب ٠
٨٢ ـ رمبكية : لم يعرف موقعها حتى الآن ٠
٨٣ ـ سكيثية : بلاد ساكا في عرف اليونان ٠
٨٤ ـ سينثس : نهر الهندوس ٠
٨٥ ـ بربريكون : تغيرت دلتا نهر الهندوس ، وزال البر الذي قامت عليه هذه السوق والجزيرة الصغيرة المقابلة لها ٠
٨٦ ـ منفارة : مندسور وعاصمة سيرستريني ٠
٨٧ ـ يرينون : رن كوتش ، معناها المستنقع المالح ٠
٨٨ ـ براكي : دواركة في الطرف الشمالي الغربي من شبه جزيرة كاثياوار ٠
٨٩ ـ بلاد اريكي : البلاد الواقعة خلف بريغازة وجوزرات ٠حكم منبانوس من ١١٥ الى ١٢٥ ميلادية ٠
٩٠ ـ سيرستريني : شبه جزيرة كاثياوار ٠
٩١ ـ انظر الحاشية ٨٦ ٠
٩٢ ـ استكابرة : اسمها الهندي هستاكفبرة ، وهي حاليا هثاب قرب بهفنغار مقابل بروج تقريبا ٠
٩٣ ـ بيبكي : قرب استكابرة ، مقابل دهج الواقعة على ساحل كمباية الشرقي ٠
٩٤ ـ بيونس : جزيرة بيرم ٠
٩٦ ـ مايس : نهر ماهي حديثا ٠
٩٦ ـ لمنيوس : نهر نربادة ٠
٩٧ ـ بريغازة : اسمها الأصلي بهاروكاشا ، أصبح اليوم بروج ٠ كانت سوقا تجارية هامة عند مصب نربادة هيروني : رق مقابل كموني ، يحتمل أن يكون جزءا من الرصيف الواقع جنوبي مصب نهر نربادة ٠
٩٨ ـ كموني : قرية في الجانب الجنوبي من فوهة نهر نربادة ٠ يظن أنها كيم الحديثة ٠
٩٩ ـ بروكلايس : الصواب بوكلايس : بسكلافتي ، وحاليا شرسدة ، على ٢٥ ميلا شمالي شرقي بيشاور ٠
١٠٠ ـ اسكندرية بوكيفلس : مدينة بناها الاسكندر احياء الذكرى جواده العزيز عليه الذي نفق قرب أحد معابر نهر جهليوم ٠

الواقع ان الاسكندر لم يقترب من نهر الغانج ، بل كر راجعا عندما وصل الى مكان في مقاطعة غوردسبور لا يبعد
كثيرا عن لاهور • ومنه ذهب الى فوهة نهر الهندوس، ومنها أبحر الى رأس الخليج •

١٠١ ـ الواقع ان الاسكندر لم يقترب من نهر الغانج ، بل كر راجعا عندما وصل الى مكان في مقاطعة غوردسبور لا يبعد كثيرا عن لاهور • ومنه ذهب الى فوهة نهر الهندوس، ومنها أبحر الى رأس الخليج •

١٠٢ ـ ازيني : اجين : مدينة قديمة جدا كان علماء الهيئة الهنود يحسبون أطوالهم منها • تقع على ٧٠ ميلا شمالي نربادة ، وعلى ما يقرب من ٢٠٠ ميل شرقي بريغازة •

١٠٣ ـ لم تحل معاني هذه التعابير باستثناء كبليتي الذي يظن أنه يراد به كابلي نسبة الى كابل •

١٠٤ ـ ذخينباذس : لفظ سانسكريتي يعني المنطقة الجنوبية أي شبه جزيرة الدكن جنوبي نهر نربادة ما عدا ساحل التاميل وملبار •

١٠٥ ـ بيثانة : تقع على نهر غدفاري على ما يقرب من ١٨٠ ميلا شرقي سوبارة على ساحلها الغربي ، وكانت سوقا تجارية كبيرة • تغارة : سوق داخلية كبيرة أيضا ، تقع على حوالي ١٠٠ ميل شرقي شمالي شرقي بيثانة ، واسمها الحالي تير •

١٠٦ ـ لم يعرف السيف المقصود •

١٠٧ ـ اكبارو : يظن أنها خيرون الواردة عند الادريسي •سوبارة : ماتزال قائمة على حوالي ٣٠ ميلا شمالي بومباي •

١٠٨ ـ مدن هندية على الساحل الغربي لهضبة الدكن وجزرتقابله •

١٠٩ ـ تندس : تنور الحديثة على حوالي ٧٥ ميلا جنوبي كننور • والمملكة في بلاد التاميل •

١١٠ ـ موزرس : كرنكبور ، على حوالي ٢٥ ميلا تقريبا جنوبي كننور •

١١١ ـ نلكيندة : كوتيام على حوالي ٥٠ ميلا جنوبي كرنكنور•

١١٢ ـ بكري : حاليا فيكاري •

١١٣ ـ المقصود كوتانارة حول كوتيام وكيلون •

١١٤ ـ هذا رأي المصري أو اليوناني الذي صنف الكتاب • ولاريب أن العرب والهند عرفوا الرياح الموسمية قبل قدوم أي ملاح غريب الى بحر الهند من بلاد بعيدة عن سواحله •

١١٥ ـ الجبل الأحمر : يطلق اسم الأجرف الحمراء على الشاطىء الحاد الانحدار تحت كيلون •

١١٦ ـ بالتة : لعلها تريفاندروم أو منبالي • كمار : رأس كمهري • كولخي : قرب توتيكورين • ارغلو : اوريور أو تيشينوبولي القديمة عاصمة مملكة شولا •

١١٧ ـ كمارة بوهار • بوذوكي : على الأرجح اريكميدو •سوباتمة : لعلها مدراس القديمة •

١١٨ ـ المقصود جزيرة سيلان •

١١٩ ـ مسالية : ماسوليبتم •

١٢٠ ـ ذيسريني : أرض أوريسة قديما •

١٢١ ـ لم تتحدد هذه القبائل بعد •

١٢٢ ـ خريسي : يرجح ان المقصود بورمة وآسية الجنوبية الشرقية •

١٢٣ ـ كان المصنفون القدامى يطلقون اسم البلدان المجهولة على مدينتها الرئيسة ، مما يدل على جهلهم لما وراء الهند •

١٢٤ ـ بحر بنطس : البحر الأسود • بحيرة ميوتس : بحر ازوف •

استدراك على ديوان « ديك الجن » ٢

نشر القسم الأول في العدد ٢٥ ـ ٢٦

خير الدين شمسي باشا

قافية الباء

١ ـ في الديوان (ص ١٣) البيت الثالث :

وتضحك سِن المرء والقلب موجع ويرضى الفتى عن دهره وهو عاتب

وهو في الحماسة البصرية (عالم الكتب بيروت ص ٢٣٧/١) :

« وتضحك سن المرء والقلب عابس »

٢ ـ البيت الخامس :

الى أي فتيان الندى قصد الردى وأيهم نابت حماه النوائب

وهو في الحماسة البصرية :

الى أي فتيان الندى سبق الردى وأيهم انتابت حماه النوائب

٣ ـ البيت السادس (ص ١٤) :

فيا لأبي العباس كم رُدَّ راغبٌ لفقدك ملهوفاً وكم جُبَّ غارب

وفي الحماسة البصرية :

« ألا يا أبا العباس ... »

٤ ـ **البيت الثامن :**

فيا قبره جُدْ كل قبر بجوده ففيك سماءٌ ثرة وسحائب

وهو في الحماسة البصرية :

« ويا قبر جُدْ كل القبور بجوده »

٥ ـ **البيت التاسع :**

فانك لو تدري بما فيك من علا علوت وباتت في ذراك الكواكب

وهو في الحماسة البصرية :

« علوتَ فلاحت في ذراك الكواكب »

٦ ـ **البيت العاشر :**

أخ كنت أبكيه دماً وهو نائم حذاراً ، وتعمى مقلتي وهو غائب

وهو في الحماسة البصرية :

« أخ كنت تدمى مهجتي وهو نائم »

وفي زهر الآداب (عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثانية ص ٢/٧٥٤) :

« أخ كنت أبكيه دَ ما وهو حاضر »

٧ ـ **البيت الحادي عشر (ص ١٥) :**

فمات ولا صبري على الأجر واقف ولا أنا في عمر الى الله راغب

« فمات ولا صبري على الأجر واقفاً »

وفي زهر الآداب (ص ٢/٧٥٤) :

فمات فما شوقي الى الأجر واقف ولا أنا في عمري الى الله راغب

٨ ـ **البيت الرابع عشر :**

يقولون : مقدار على المرء واجب فقلت : واعوال على المرء واجب

وهو في الحماسة البصرية :

يقولون : مقدار على الحر واجب فقلت : واعوال على الحر واجب

٩ ـ البيت الخامس عشر (ص ١٦) :

هو القلب لمـا حُمَّ يومُ ابن أمـه ... وهي جـانب منـه وخلّف جانب

وبعده هذه الأبيات في الحماسة البصرية :

فتى كان مثل السيف من حيث جئته ... لنـائبـة تأتيـك فهـو مضـارب
بكـاك أخ لـم تحـوه بقـرابـة ... بلـى ان اخـوان الصفـاء أقـارب
وأظلمت الدنيـا التي كنت جارهـا ... كـأنـك للـدنيـا أخ ومنـاسـب
يبـرد نـيران المصـائـب أنني ... أرى زمنـاً لـم تبـق فيـه مصائب

وبهذا انتهت القصيدة في الحماسة البصرية • على حين ذكر صاحب زهـر الآداب بعد البيت العاشر حسب ترتيب الديوان هذه الأبيات وذلك بعد ذكره بيت علـي ابن محمد الكوفي :

ونِسبةُ ما بين الأقارب وحشـةٌ ... اذا لم يؤنِّسْها انتسـابُ قـلوب

قال : وهذا البيت كقول الطائي :

وقلت أخي ، قالوا : أخ من قرابة ... فقلت لهـم : ان الشكول أقـارب
نسـيبي في رأيي وعزمي ومذهبي ... وان باعدتنا في الأصـول المناسب

وقال عبد السلام بن رغبان ، وسلك طريق الطائي (فما ضل عنها) :

أخ كنت أبكيـه دماً وهو حاضـر ... حذاراً وتعمى مقلتي وهو غائب
بكـاءَ أخ لم تحـوهِ بقـرابـةٍ ... بلى ان اخوان الصفـاء أقـارب
فمات فما شوقي الى الأجر واقف ... ولا أنـا في عمـري الى الله راغب
وأظلمت الدنيا التي أنت نورهـا ... كأنـك للـدنيـا أخ ومنـاسـب
يبـرد نـيران المصـائب أنني ... أرى زمنـاً لم تبـق فيـه مصائب

وفي هـذه القصيدة :

ترشفتُ أيامـي وهُـنَّ كَوالِـحٌ ... اليـكَ وغالبتُ الردى وهـو غالب
ودافعتُ في كيـد الزمـان ونحـره ... وأي يـد لـي والزمان المحـارب
وقلت له : خـلٌّ ابـن أمي لعصبـةٍ ... وها أنـا أو فازدَدْ فانـا عصـائب

فوالله اخلاصاً من القول صادقاً ... والا فعبي آل أحمد كاذب
لو ان يدي كانت شفاءك أو دمي ... دم القلب حتى يقضب الحبل قاضب
لسلمت تسليم الرضا واتخذتها ... يداً للردى ما حج لله راكب
فتىً كان مثل السيف من حيث جئته ... لنائبة نابتك فهو مضارب
فتىً همّه حمد على الدهر رائح ... وان ناب عنه ماله وهو عازب
شمائل ان تشهد فهن مشاهد ... عظام وان ترحل فهن ركائب

ولنا تعليق على قول صاحب زهر الآداب :« وسلك طريق الطائي فما ضل عنها » نقول : لعل العكس هو الصحيح ، أي أنأبا تمام هو الذي سلك طريق ديك الجن ، وأخذ عنه ، وقد شهد بذلك أبو منصور الثعالبي فيكتابه (ديوان المعاني ـ منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ص ٢/٣٥٩) : وقال ديك الجن في وصف السكر :

(وهما البيتان المذكوران فيما يلي في قافية الراء) • ثم قال الثعالبي : وأخذه أبو تمام ـ وكان كثير الأخذ عنه •

وذكر الأديبان المرحوم محيي الدين الدرويش وطويل العمر الأستاذ عبد المعين الملوحي جامعا الديوان في مقالهما عن حياة الشاعر :

بين ديك الجن وأبي تمام :

وحدث عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدي قال : كنت جالساً عند ديك الجن ، فدخل عليه حَدَث فأنشده شعراً من عمله ، فاخرج ديك الجن من تحت مصلاه درجاً كبيراً فيه كثير من شعره فسلمه اليه وقال : يا فتى ، تكسَّبْ بهذا واستعن به على قولك ، فلما خرج سألته عنه فقال : هذا فتى من أهل جاسم يذكر أنه من طيء يكنى أبا تمام واسمه حبيب بن أوس ، وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع : قال : وعمرَ ديكُ الجن الى أن مات أبو تمام ورثاه • انتهى •

١٠ ـ في كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي :

(نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة ص ١٠٠) باب الأمثال السائرة للمولدين ، هذا البيت لديك الجن (وليس في الديوان) :

سبحانَ مَن جعلَ الآدابَ في عَصَبٍ ... خَطّاً وصَيَّرها غيظاً على عُصَبِ

قافية الحاء

١١ ــ في الغيث المنسجم للشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي

(بالمطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠٥ هـ/ص ٤٥/٢) وقال ديك الجن (وليس في الديوان) :

حتى أصادف مالاً أو يقال فتىً ... لاقى الردى بين أسياف وأرماح

١٢ ــ في الديوان (ص ٣٢) :

رقّ حتى حسبته ورق الورد جَنِيّاً يرف بين الرياح

وفي كتاب (خاص الخاص للثعالبي ــ طبع دار الحياة بيروت ١٩٦٦ ص ١٢٨)

« نَدِيّاً يَرِفُ بين الرياح »

قافية الدال

١٣ ــ في كتاب زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن اليوسي :

(طبع دار الثقافة بالدار البيضاء ، ص١/٢١٥) : وقال ديك الجن :

وليس المرء ذو العزمات الا ... فتى تلقاه كل غد ببلاد

وفي الحماسة البصرية (ص ١/١١٥) ذكر المحقق في الحاشية في شرح بيت الحريش السعدي :

فدعني أطوف في البلاد لعلني ... أسر صديقاً أو يُساء حسود

قال : نظر اليه ديك الجن :

وليس المرء ذو العزمات الا ... فتى يلقاه كل غدٍ بلاد

فتىً ينصب في صدر الفيافي ... كما ينصب في المقل الرماد

البيت الأول ليس في الديوان ، والثاني بهذا اللفظ :

فتىً ينصب في ثغر الفيافي ... كما ينصب في المقل الرقاد

قافيــة الــراء

١٤ ـ في الديوان (ص ٣٩) البيتان الخامس والسادس :

ظللنـا بأيدينـا نتعتـع روحَها فتأخذ من أقدامنا الراحُ ثارهـا
موردة مـن كـف ظبـي كأنمـا تنـاولهـا مـن خـده فأدارهـا

وهما في ديوان المعاني للثعالبي (٣٥٨/٢) :

مشعشعة مـن كف ظبـي كأنمـا تنـاولهـا من خـده فأدارهـا
فظلـت بأيدينـا نتعتـع روحهـا وتأخذ من أقدامنا الراح ثارهـا

قال أبو منصور الثعالبي : أخذه أبو تمام، وكان كثير الأخذ عنه :

اذا اليـد نالتهـا بوتـر توقـدت على ضعفها ثم استقادت من الرجل

١٥ ـ في الديوان (ص ٤٧) :

أأتـرك لـذة الصهبـاء عمـداً لما وعـدوه مـن لبـن وخمـر

وفي دفتري ، ولم أذكر من أين نقلته :

« أأترك ههنا الصبهـاء نقـداً »

١٦ ـ في الديوان (ص ٥١) :

وردية (يحملهـا شادن) كأنهـا من خـده تُعصَرُ

وفي ديوان المعاني للعسكري :

« وردية يحتثهـا أحور »

قافيــة السـين

١٧ ـ في الحماسة البصرية (ص ٣٤٩/٢) :

الصفات والنعوت : وقال ديك الجن عبد السلام : (وليس في الديوان) ·

غراء جاءت وأفواه الثـرى يبس لكنهـا انصرفت والنـور منغمس
تسري وللريـح في حافاتها زجـل يريك ذهنـك أن الـرزق ينبجس
في مأتم للحيـا ما انهـل عارضـه الا وفيـه لأبكـار الثـرى عرس

قال الشارح في الحاشية : لعلها : جادت ·

قافية العين

١٨ ـ في الحماسة البصرية (ص ١/٢٧٢):

وقال ديك الجن عبد السلام : (وليس في الديوان) .

ليس يخشى جيش الحوادث من جُنداه وفدا صبابة ودموع
قمر حين رام أن يتجلى سار فيه المحاق قبل الطلوع
فلذة من صميم قلبي وجزء من فؤادي وقطعة من ضلوعي
لصغير أعار رزء كبير وفريد أذاق فقد جميع
ان تكن في التراب خير ضجيع كنت لي في المعاد خير شفيع

قافية الفاء

١٩ ـ في الديوان (ص ٦٨) :

أوفى بصبغ أبي قابوس مفرقه كدرة التاج لما أن علا شرفا
وفي ديوان المعاني للعسكري (ص ٢/٥٣٨) :

« كدرة التاج لمَّا عُلِّيَتْ شرفا »

٢٠ ـ في الديوان (ص ٧٠) البيت الحادي عشر :

كأن قافاً أديرت فوق وجنته واختط كاتبها من فوقها ألِفا
وفي ديوان المعاني للعسكري (ص ٢/٢٧٩) :

كأن لاماً أديرت فوق وجنته واختط كاتبها من تحتها ألفا

٢١ ـ في الحماسة البصرية (٢/٣٦٠) :

وقال ديك الجن : (وليسا في الديوان) :

وكم قربت من دار عبلة عبلة كجندلة السور المقابل مشرفه
فيرعى الفلا ما قد رعته من الفلا وينحفها المَرْتُ القفار وتنحفه

٢٢ ـ في الديوان (ص ٦٧) البيتان الأول والثاني :

وشافي النصح يُعْدَل بالأشافي وليس القِدر الا بالأثافي
اذا شجر المودة لم تجُدْهُ سماءُ البِر أسرع بالجفاف

وفي كتاب (التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ٩٩) :

ديك الجن :

وشافي النصح يعدل بالأشافي ومن جعل القوادم كالخوافي

وليس القدر الا بالأثافي

اذا شجر المودة لم تجده بغيث البر أسرع في الجفاف

وقال محقق الكتاب في الحاشية :

وفي (خاص الخاص للثعالبي ص ١٠٢) [طبع دار الحياة ، بيروت ص ١٢٨ :]

أبا عثمان معتبةً وصبراً وشافي النصح يعدل بالأسافي

وفي (نهاية الأرب ٣/٩٥) [طبع المؤسسة المصرية العامة ص ٩٨] .

وشافي النصح يعدل بالأشافي وليس القدر الا بالأثافي

وقال المحقق : ديك الجن : هو عبد السلام بن رغبان الكلبي شاعر ماجن، سمي بذلك لأن عينيه كانا خضراوين . مات بحمص سنة ٢٣٥ هـ (وفيات الأعيان ٢/٣٥٦)

قافية القاف

٢٣ ـ في كتاب التوفيق للتلفيق ـ للثعالبي :

(مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ص ٣٦) قال : وفي التلفيق بين لوني العاشق والمعشوق يقول بعض المولدين وهو يصف الخمرة :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده أتت بين ثوبي نرجس وشقائق

حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

وقال محقق الكتاب في الحاشية : البيتان في ديوان ديك الجن (ص ٧٤) وهما وبعدهما ثالث في قطب السرور للنديم (ص ٦٥١) بعد أبيات ثلاثة لابن المعتز . انتهى .

وهما في الديوان : « أتت بين ثوبي نرجس وشقائق»

«عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق»

والبيت الثالث هو :

ومن عرف الأيام لم يغترر بها وبادر باللذات قبل العوائق

قافيـة الـلام

٢٤ ـ في الديوان (ص ٨١) وقال في الحكم وطلب الرزق :

لا تقـم للـزمـان في منـزل الضيـم ولا ترتبطـك رقـة حال
واذا خفتَ أن يراهقـك العُـدْم فعُـذْب بالمثقفـات العـوالي
وأهِـن نفسَك الكريمةَ للمـوت وقحِّـمْ بهـا عـلى الأهـوال
فلعمـري لَلْموت ازين للحُرّ مـن الـذل ضـارعاً للرجـال

وهي في ديوان المعاني للعسكري (١/١٦٥) كما يلي :

قال ديك الجن :

لا تقـم للزمـان في منـزل الضيم ، ولا ترتبطك رقة حـال
وأهِـن نفسـك الكريمـة للموت ، وقحم بهـا عـلى الأهـوال
فلعمـري لَلْمـوت أجمـل بالحر من العيش ضارعاً للرجـال
أي مـاء يجـول في وجهـك الحُرّ ، اذا ما امتهنته بالسؤال

قافيـة الميـم

٢٥ ـ في ديوان المعاني للعسكري (ص ١/١٢٦) :

وقال ديك الجن يفتخر بكلب : (وليس في الديوان) .

كلبٌ قبيلي ، وكلبٌ خير من ولدت حواءُ من عَرَبٍ غُرّ ومن عَجَمِ

قافيـة النـون

٢٦ ـ في الديوان (ص ١٠٥) البيت الثاني :

ولا تنظـرن اليوم لهواً الى غـدٍ ومَن لِغَـدٍ من حـادث بأمـان

وفي ديوان المعاني للعسكري (ص ٢/٣٥٦) :

« وما لِغَـدٍ من حادث بأمان »

٢٧ ـ في الحماسة البصرية (ص ١/٢٦٥)ذكر البصري بيتي يعقوب بن الربيع بن حارثة في امرأتـه :

فلو أنني اذ حُمَّ يومُ وفاتها	أحكم في عمري لشاطرتها عمري
فحلَّ بنا المقدور في ساعة معاً	فماتت ولا أدري ومت ولا تدري

ثم قال : وقال ديك الجن عبد السلام في معناه : (وليست في الديوان) :

لا مت قبلك بل أحيا وأنت معاً	ولا بقيت الى يوم تموتينا
لكن نعيش كما نهوى ونأمله	ويرغم الله فينا أنف واشينا
حتى اذا ما انقضت أيام مدتنا	وحان من يومنا ما كان يعدونا
متنا كلانا كغصني بانة ذبلا	من بعدما استورقا واستنضرا حينا

قافية الهاء

٢٨ ـ في الديوان (ص ١١٢) جاء ترتيب الأبيات كالآتي :

(١) ـ يا طلعة ... (٢) رويت ... (٣) حكمت ...

وترتيبها في أمالي الزجاج (دار الكاتب العربي بيروت ص ٦٥) .

(١) ـ يا مُهْجَةً ... (٢) حكمت ... (٣) رويت .

وجاء فيها البيتان الخامس والسادس كما يلي :

ما كان قتليها لأني لم أكن	أبكي اذا سقط الذباب عليها
لكن بَخلَتْ عليَّ العيونُ بلحظها	وأنفتْ من نظر العيون اليها

ولعل الخطأ في السادس من الطبع . وصحته :

لكن بَخِلْتُ على العيونِ بلحظها	وأنِفْتُ من نظر العيون اليها

وهما في الديوان كما يلي :

ما كان قتليها لأني لم أكن	أخشى اذا سقط الغبار عليها
لكن ضننت على العيون بحسنها	وأنفت من نظر الحسود اليها

خير الدين شمسي باشا

من النجوم الغوارب

الشاعر صالح طه

عمر طه

نبغ في بلاد الشام في أواخر العصر الفائت وأوائل هـذا العصر على الرغم من الصروف التاريخية الصعبة التي أحاطت بها وعاقت مسيرتها نوابغ في كل ميدان تعهدوا أنفسهم بانفسهم وشقوا كالنجوم اللامعة خلال ظلام الزمن مسالكهم النيّرة • وتحرص مجلة التراث العربي أن تثير من حين الى آخر ذكرياتهم وتنوه بجهودهم وتسجل ما قدموه الى وطنهـم وأهلهم من جزيل البر وجليل العمل • فيما يلي دراسة موجزة للشاعر صالح أحمد طـه بقلم الأستاذ عمر طـه مـن كلية العلوم في جامعة دمشق

☐ نشـأتـه وحيـاتـه :

هو صالح بن أحمد بن محمد بن محمد بن طـه ولد في مدينة دوما القريبة من دمشق عام ١٢٧٧ هـ/١٨٦٠ م •

انتخب والده أحمد بن محمد طه عضواً في محكمة دوما عام ١٨٩١ م ، وكان يـدير ادارة أملاك الوجيه محمد البارودي •

نشأ الشاعر صالح طـه في كنف والده وكانت مخـايل الذكاء الفطري تظهر عليـه منـذ طفولتـه •

درس القراءة والكتابة والقرآن الكريم على بعض شيوخ عصـره ، ومنهـم الأستاذ العلامة الشيخ محمد الخطيب ، ولم يتلق قواعد اللغة العربية وعلوم البيان والمنطق على أحد من العلماء الأعلام •

توفيت والدته عام ١٨٧٤ م وكـان في سن الوعي والرشد ، فأخذ ارثه منها واشتغل

★ ستصدر آثار الشاعر صالح طه تباعا وهي القصائد المهملة ـ ديوان شعره ـ روض البيان ومتنزه الانسان ـ تحسين البديع بمدح الشفيع ـ السفينة •

بالتجارة . ثم توفي شقيقه محمد في عام ١٨٨٤ م وعمره ٢٤ سنة ، فرثاه بقصيدة مؤثرة، ثم توفي ولده محمود وعمره ست سنين عام ١٨٨٥ ، وتوفي جده محمد بن محمد طه في عام ١٨٨٨ م وعاش ١١٠ سنين ، وتوفي والده أحمد بن محمد بن محمد طه في عام ١٣٢١ هـ ـ ١٩٠٣ م ، وقد عاش ٦٤ سنة .

تبحر الشاعر في علوم الهندسة والحساب حتى أصبح بارعاً في حل أعقد المسائل الحسابية بسرعة فائقة حسب طريقته الخاصة .

وكان يمتاز بخبرته في الشؤون العمرانية الهندسية ، وكان عليماً بقواعد الخطوط الجميلة وكتابتها ، وله باع طويل في العلوم الروحانية ، يهوى الطرب ويفتنه سماع الأصوات الجميلة ، وكان ذا خبرة في الفن والموسيقى وعلم النغم وأوزانه ، وقد نظم الموشحات البديعية .

وفي عام ١٨٨٤ م عين كاتباً ومحاسباً في بلدية دوما ، وفي عام ١٨٩١ م عين رئيساً لغرفة الزراعة والتجارة ، وفي عام ١٨٩٢ م انتخب عضواً في شعبة المعارف ، وفي عام ١٨٩٤ م عين رئيساً للمصرف الزراعي .

☐ رئاسة بلدية دوما :

حاز بطريق الانتخاب رئاسة بلدية دوما وذلك في عام ١٩٠٠ م ، وكانت حياته مليئة بمختلف وجوه النشاط ، ومن أبرز مزاياه التي كانت السبب في اجماع الناس على محبته وتقديره أنه جعل بينه وبين المنافع الشخصية حجراً محجوراً ، خدم بلده بنزاهة واخلاص ، فمنحه مواطنوه ثقتهم وطال عهده في تلك الرئاسة ، والذين عرفوا الشاعر صالح طه يحيون فيه سعة الكرم والابتعاد عن التزلف والترفع عن المال .

قام بأعمال اصلاحية عديدة منها توسيع جامع دوما الكبير باضافة معزبة على طول حرمه ، واقامة الجسور الشمالية فيها بشكل هندسي بديع وذلك في عام ١٨٩٠ م .

وفي عام ١٩٨٣ م قامت وزارة الأوقاف بتجديد بناء جامع دوما الكبير .

بنى جامعاً من ماله الخاص سمي باسم جامع طه وقد أكمله أولاده من بعده .

☐ مميزاته :

كان الشاعر صالح طه طلق اللسان ، قوي الحجة، جريئاً وصريحاً، يرتجل النوادر والشعر مع الناس ، يلقاهم بثغر باسم ،نشيطاً في عمله ، يكره الشهرة وحب الظهور، وهب الله له خصباً في الفكر ، ومتانة في الاستدلال ، كان فيهما لا يجارى ، فيعطي الجواب من روح السؤال ، وله حافظة قوية تميل الى الصواب ، وهو وسيم الوجه ، مشرق الجبين، يسدي الخير لمن يحيط به من الناس.

أما أسلوبه في الأدب فكان يعبر عن رسالة الفكر والقلب .

وأما أسلوبه في الشعر فكان لسان القلب الرقيق ، ولغة العاطفة المعبرة المرهفة ، وترجمان العيون الهائمة في عالم الجمال .

علماء عصره :

عاصر العلماء : الشيخ طاهر الجزائري وكان شاعراً وأستاذ العلماء الأعلام، والشيخ عبدالرحمن القصار ، والشيخ محمد المبارك، والأمير محيي الدين الجزائري ، والشاعر الهلالي الحموي ، والشيخ طاهر شمس الدين الحمصي ، والشيخ عبدالقادر بدران وغيرهم.

وكان هؤلاء العلماء والشعراء يترددون مع تلاميذهم لزيارته في دوما ، وله اجتماعات ومساجلات أدبية كثيرة مع أفاضل علماء دمشق وفي طليعتهم الشيخ بدرالدين الحسني.

شعره :

اذا سرحنا النظر في ديوان هذا الشاعر المطبوع نجد فيه السلوى المنعشة والمتعة الروحية ، واللوحات الجمالية الخلابة المنسجمة مع روح ذلك العصر ، من قصائد غزلية ووصفية لجمال الطبيعة ، ثم قصائد في المدح، واخرى في الحكم والتأمل والتضحية، وقصائد في الرثاء ، وقصائد في الفخر وعزة النفس ، وقصائد صوفية .

وكان الشاعر يميل خاصة الى الشعر التأملي الصوفي والى الخمريات ، فكان شعره من النوع الموشّى بلطائف البديع والبلاغة .

والشاعر صالح طه مبدع كالصائغ تتميز صياغته بمتانة اللفظ واشراق الفكرة ووضوح في المعنى .

وتظهر عبقريته الشعرية في الشعر المهمل والتأريخ الشعري ، وكانت ارتجالاته الشعرية موضع العجب والاعجاز ، ومن قوله الارتجالي في الوفاء :

اذا ذهب الوفاء فقل سلامٌ ... على أهل المحبة والوفاءِ
ولا تعتب على أبناء دهرٍ ... فلون الماء من لون الاناءِ

وقوله في المقاطعة :

سأترك حبكم من غير بغض ... وذاك لكثرة الشركاء فيه
اذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه

وقوله في فلسفة الحب :

عشق المحبوب ظبياً مثله ... فاعتراه من هواه وله
كان معشوقاً فأمسى عاشقاً ... حكم الحب عليه وله

وقوله في وصف حبيبه :

أريد وصاله ويريد هجري ... وموضع حبه مني الوريد
وأعشق ما أراد بكل آن ... فأترك ما أريد لما يريد

وقوله في التورية :

حيث يذكر الشاعر لفظاً مفرداً له معنيان أحدهما قريب ظاهر غير مراد والآخر بعيد خفي هو المراد :

وعالة بالنحو قلت لهــا اعرابي   حبيبي عليه الدهر كان قد اعتدى
فقالــت حبيبــي مبتدا بكلامــه   فقلت لها (ضمّيه) اذكان مبتدا

□ نمـاذج مـن شـعره :

ـ شعره بالتاريخ .. رحلته الى استانبول :

ســافر الشاعر الى استانبول وقابـل السلطان عبدالحميد الثاني ، ومدحه بقصيدة تاريخية بمناسبة العيد الفضي سنة ١٣٠٨ هـأي ١٨٩٠ م ، وهي ٣١ بيتاً والمشتملة على (١٥١٩٠) تاريخاً لعام ١٣٠٨ هـ :

أرّخ ثنـا قمَـر بالوسـعِ والطّـربِ   كـرّر ثنـا مدحـهِ بالحلم واللّقبِ
٥٥١ ٢٤٠ ١٦٩ ٢٤٨ ٤٢٠ ٥٥١ ٥٧ ١١١ ١٦٩

قِف كي ترى مُلحاً كالنّصر حبّبها   عبـد" فقيرٍ" رأى الملـوان كالكُتُبِ
١٨٠ ٣٠ ٦١٠ ٧٩ ٣٩١ ١٨ ٧٦ ٣٩٠ ٢١١ ١٥٨ ٤٧٣

وامدح بعزٍّ خطيراً يبري طِلـع جوى   عثمانُ أوصـى لـه بالمُلكِ في رَصَبِ
٥٩ ٧٩ ٨٢٠ ٢٢٢ ١٠٩ ١٩ ٦٦١ ١٠٧ ٣٥ ١٢٣ ٩٠ ٢٩٢

وأطبـع ثنـائي بـدر" الأمر في مَلِـك   أهـل" لطبـع الثّنـا والمصطفى العربي
٨٨ ٥٦٢ ٢٠٦ ٢٧٢ ٩٠ ٩٠ ٣٦ ١١١ ٥٨٢ ٢٦٦ ٣١٣

ـ وبذلك يكون في البيت الأول وفي كل بيت٦ تواريخ لعام ١٣٠٨ هـ ، فنالت استحسان السلطـان فسالـه عما يبتغيـه فأجابـه : لا يريـد سوى اكتساب مرضاة الله بتوسيع جامع دوما الكبير ، فامر له بمبلغ ٦٥٠ ليرةذهبية لهذه الغاية ، واثارت عزة نفسه اعجاب السلطان الذي كـان يتهـالك الشعراء علىمدحه للحصول على عطاياه ، وقد صرف هذا المبلغ على الجامع بمعرفة لجنـة خاصة كانالشـاعر يرأسهـا .

□ شـعره المهمـل :

اهتم الشاعر صالح طـه بالشعر المهمل(الحرف المهمل : هو كل حرف بدون نقط) ، وقـد ألّف قصائد بديعية وموشحات كثـيرةأهمها الرسالة التي سماها « الدرارى واللآل لمدح محمد والآل » وكان عمره ٣٠ سنة ، طبعت في عام ١٨٩٠ م وتتألف من :

١ ـ مقدمة نثرية بدأها ببسملة من تأليفه خالية من النقط فقال :

اسم الله السلام أول الكلام

٢ ـ قصيدة بمـدح الرسول الأعظم (ﷺ) عـدد أبياتها ٩٩ بيتـاً مطلعهـا :

آسَر الأسْودَ هِلالُ سَلـعِ والحمى   لمّـا رعى آل اللّوى ولهـُم حَمـى

٣ ـ قصيدة في مدح السلطان عبدالحميد عدد أبياتها ٣٤ وقد عظمت مكانته في قلوب العرب والمسلمين إذ ذاك حين رفض مكايد الصهيونية وعروضها السخية أولها :

مَلَكَ المكارمَ والمحامدَ والعُلا ... مَلِكُ الملوكِ مع الممالك والملا

٤ ـ تفسير المفردات أيضاً بالمهمل .

٥ ـ تقريظ الشعراء له بالمهمل وتحوي سبع قصائد للشعراء : عبدالحميد الخاني ـ محمد نسيب الحمزاوي ـ محمد هلال ـ عبدالعزيز الجزائري ـ محمد علي الكيلاني ـ عبدالقادر بدران ـ سليم جاويش .

☐ **شعره في الموشحات البديعية : (٥٧) بيتاً .**

ـ قال راثياً الأستاذ العلامة الشيخ محمد الخطيب المتوفى في مدينة الرسول (عليه الصلاة والسلام) عام ١٣٠٨ هـ ١٨٩٠ م .

يا لقومي ما لِدمعي همَلا ... وفؤادي نارُه في ضَرَمِ
هل خطيبُ المجدِ استاذُ العُلا ... ماتَ وجداً في رياضِ الحرمِ

☐ **شعره في الوصف :**

ـ **وقال يصف الربيع :** (٥٨) بيتاً :

وافى الربيعُ ودرَّتِ الأنواءُ ... ووفى الزمان وطابت الفيحاءُ
وتمايد الغصن الرطيب من الصبا ... وشدا الهزار وغنَّت الورقاءُ
وجرت جداول كل دوح باسق ... بين الرياض وراقت الصهباءُ
وتضمَّخت ريح الصَّبا من طيبه ... فتأرجت بأريجها الأرجاءُ
وتكلَّل الروض البهيج من النَّدى ... درراً لها فوق النجوم سناءُ
وحكت ربوعُ الشام أفق سمائها ... فالنجمُ زهر والربى الخضراءُ

والخضراء في البيت الأخير من معانيها السماء وهو المراد هنا وفيه تورية .

ـ وقال في وصف **رأس العين بدوما** « عين فاسريا » :

برأس العين منتزه وماءُ ... وأطيارٌ تصادحُ كالأغاني
وروض فيه يا صاحي هواءٌ ... أرقُّ من الصبابة في الغواني
ومنظر بهجة فيه تثنت ... غصونُ البان من نغم المثاني
بسفح طالما غازلتُ فيه ... ظباءَ الانس في بنت الدنانِ

☐ **شعره في الغزل :**

ـ وقال في عام ١٣٠٧ هـ ـ ١٨٨٩ م :

لك في فؤادي مرتعٌ وبناظري ... يا فتنة الشعراء وقبلة خاطري
وبنور وجهك كم تنوَّر باطنا ... وبفرط حبك قد تهتك ظاهري

قسماً بشعرك وهو ليلٌ مظلمٌ ... وبغرةٍ مثل الصَّباح السافرِ
وبسيف ألحاظ وقوس حواجبٍ ... وبنبل أجفانٍ كَلَمْنَ سرائري
وبمقلةٍ كحلاء هاروتيَّةٍ ... سحرت عقول عواذلي وعواذري
وبوجنةٍ سرقت دماء قلوبنا ... فبدت بنضرتها كصبغ حائرِ

☐ شعره في المدح :

– وقال مادحاً صاحب السعادة أحمد باشا الشمعة ومهنئاً له بعيد الفطر عام ١٣١٥ هـ – ١٨٩٧ م : (٤١) بيتاً :

عذر أرباب الهوى خلعُ العذار ... هل سمعتم مثل هذا الاعتذار
فاعذروني بالذي من خدهِ ... فاح عطرُ الوردِ من آس العذار
بدرُ حسنٍ فوق غصنٍ مسفرٍ ... تحت ليلٍ يزدري شمس النهار
عنبري الخالِ مسكي اللحا ... جوهري الثغر دريّ النثار
موصليّ الوعد كوفيُّ الوفا ... يمنيُّ العهد شاميُّ الوقار
بابليُّ الطرف سحارُ النهى ... بين جفنيه لقتلي ذو الفقار
سمهريّ القدّ فضاح القنا ... صدهُ قد علم الظبي النفار
ما رأت عيناي ظبياً قبلهُ ... يألفُ المدن ولا يهوى القفار

☐ شعره في الفخر :

– وقال في عام ١٣٢٠ هـ – ١٩٠٢ م في قصيدة مطلعها :

تركنا الهوى لمّا ادعته الأسافلُ ... وشبّب فيه بالغواية جاهلُ
وما العشق الا ما علمت مقدّساً ... عن الرجس لا ما تدّعيه الأراذلُ
فهل للهوى العذري آهل بوقتنا ... أم الدار قفرى منهمُ والمنازلُ
سلامٌ على ربع الغرامِ وأهلهِ ... فقد درست آثارهم والفضائلُ
واني وان كنت المتيم بالهوى ... فلي عنه شغلٌ بالمفاخر شاغلُ
ومن كان مثلي لا يضيّع وقته ... بلهوٍ قلتهُ في الدهور الأفاضلُ
لذلك سدتُ القومَ غير مشاركٍ ... قد ابتعدت عن حالتيَّ المشاكلُ

☐ شعره في الرثاء :

– وقال راثياً شقيقه محمد بن أحمد طه وكانت وفاته في ربيع شبابه وعمره ٢٤ سنة في عام ١٣٠٢ هـ – ١٨٨٤ م بقصيدة مطلعها :

« هبطت اليك من المحل الأرفع » ... حورٌ أرتك الشمس تحت البرقُعِ
وسقتك كأساً بالرّحيق ممسكاً ... فغدوت ملقىً لا تفيق ولا تعي
وغدا جبينك بالرّضاء مكلّلاً ... وتلاهُ نورٌ ضاء حول المضجعِ

لم أنس يوماً فيه شمتك صامتاً ... ينبي سكوتك عن رضاك بأدمعي
ان كنت ترضى دمع عين غاسلاً ... إيه دموعي هذا وقتك فاهمعي

هذا ولم يدع غرضاً من أغراض الشعر المتداولة اذ ذاك الا وعالجها ، فله في الحكمة والخمريات والمدح والهجاء أشعار كثيرة سوف تظهر في ديوانه ورسائله ·

☐ شعره في الخمريات :

دعني من النثر والأشعار والأدب ... واعكف على اللهو والأوتار والطرب
وعاطني الكأس رغم اللائمين بها ... وزوّج ابن سحاب بابنة العنب
وقل لمن لا يرى رأياً وظن سوى ... ما قلته الفصل اذ أغروه بالكذب
هذا زمان أبي جهل فدع حكماً ... وعاد علماً وكن فيه أبا لهب

☐ شعره في الحكمة :

ـ وقال في قصيدة مطلعها :

الحلم والعلم والمعروف والعدل ... مثل الطبائع اذ هم للعلا أصل
والصدق كالفلك الأعلى له أثر ... بعالم الطبع لا البهتان والبطل
والخمس للمرء كالخمس الحواس فان ... عداه بعضهم لم يكفه الكل
والمرء رهن الهوى فليخش عاطفة ... من رأيه وليشاور من له نبل
فالرأي كالسهم يخطي القصد آونة ... والفكر ينبو كسيف فاته الصقل
لا ينكر الفضل الا من به سفه ... لا يعرف الفضل الا من له أهل
فالفضل كالشمس بالاشراق تنكره ... عين بها رمد لا الأعين النجل
والحق يعلو ولا يعلى عليه ومن ... يهوى الأباطيل يوم الفصل لا يعلو
والشكر فرض علينا كل آونة ... فالشكر لله وهو الحاكم العدل

☐ شعره في عزة النفس والكرامة :

وقد عالج التشطير ، فمن تشطيره الذي راج اذ ذاك بيتان منسوبان الى جد الرسول عبدالمطلب القرشي الهاشمي امتاز بعزة النفس والكرامة :

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة ... والمجد يعشقها طبعاً من الأزل
ما ان تسلت بما يزري لنا حسباً ... ولو تسلت أسلناها على الأسل
لا ينزل المجد الا في منازلنا ... وما حواه سوى آبائنا الأول
ونحن والمجد ان شبهت إلفتنا ... كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

وكذلك من التشطير قال الشاعر :

واذا نطقت ففي صفات جمالكم ... واذا سكت فحالتي تتكلم
واذا رويت فعن صحيح حديثكم ... واذا سألت الكائنات فعنكم

واذا ذكرتكم فكلي ألسن وبذكركم يترنم المترنم
واذا نظمت تغزلا في صورة فالقصد أنتم والبرية تعلم

شعره في التخميس :

وقد شهد أفاضل معاصريه من الأدباء والشعراء بأنه كان آية باهرة من الذكاء الفطري والنباهة والفراسة فقد طلب منه الشيخ محمد الشركة من علماء دمشق في عام ١٣١٣ هـ - ١٨٩٤ م أن يخمس الأبيات التي مطلعها :

يا قاضي الغزلان جَفْني والكرى خصمان يختصمان فاحكمْ واهدِني

فادرك الشاعر بقوة فراسته انه يمتحن قوة نظمه الارتجالي فابتسم وكتب تخميساً جميلاً للأبيات كلها مستهلة بالشطور الخمسة الآتية :

نادى السلوّ فما أجاب فأقصرا دنفٌ بأحكام الغرام تحيرا
كيف الخلاص من القضاء اذا جرى يا قاضي الغزلان جَفْني والكرى
خصمان يختصمان فاحكم واهدني

- وكذلك خمس مطلع قصيدة الشاعر ابن الفارض :

زدني بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشا بلظى هواك تسعرا

فقال الشاعر مرتجلا :

سبحان من أسرى بصبري مذ سرى دمعي فباح بسرنا وبما جرى
وغدوت محتاراً وصحت مكبّراً زدني بفرط الحب فيك تحيرا
وارحم حشا بلظى هواك تسعرا

شعره في النصيحة للعلم :

- وقال في عام ١٣١٦ هـ - ١٨٩٨ م في النصيحة من أجل العلم في قصيدة مطلعها :

لقد ضيعتَ وقتك غير صاحِ مع الجهّال في قيلٍ وقالِ
وبعت العمر في سوق الملاهي برخص لا تفكرُ وهو غالِ
ستذكر حين تصحو صدق قولي وتعلمُ أنني أهوى المعالي
أما تدري بأن الجهل عارٌ وأن العلم مجد غير بالِ

شعره في العلماء :

- وقال في عام ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م في العلماء :

أعلى المراتب رتبةُ العلماءِ وهمُ النجومُ لمهتدٍ بضياءِ
فمن اقتدى بضيائهم فقد اهتدى لنجاحه في الليلة الليلاءِ
ورثوا علوم الأنبياء فهديهم نور يضيء على شعاع ذكاءِ
فهو الصراط المستقيم لديننا وهمُ الملاذُ بشدةٍ ورخاءِ

□ شعره في النصب التذكارية والتاريخية :

ـ وقال الشاعر صالح طـه مؤرخاً وضع عمود النصب التذكاري بمبتدأ السبيل « ساحة المرجة » في عام ١٩٠٠ م ـ ١٣١٨ هـ بمناسبة السلك البرقي بين دمشق ومكة المكرمة . وقد صنع هذا العمود في معامل كروب الالمانية بطلب من السلطان عبدالحميد :

هـذا عمودُ البرق عـن قطب الفلك ... يروي ثَباتَ المُلك عن وحي الملكْ
وبعيـد ربـع القرن أسسَ ثابتاً ... من مجد من أحيا البسيطةَ مذْ مَلكْ
عبـدالحميـد ومـن لنـا بسبيله ... ماءُ الحياة فردُهُ واسق من سلكْ
لا زال منصـوراً وان آرخت قـلْ ... بدقائق السّاعات ما دارَ الفَلَكْ

١٣٠   ٢١٨   ٥٦٢   ٢٤٦   ١٦١

١٣١٨ هـ

□ شعر في السؤال :

ـ سـئل الشاعر عـن جواب هـذا البيت :

ما لي أرى الشمع يبكي في مواقـدهِ ... من حرقة النار أمْ من فرقة العسلِ

ـ فأجـاب الشـاعر مرتجـلاً :

مَن لَم تُجانسهُ احذر أن تجالسهُ ... ما ضرَّ بالشمع الا صُحبةُ الفُتُلِ

□ شـعره على صورتـه :

فقد أهدى صورته الشمسية عام ١٨٩٠ م فكتب عليها مفتخراً :

شمس البلاغـة ما سـرت في سـائري ... الاّ رأتْ أبـراجَهـا بسـرائـري
مـن أيـن للأرسـام تدرك غايتـي ... هيهـات غايتهـا برسـم ظواهري

□ مقابلة الشاعر صالح طـه مـع الأمـير شكيب أرسـلان في اسـتانبـول :

دُعيا الى حفلة ختان أنجال أحمد عزت باشا العابـد في استانبول وكان الأمير بجانب الشاعر فسأله هل هيأ قصيدة في هذا الموضوع فأجابه بالنفي وقال له الأمير وأنا مثلك ، ولما بدأت الحفلة قام الأمير وألقى قصيدة بالتهنئة، فوجم الشاعر وانتفخت أوداجه ثم قام وهنأ صاحب الدعوى بأبيـات ارتجلها وكان لهـا الوقع الحسن نذكر منهـا :

لاح السـرور فـلاح نجمُ فلاحـي ... بختـان بـدر لا يميـلُ لـلاحـي
وتزينـت سـررُ العـلاء لمجـده ... وتهـاتفـتْ ببشائـرُ الأفـراح
وتمـايلت أغصـان هاتيـك الربـا ... طربـاً كـراشف مسكر يا صـاحي
والطـير يصـدح في الحبـور عشيّةً ... والنجـمُ يلمـعُ في سـما الاقـداحِ
حيث الختـانُ يقـولُ في تاريخـه ... أحظى بقصـدي عاجـلاً ونجـاحي

٩١٩   ٢٠٦   ١٠٥   ٧٨

١٣٠٨ هـ

□ شعره في التصوف :

ومن نوادر الشاعر صالح طه أنه امتحن في مناسبة واقعية الشيخ عبدالقادر بدران في التصوف فقال :

ملأت الكون معرفة … وسري سار كالنفس
ولست أرى معي أحداً … فسلم لي ولا تقس

□ وفاته :

كان الشاعر في آخر حياته صالحاً ورعاً ويدل على ذلك تشطير بيت الشاعر ابن الوردي :

فاترك الخمرة ان كنت فتى … وصل العقل بعلم وعمل
فهي والله جنون ظاهر … كيف يسعى في جنون من عقل

وحم القضاء على الشاعر فأصيب بذات الرئة في شهر صفر ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م ، ودفن في مقبرة دوما ، وكتب على لوح قبره الأبيات التالية :

غيثُ المراحم والغفران أحي ثرى … روضٍ بأفيائه قد أودعُوا قمرا
ذاكَ الأديبُ البليغُ الألمعي ومن … شرقاً وغرباً بوافي فضله اشْتهرا
فيا جفونَ المعالي ابكي عليه دماً … ويامجيدَ القريضِ اندُب وزدْ كدرا
وقلْ بحزنٍ توارى يا مؤرخهُ … بهاءُ صالح طه أشعرَ الشعرا

٦٠٢ ٥٧١ ١٤ ١٢٩ ٩

مجموع الأرقام ١٣٢٥ وهي توافق العام الميلادي ١٩٠٧ ·

والخلاصة ان آثار الشاعر صالح طه تسجل في طياتها صوراً متعددة ومختلفة لعهد تاريخي في بلاد الشام وللذوق الأدبي والشعري في أواخر القرن الماضي ·

□ آثاره :

١ ـ ديوان شعره ·
٢ ـ الدراري واللآل لمدح محمد والآل ·
٣ ـ روض البيان ومتنزه الانسان ·
٤ ـ تحسين البديع بمدح الشفيع ·
٥ ـ نظم متن دليل الطالب ·
٦ ـ جمع كلام المهمل على الترتيب الأبجدي ·
٧ ـ كتاب السفينة ·

□ المصادر :

١ ـ معجم المؤلفين : عمر رضا كحاله : ج ٤ : ص ٣٢٠ ·
٢ ـ فهرس دار الكتب المصرية : ج ٣ : ص ٩٩ ، ١٠٠ ·
٣ ـ الريف السوري : وصفي زكريا : ج ١ : ص ٢٥٢ ·
٤ ـ تاريخ الأدب العربي : د· كارل بركلمان : ملحق ٣ :ص ٣٤٢ Dr. Brockelman : s III : 342.
٥ ـ القاهرة : ج ٣ : ص ٩٠ · Kairo² : III : 90 .
٦ ـ أعلام الأدب والفن : ادهم الجندي : ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ·
٧ ـ الموسوعة الموجزة : حسان بدر الدين الكاتب : مجلد ٢ـ جزء ٨ حرف د : ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ·
٨ ـ تاريخ دوما : معروف زريق : ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ١١٠ ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣ ·

رضا صافي

١٧ رمضـــان ١٣٢٥ ٢٥ رمضان ١٤٠٨
٢٥ تشرين الأول ١٩٠٧ ١٢ أيـار ١٩٨٨

قلَّ من الأدباء والشعراء من حمَّل الحرْف رسالة عالية كالتي حمَّلَه إياها أبو نجم رضا صافي .

لقد نشأنا رفاقاً وأشباه أتراب . فتفتحت قلوبنا وأفكارنا على شعره الجزل وأدبه البارع اللذين كان يصوغهما صوغ الجوهري للآلىء يمده في ذلك حسن الفنان واخلاص العربي الحر وسلاسة الطبع وارهاف الفكر . فلم تكن تسنح فرصة للتنويه بمأثرة عربية الا وكان هزارها البليغ ، ولاكانت تتاح ثغرة لنضال الأجنبي المنتدب الا وكان ليثها المدافع وخطيبها المفوّه . ألفاظه على سلاستها شهب ملتهبة، ومعانيه بايحاءاتها شواظ محرق .

عمل في حقل التعليم ، أشرف الحرف والحقول على ضآلة جناه ، فأسس ثانوية الأمل للبنات فكان في تعليمه وادارته ومسرحياته القومية التي كتبها وأخرجها في إبان نشاطه التعليمي يسعى دائماً في توجيه الناشئة توجيهاً سديداً ، ويحثهم على انتهاج سبل المعالي ، ويشرح مزايا التراث العربي المجيد ، وينفخ روح الثورة والنضال في نفوس الشباب، ويستشرف بهم نحو ملامح مستقبل عربي وانساني كريم .

لقد عاش في حمص وكانت نفسه كالبلور الصافي تستقبل جميع الأحداث التي تمر بها فتسجل أصداءها الايجابية وتحلل ألوانها كما يتحلل النور الأبيض على الموشور البلوري الى طيوفه السبعة ينساب كل لون حسب الحدث غناء وأملاً أو عناء وغضباً أو كفاحاً وتفاخراً وما الى ذلك من خوالج وخواطر وأماني .

وبقيت تلك الأصداء الاجتماعية والقومية والانسانية في تلك النفس الكبيرة مطبوعة بحروف نورانية . وكأنما خشي عليها في أكلأ العمر أن تضيع أو تفوت بوفاته فعمد الى تسجيلها بريشته الماسية وبلاغته السلسة في كتابه « على جناح الذكرى » . وهكذا استوعب الكتاب بأجزائه الأربعة حقبة واسعة من الزمن بما فيها من نشوء وجد وعناء ورجاء وعلم وتعليم وكفاح ونضال وتقدم وما شئت من مشكلات اجتماعية ونفسية وثقافية وتحررية . كتب في مقدمة الكتاب : « وانما كان الهدف أن أعرض لمواطني أبناء بلدي حمص ولا سيما أجيال الشباب واليافعين منهم لمعاً من حياة أجيال تقدمتهم في بلدهم هذا الحبيب وملامح من معالمه ومظاهره وأطرافاً من تقاليده وعاداته وشذرات من كفاحه ونضاله . فاذا لم يكن فيها ما يفيدهم فاني لأزعم أن فيها ما يطرفهم حيناً ويثير فخارهم واعتزازهم في كثير من الأحيان » .

ولما كانت البلاد العربية السورية تكاد تكون الأحداث الجارية عليها واحدة والصروف التاريخية والاجتماعية متشابهة ومتناظرة كان ذلك الكتاب لا يصور حياة حمص بمجملها وتفاصيلها وحدها في تلك الحقبة الزمنية بل حياة المدن السورية كلها تقريباً .

فالكتاب سجل واف وحافل بصور الحياة وصور المدينة وصروفها وأحداثها في ذلك العهد القصير المتطاول .

نعم ذلك العهد قصير وان تطاول . وانما أقصد به عمر انسان عاش وجد وكافح وكتب وتألق فهو قصير مهما فسح له في الاجل اذا قايسناه الى طول المكث تحت الثرى . أريد هنا أن أقف بعض الشيء فأتصور عمر الأرض حتى الآن وهو يقدر بأربعة مليارات من السنين وأتصور أيضاً تاريخ ظهور الانسان على الأرض وهو يقدر بمليون سنة تقريباً . ولو اعتبرنا عمر الأرض بالفرض عاماً واحداً لكان ظهور الانسان قد حصل في الساعتين الأخيرتين من ذلك العام ، ولكان التاريخ الميلادي وهو يكاد يتم عشرين قرناً عبارة عن الخمس عشرة ثانية الأخيرة ولكان عمر الانسان في أحسن أحواله لا يزيد على ثلاثة أرباع الثانية . فما بالنا بالنسبة الى الأبد البعيد يوم تقوم القيامة وتبدل الأرض غير الأرض . أوليست هذه اللحظات الخاطفة التي هي عمر الانسان تعادل وميض البرق حين ينبلج بين كفاف السحاب ثم سرعان ما ينطوي ؟!

هنا نقدر حدس الشيخ الرئيس ابن سينا في قصيدته العينية المشهورة حين يصف قِصَر حياة المرء على الأرض في بيت منها فيقول :

فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

وكذلك بيت الفيلسوف السهروردي الذي يشعر الشعور نفسه ويستعمل غالبية ألفاظ ابن سينا فيقول :

فاذا بها برق تألق بالحمى ثم انطفا فكأنه ما أبرقا

ولكننا نحن نقدر مع قصر هذا الوميض سناه الذي هتك حجب الظلام وأنار بعض الطريق للسارين على ظهر هذا الكوكب وساعد على نصيب من التقدم والرقي وأعان على نشر التعاون وكبح شرور الفساد .

إيه أبا نجم ! اني اذ أعرب عن مواساتي القلبية لأسرة الكتاب السوريين ولأبناء حمص ولآل الصافي الكرام لأنوه بنور برقك اللامع وبكل ما قدمت من سعي ونضال وأدب رفيع .

وها أنذا أذرف عبراتي أبياتاً على نهجك اذ كنت طول حياتك تعتمد النثر والشعر مجدافين في زورق الحياة الأدبية الذي أقلك الى شاطىء الأبدية :

مقام المرء في الدنيا قليلُ ... وميض ثم يتبعه أفولُ
أبو نجم مضى فنعيت نفسي ... وكلٌّ خلفه أجلٌ وبيلُ
أسيتُ لفقده وبكيتُ حيناً ... وكفكفَ دمعي الصبرُ الجميلُ
وأنّا لاحقون به جميعاً ... رحيلٌ بعده نومٌ طويلُ
وكم ودعت من خلٍّ وأهلٍ ... سيودعني أخٌ لي أو خليلُ
كذا الدنيا فلا بقيا لنفسٍ ... ألا ان اللقا يومٌ مهولُ
أبو نجم مضى لكن كنزاً ... من الأدب المصفّى لا يزولُ
وشعرٍ رائع القسمات عذبٍ ... يمدُّ بيانه الطبع الأصيلُ
ونثرٍ بارع البسمات حرٍّ ... الى كل القلوب له سبيلُ
وفكرٍ مرهف الاحساس زاكٍ ... له في كل مأثرة هديلُ
وأكنافٍ موطأة رقاقٍ ... سجايا كلها راحٌ شمولُ
وان غالت عقول الناس راحٌ ... فراحُ كريم خُلقك لا تغولُ
هي الذكرى صنعت لها جناحاً ... فطافت في معالمها الفصولُ
فيا لك من فصولٍ ملهمات ... تناول رسمها قلمٌ نبيلُ
أبا نجم فلا تجزع علينا ... فان كفاحنا القاسي يطولُ
سنجعل مثل فعلك كل حرف ... شهاب لظىً على الباغي يصولُ
وكم دخل البغاة الى بلادي ... فزال البغي واصطُلِم الدخيلُ
وكم ذبلت رياض في ظلام ... فلما انزاح فارقها الذبولُ
تساوت عند خالقها البرايا ... وأقربها الى الباري العقولُ
عطاؤك في حياتك كان ضخماً ... وأجرك عند مولاك الجزيلُ
فعش في الخلد ماؤك سلسبيل ... وفي غرفاتك الظلُّ الظليلُ

ع. ك. ي.